الجملة القرآنية

في

قصة صالح عليه السلام

دراسة بلاغية

تأليف الدكتور

صلاح الدين محمد أحمد غراب

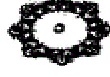
أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية اللغة العربية ـ الزقازيق

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م



﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين. محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين . أرسله ربه بالكلم الطيب والذكر الحكيم . فكان موعظة وشفاء وهدى للمؤمنين وشعاعا استنارت به عقولهم وحياتهم . فاستقاموا على الصراط المستقيم . صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين .

وبعد

فإن الجملة القرآنية هى لبنة الإعجاز فى القرآن الكريم . وقد بنيت بحكمة وإتقان من لدن الحكيم الخبير . فهى صنو مخلوقات الله فى السماء والأرض . دقة وصناعة وإعجازا وبقاء وفائدة . والمتأمل فيها يبهره ذلك السنا الذى يشع منها وهذه البنية التى ركبت عليها . وهذا النظم الجليل الذى يؤلف بين مفرداتها . وهذا الترابط الإسنادى بين كلماتها . وذلك الترتيب المحكم فى خطوها . والتنسيق المنسجم بين جاراتها . ولا عجب فى ذلك . فهى صياغة قدسية ونفحة إلهية . وتنزلات سماوية . وسفارة جبريلية . واحتواءات محمدية وإشراقات رمضانية . تنزهت عن

الأنفاس البشرية وحفظت فى الأوراق القدسية . بتقدير رب البرية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر / ٩] .

إن الجملة القرآنية ألوان وفنون . تطل عليك بأكثر من وجه من خلال تلك القصور الكلامية . وتمنحك شذاها كلما أخليت لها وجهك. وأقبلت عليها باد كارك وكلفك بهذه الرياض المزدانة بها . وعلى قدر التسلح يكون الظفر . وبمقدار النية تستجلب الفائدة . لا فرق فى ذلك بين جملة تكون فى الأحكام وأخرى تكون فى الإرشاد . وثالثة فى الأمثال . ورابعة تكون فى القصص ...

ولما كان القرآن بحرا لا يحاط به . فقد توفرت على زهرة واحدة من هاتيك الزهرات التى تملأ بستانه . أشمها وأعانقها وأحادثها وأغدو معها وأروح . لعلها تمنحنى شيئا من مكنونها المكنوز . وتفيض على من نورها الدفين . وكيف لا ؟ وهو القرآن الكريم . الذى نزل به ــ رسول كريم ــ على قلب أجود الناس ﷺ فكان هذا البحث المتواضع "الجملة القرآنية فى قصة صالح عليه السلام . دراسة بلاغية .

وقد سلكت فى صناعته هذا المنهج الآتى :

الفصل الأول : " تحقيقات حول القصة القرآنية " وفيه حديث عن القصة القرآنية من حيث لغتها وأحداثها وشخصياتها وأهدافها وبناؤها العام . والتقديم لها بالتمثيل .



الفصل الثانى : " البناء التركيبى فى القصة " وقد صدرته بالحديث عن "مفهوم الجملة" عند بعض العلماء . كابن جنى وعبدالقاهر والزمخشرى وابن هشام . وبيان موقع الآية القرآنية من مصطلح "الجملة الكبرى" و"الجملة الصغرى" ...

وكذلك حديث عن أثر "النحو وتوجيه المعنى " وكيف تكون العلامة الإعرابية موجهة للمعنى واختلافها مركز ثراء فى دلالة التركيب ثم عرضت لمشاهد القصة التى وردت فى قالب الإطناب . والأخرى التى وردت فى قالب الإيجاز وذلك من خلال الدراسة التحليلية للمشهد . وكيفية بناء جمله . وترتيبها . وترابطها أى ترابط الجمل فى المشهد . وترابط المشهد فى السورة التى وردت فيها . مع بيان الفروق الصياغية فى المشاهد . وقد توزعت هذه المشاهد على إحدى عشرة سورة فى القرآن الكريم ٠

وختمت هذا الفصل ببيان "الروابط فى القصة" تلك الروابط التى تنوعت بين الروابط اللفظية والروابط المعنوية . وكانت ذات أثر فاعل فى ربط جمل القصة ٠

وببيان " الفواصل فى القصة " وكيف كانت جزءا لا ينفصل عن المعنى ؛ يضاف إلى ذلك هذا الإيقاع الممتد على طول المشهد . وهذه القيمة الصوتية التى تميل القلوب وتجذب الأسماع . المنبعثة من توازى الفواصل وتساوى المقاطع٠

الفصل الثالث : " تراكيب القصة فى متشابه النظم " وفيه بيـــان عن التراكيب المتشابهة فى داخل القصة موضوع الدراســة . وعـن تراكيب القصة مع القصص الأخرى . وكل ذلك فى إطـــار التحليـل والتعليل لاختلاف هذه الفروق الصياغية وأثرها على اختلاف المعانى. وعلى الرغم من هذا التشابه الأسلوبى إلا أنها بعيدة كل البعد عن معنى التكرار . والسياق هو الحكم الفصل فى هذا المقام ٠

ولا يتسع المقال هنا لعرض كل ما كتب . ولكن أترك المعروض للقارئ الكريم . لعله يجد فيه ما تطيب به نفسه . ويلذ له جناه ٠

وآخر دعوانا " أن الحمد لله رب العالمين "

دكتور

صلاح الدين محمد غراب

١٧ من رمضان سنة ١٤٢٣هـ
٢٢ / ١١ / ٢٠٠٢م



الفصل الأول

تحقيقات حول القصة القرآنية

القصة فى المعجم اللغوى :

وردت مادة ـ قص ـ فى القرآن الكريم ومشتقاتها اثنتين وثلاثين مرة منها ثمان وعشرون تتعلق بالأخبار والحديث عن الأنبياء والمرسلين والأمم السابقة . ومنها أربع تتعلق بالحكم الشرعى وهو القصاص . لأنه يعنى تتبع أثر الدم بالقود(١) .

يقول الراغب " القص تتبع الأثر . يقال . قصصت أثره. والقصص الأثر قال ـ فارتدا على آثارهما قصصا ـ وقالت لأخته قصيه ـ ومنه قيل لما يبقى من الكلأ فيتتبع أثره . قصيص . وقصصت ظفره ـ والقصص الأخبار المتتبعة . قال ـ لهو القصص الحق ـ فى قصصهم عبرة ـ وقص عليه القصص ......

والقصاص . تتبع الدم بالقود . قال ـ ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ ـ ﴿الجروح قصاص﴾ ـ ويقال ـ قص فلان فلانا وضربه ضربا فأقصه أى أدناه من الموت(٢) ...

---

(١) ينظر المعجم المفهرس مادة ـ قصص .
(٢) مفردات الراغب ـ قصص .

ويقول ابن منظور المصرى "القص" فعل القاص إذا قص القصص والقصة معروفة ويقال فى رأسه قصة يعنى الجملة من الكلام والقصص . الخبر المقصوص . بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه . القصص بكسر القاف جمع القصة التى تكتب ... والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتبع معانيها وألفاظها وقال أبوزيد . تقصصت الكلام . حفظته(١).

فالمادة ــ قصص ــ تدور فى مجملها حول القطع والرواية والحفظ والتتبع والأولية من كل شئ. وهذا فيه مناسبة جيدة وقوية بين القصة وبين وضعها فى الإطار المعرفى . فهى حدث تاريخى مقتطع من الأحداث الإنسانية ذات الأهداف السامية والغايات النبيلة والتى من حقها أن تروى وتحفظ ويكون لها الصدر والأولية فى لفت الأذهان والأفهام إلى مواطن العظة والعبرة فى سجل الأحداث التاريخية الغابرة والتى لم تدون التدوين الحق إلا فى الكتب الإلهية . ويكفى أن الله عزوجل هو القاص لها والدال عليها . وهى فى علم البشر تعتبر من باب الغيب الذى لا يعلمه إلا الله عزوجل وقد قرنها به كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾(٢)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾(٣).

---

(١) لسان العرب ــ قصص .
(٢) سورة آل عمران آية ٤٤ .
(٣) سورة هود آية ٤٩ .

وقد سميت هذه الأخبار بالقصص لأن القصص بهذا المعنى يدخل فى مدلول كلمتى خبر ونبأ.

وقد استعمل القرآن الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى وإن كان قد فرق بينهما فى المجال الذى استعملا فيه جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام .

فاستعمل النبأ والأنباء فى الأحداث الماضية من زمن بعيد ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص/ ٢١] ، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف / ١٣] .

واستعمل الخبر والأخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

والاشتقاق اللغوى للقصة يفيد أنها كشف عن آثار مضت وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ولفتهم إليها لتكون العبرة والعظة . ولا يصح أن نطلق لفظ الحكاية على هذا النوع لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ما جرى فقط . أما القصص فإنه ينقلك بنفسك وعقلك ووجدانك إلى هذا الزمان الغابر لتعيش فيه فتأخذ العبرة والعظة " [1] .

---

(١) الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم صـ٢٨٩ .

لغة القصة القرآنية :

من المعلوم أن لغة القصة القرآنية هى جزء من اللغة القرآنيـة . تلك اللغة التى تكاملت فيها معانى الإعجاز والبلاغة العاليـة . والتـى وضعها علماء الإعجاز فى الطبقة العليا من الفصاحة والبلاغة . وكـم تكلم العلماء فى القديم والحديث عن اللغة القرآنية ومعـالم إعجازهـا وخصائصها التعبيرية والبيانية . وميادين هذا الإعجاز الذى اتسع لكـل المعانى . وشمل الحروف والكلمات والجمل .

وتعتبر الدراسات الأسلوبية والبيانية والبلاغية المتعددة . والتـى لا تحصى كثرة وتنوعا مظهرا من مظاهر هذا الثراء اللغـوى للغـة القرآن الكريم . تلك اللغة التى حفظت علينا لغتنا الفصحى . فى أرقـى مجاليها وأبهى حللها . وأرفع مستوى فى الإبداع والبيان .

وعلى الرغم من أن القصة القرآنية تنوعت أحداثـها واختلفـت أغراضها . وتعددت بيئاتها . وتكاثرت شخصياتها . فـإن المسـتوى اللغوى هو المستوى العام للغة القرآن ذات الإعجاز الرفيـع والبيـان البديع .

فقد حكى القرآن عن فرعون وهو لم يتكلم العربية . وكذلك عـن أنبياء الله تعالى ــ موسى ، وعيسى ، وغيرهما من الذين لم يتكلمـوا العربية . وكذلك حكى عن أقوام الرسـل . فـى الجزيـرة العربيـة



وخارجها . وكل ذلك كان بلغة القرآن المعجزة . التـــى أبـــانت عـــن الشخصيات وكشفت عن النفوس . ورسمت الأحداث ...

وذلك يدحض مقولة بعض المعاصرين . إن لغة القصة يجب أن تكون لغة واقعية . بمعنى أن تكون متناسبة مع مستوى الشخص الـــذى يتكلم . فتكون فصيحة إذا كان فصيحا . وعامية إذا كان عاميا . ولذلك حدث هذا التفاوت المرير بين لغة القصة عند بعـــض الكتـــاب الذيـــن ينادون بهذه الواقعية بين الحدث واللغة والمتكلم .

والمنصفون منهم يرون أن "الفصحى لا تقف عائقا . وهى علـــى التأكيد أكثر فائدة . أو أقل ضررا إن شئت .

إذا أريد للقصة أن تكون أدبا يتجاوز المحلية واللحظة ، ويدخـــل مجال العالمية والخلود . ويأخذ مكانه بين أجنـــاس الأدب الأخـــرى . والقول بأن الفصحى لا تساعد على توضيح ملامح الشخصية يرده أننا نترجم روائع القصص العالمى فى مختلف اللغات الأجنبيـــة . باللغـــة الفصحى ، نقلا عن لغاتها الأصلية . وفيها تتوالى شخصيات من فئـات شتى . تعبر عن حقائقها وأحوالها . وتكشف عن أعماقها وبواطنـــها . وتصور مشاعرها وعقلياتها ، فى عربية فصيحة لا نحس معها بـــأن الاتساق الفكرى للقصة قد مسه خلل أو قصر فى التعبير عنها فكـــرة وتصويرا "[١].

---

(١) القصة القصيرة ٧٣ .

وهكذا وقعت القصة البشرية تحت وطأة هذه المعركة الضارية بين كتابها . بعضهم يؤثر الواقعية وبعضهم يؤثر الفصحى . ومن الكتاب من بدأ بالعامية ولما استبان فشله . عاد إلى الفصحى فوجد فيها طلبته . من أمثال ـ محمود تيمور ـ فقد ذكر فى مقدمة مجموعته "الشيخ جمعة" أنه كان مقتنعا باللغة العامية فى الحوار أولا . ولكنه عدل عن ذلك عندما تبين خطأه ويقول " وبما أن اللغة العربية هى لغة الكتابة وجب علينا إذن أن نكتب القصة جميعها . أوصافها وحوارها باللغة العربية ... " (١) .

وتبقى القصة القرآنية بعيدة عن هذا العراك . محتفظة بسمت لغة القرآن الكريم . فى كل مجالاتها ومناخها وبيناتها . وشاهد عيان لمن أراد من الكتاب أن يرتفع بالقصة البشرية عن المستوى العامى إلى المستوى البليغ والفصيح . وستتأكد هذه المعانى فيما يأتى من تحقيقات وتقريرات .

سبب وجود القصة فى القرآن :

نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين . وجاء على نمط أسلوبهم الذى به يتخاطبون . وعلى حذو كلام الذى به يتكلمون . وعلى سمت تراكيبهم التى بها يعبرون وبها يتحاورون.وكان فيه من تصريف البيان وتنويع النظم ما كان على قياس كلام العرب فى شعرهم ونثرهم.

---

(١) المرجع السابق ٧٤ .

" إذ لا شك أن القرآن لم يجئ إلى العـــرب بشـــئ بعيـد عــن مدركاتهم أو غريب عن تصوراتهم وإنما جاء إلى القوم وبينه وبينـــهم نسب قريب ورحم ماسة فهو بلسانهم الذى ينطقـــون وعلـــى أســلوب فصاحتهم وما يتفاصحون وفى اتجاه منازعهم التى ينزعون وإن يكـــن فى القرآن جديد على العرب فى هذه الأمور وما إليها فهو فى تقويم ما أعوج وإقامة ما انحرف وتصفية ما كدر . وهكذا كان القــرآن يـــنزل على العرب فيجد عقولا متفاهمة معه . وقلوبا متقبلة له . مؤمنة بــــه. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ فقد جـاءت الرسالة الإسلامية بمكانها الملائم لها كل الملائمة والتقت بأهلها الذيــن هم أعرف الناس بها وأحقهم بالنظر إليها والإفادة منها "[١].

وإذا ما نظرنا نظرة عابرة إلى واقع النظم العربى . شعره ونثره قبل نزول القرآن الكريم . وجدنا هذا اللون من الأســلوب القصصـــى يصاحب رحلة الإنسان منذ عرف فن القريض وتغنى بأعذب ألحـــان البيان . فى صحرائه . فى حله وترحاله . فى مجالس ســـمره وعلـــى ظهور رواحله فقد أحاطت البيئة العربية سكانها بكثـــير مـــن ألـــوان الأحداث الخاصة والعامة . وهذه الأحداث كانت من أقسى ما يواجهـــه العربى فى حياته . مثـــل الغــارات والحـــروب والجـــدب والجـــوع والعواصف وغير ذلك من الكوارث التى لا تدع شيئا أتـــت عليـــه إلا جعلته كالرميم .

---

(١) القصص القرآنى ١٣ .



ومن شأن ذلك أن يفجر طاقات القول فى الإنسان وأن يستنطق كوامن نفسه ويثير وجدانه فيحكى ويروى تحسرا على ما وقع أو تسلية لنفسه عما فات .

ومن هذا وذاك نسجت الألوان القصصية لتعبر عن هذا العراك بين الإنسان والطبيعة .

ومن يراجع الشعر الجاهلى يجد البذور الأولى التى تخلقت فى كيانها القصة العربية . بعد أن استجنت فى كيان الشاعر وهتف بها وجدانه ونبض بها قلبه وترجمها لسانه شعرا يروى على مر التاريخ فى شعر امرئ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم والنابغة وغيرهم الدليل الأكبر على ذلك خذ مثلا قول عنترة :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ∴ يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ∴ أشطان بئر فى لبان الأدهم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ∴ ولبانه حتى تسربل بالدم

فازور من وقع القنا بلبانه ∴ وشكا إلى بعبرة وتحمحم

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ∴ قيل الفوارس ويك عنتر أقدم[1]

إنها قصة تصور البطولة النادرة لعنترة وهو يدخل هذه المعركة ورماح الأعداء تصيب لبان فرسه ومع ذلك يظل يواجههم به حتى صار الدم له سربالا . وتأثر بجراحه وبدأ يميل من وقع القنا بلبانه

---

(١) ينظر المعلقات للزوزنى ١٢٣ .

ويشكو بعبرته وصهيله ومع ذلك ما شفى نفس عنترة إلا قول الفوارس تعويلا عليه أقدم نحو الأعداء .

إنها قصة تخلقت فى حنايا هذا الشعر ونسجت من هـــذا الواقـــع المرير الذى يعيشه العربى فى صحرائه واستمع لعمرو بـــن كلثـــوم . يقول:

وقد علـــم القبـــائل مـــن معـــد ∴ إذا قبـــب بأبطحـــها بنينـــا
بـــأن المطعـــون إذا قدرنـــا ∴ وأنـــا المـــهلكون إذا ابتلينـــا
وأنـــا المـــانعون لمـــا أردنـــا ∴ وأنـــا الـــنزلون بحيـــث شـــينا
وأنـــا التـــاركون إذا ســـخطنا ∴ وأنـــا الآخـــذون إذا رضينـــا
وأنـــا العـــاصمون إذا أطعنـــا ∴ وأنـــا العـــارمون إذا عصينـــا
ونشرب إن وردنا الماء صفـــوا ∴ ويشـــرب غيرنـــا كـــدرا وطينـــا
ألا أبلـــغ بنـــى الطمـــاح عنـــا ∴ ودعميـــا فكيـــف وجدتمونـــا
إذا ما الملك سام الناس خســـفا ∴ أبينـــا أن نقـــر الـــذل فينـــا
ملأنا الـــبر حتـــى ضـــاق عنـــا ∴ ومـــاء البحـــر نملـــؤه ســـفينا
إذا بلـــغ الفطـــام لنـــا صبـــى ∴ تخـــر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا[١]

فهذه الأبيات فى مجموعها تمثل البطولة الاجتماعية لقوم عمـــرو ابن كلثوم بين أحياء العرب وكأنها تسجل قصتهم ومآثرهم ومشـــاربهم المختلفة فى جميع الأحوال التى تنزل بهم .

---

(١) المعلقات للزوزنى ١٠٩ .

وكلها قصص واقعي لم تغرق في الوهم ولم تبعد في الخيال ولم تتكئ على أسطورة وإنما كانت تلتزم بالواقع وتسير في مسارب الصدق . وإذا كان هناك من خيال فهو الخيال الذى يجوب الأفق القريب من الواقع . وإن كان هناك من مبالغة فهى المبالغة التى تظهر فى روعة النظم وجمال التصوير . وما كان العربى لينسلخ من واقعه كيفما كان ولا حيثما كان . بل عاش فى تياراته وبكامل تناقضاته ولم يرض به بدلا ولم يبغ عنه حولا . ولم يعش فى أحلام اليقظة ولا فى أجواء الأساطير وإنما حافظ على شخصيته واعتز بذاتيته وحرص أشد الحرص على صفاته وسماته بكل ألوانها ومذاقها . ولذلك علل بعض الباحثين خلو الأدب العربى من قصص الأساطير وشعر الملاحم . "بأن الطبيعة العربية لم تكن تتقبل أحلام اليقظة حتى فى دور طفولتها الأولى وأنها كانت في وعي دائم ويقظة كاملة منذ يومها الأول فى الحياة تحت ظروف الحياة القاسية التى لا تدع لأحد أن يغفو أو ينام...

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن قصور العرب أو تقصيرهم فى خلق مثل هذه الملاحم وتلك الأساطير لم يكن لنقص فى طبيعتهم ولا لضعف فى ملكة الخيال عندهم كما يقول المستشرقون ويردده المستغربون منا وإنما كان ذلك عن احترام لشخصيتهم أن يلبسوها غير لباسها وأن يعيروها ما ليس لها " [١] .

---

(١) القصص القرآنى ٢٣ .

وإلى جانب هذا القصص الشعرى كانت الأمثال وهى تحمل فى طياتها قصة قصيرة كاملة الأحداث والأشخاص تكون شبيهة إلى حد ما فى مضربها بموردها . فوراء كل مثل قصة واقعية أو غير واقعية ٠

ويضاف إلى ذلك ما كان يدور على ألسنة الناس فى مسامراتهم وأحاديثهم فى أسفارهم عن الحروب وعما يقع بينهم من الأخبار المثيرة والنوادر المضحكة . والطرائف الممتعة على حد ما حكى الجاحظ فى البيان والتبيين ٠

كل ذلك كان يعتبر الخلايا الأولى التى تربت فيها القصة العربية. وعندما أطل نور الإسلام ونزل القرآن على نبينا عليه السلام. كان هذا الفن متأصلا فى فن القول عند العرب . فكان لابد أن يحتفى القرآن بهذا اللون الأسلوبى الذى عرفه العرب فى جاهليتهم . وأن ينقل لهم أحداث الماضين من الأمم والرسل السابقين فى هذا القالب الذى ألفوه وهذا الفن الذى عشقوه ولكن فى إطار الإعجاز القرآنى ولذلك جاء على وضع آخر أعجزهم وبلون أدهشهم وحيرهم شأنهم فى ذلك هو شأنهم مع القرآن كله . العجز والتسليم وأنه ليس من كلام الإنس والجن . وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه . والحق ما شهدت به الأعداء٠

ومن هنا نعرف لماذا حشد القرآن الكثير من القصص وكيف احتشد فى نظمها ودقة عرضها وروعة بيانها على وجه يلتقى مع جليل



مكانتها فى البيان القرآنى . وعظيم منزلتها فى سوق العبر والعظات وقوة برهانها على وجود الواحد الأحد ·

وإذا كانت القصة فى القديم والحديث تعتبر مدخلا طبيعيا للقادة والزعماء والمصلحين وأصحاب المذاهب والتيارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى بث الآراء والمعتقدات والأعمال في عقول وقلوب من يريدون أن يحثوهم إلى جانبهم . فإنها تعتبر فى مجال التوجيه القرآنى والوعظ الإرشادى ألزم وأوقع فى لفت الأنظار وجذب العقول وإثارة الوجدان وتحريك الأذهان نحو المرامى السامية والغايات الهادفة . التى يهدف إليها القرآن . مع تلك الأسس التى تقوم عليها من التزام الحق والإقناع العقلى والاطمئنان القلبى والتسامى الروحى عن كل ما يؤدى إلى الضلال ·

* فالقصص القرآنى نسيج وحده فى موضوعه وفى أسلوب أدائه وفى مقاصده وغاياته ·

فهو فى موضوعه نسيج من الصدق الخالص وعصارة من الحقيقة المصفاة . لا تشوبه شائبة من وهم أو خيال . إنه يبنى من لبنات الواقع بلا تزويق ولا تمويه . وهذا الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز فى ذلك الأسلوب القرآنى الرائع . فالإعجاز والروعة إنما يتجليان فى صدق الأداء وفى نقل الواقع وما تلبس به من سرائر النفوس وخلجات الصدور وإنه ليس النقل "الفتوغرافى" الذى يقف عند السطح ولا يتجاوز شيئا مما وراءه من

أبعاد وأعماق . بل هو نقل حى للأحداث حتى لكأنما تتجسد فى الزمان والمكان اللذين حملاها . فتظهر وكأنها فى ساعة ميلادهـــا لا يختلــف يومها عن أمسها ولا يفقد من يشهدها اليوم شــيئا ممــا شــهده منــها الشاهدون بالأمس من صور وأشكال ومن مشاعر وأحاسيس . وهـــذا هو الإعجاز الذى نشهده في كلمات القرآن وهو أيضا الروعـــة التـــى تطلع علينا من عبقريات الفن وآياته ٠

وهنا أمر ينبغى أن نلفت إليه . وهو التفرقة بين الواقع فى ذاتـــه وبين نقله مصورا فى كلمات أو فى عمل من أعمال الرسم أو النحـــت أو الموسيقى . إذ ليس الإعجاب الذى يستولى علينا والروعـــة التـــى تأسر ألبابنا وتملك مشاعرنا من آيات هذه الفنون ليس ذلك لمجرد الدقة فى المحاكاة والصدق فى النقل عن الواقع بقدر ما هو كشف عما يكمن وراء القشرة السطحية للأشياء والتصريح بمكنونها الذى لا ينكشـف إلا لنظر الفنان ولا يدلى بأسراره إلا إليه »[١].

وسوف نستجلى هذه الحقائق فى تحليلنا للقصة القرآنية التى نحن بصدد عرضها فى هذا البحث ٠

التصوير الفنى بين الإدراك الفطرى والعلمى:

لم يكن الجيل الذى نزل فيه القرآن الكريم بحاجة إلى شرح البناء الفنى أو توضيح الإعجاز البلاغى أو بيان وسائل التصوير فـــى لغـــة

---

(١) القصص القرآنى ٩ ٠



القرآن . لأن مقدرته الفنية وسليقته العربية قد بلغت الذروة فى صناعة الكلام . وقد مارسوا صياغته وتعرفوا على ضروبه وأشكاله وكان انعكاسا لما يجرى فى طبائعهم وتفيض به سلائقهم . ولم يتكرر فى تاريخ الأمة جيل مثل هذا الجيل . فهو قد وضع الأسس والأصول فى الصياغة والتذوق والتمييز حتى صارت معلومة ومعهودة لأفذاذ الشعراء والنقاد والكتاب ، يجعلونها مراتع البيان . وجنى اللسان . وهدى الشادين فى لغة الأدب والشعر ولذلك قال عبدالقاهر "وإذا كنا نعلم أن استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبلغاء الذين تقدموا في الأزمنة وأنهم فجروا لهم ينابيع القول فاستقوا ومثلوا لهم مثلا في البلاغة فاختذوا إذن لم يبلغوا شأو ما بلغوا ولم يدر لهم من ضروع القول ما در ولو أن طباعا لم تشرب من مائهم ولم تغذ بجناهم ولم يكن حالهم في الاكتساب منهم والاستمداد من ثمار قرائحهم وتشمم الذى فاح من روائحهم . حال النحل التى تغتذى بأريج الأنوار وطيب الأزهار وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ثم تمجها أريا وتقذفها مذيا . إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ فى عداد عامة زمانهم الذين لم يرووا ولم يحفظوا ولم يتتبعوا كلام الأولين من لدن ظهر الشعر "[1].

إن العربية قد بلغت النضج والكمال من حيث صورها وسبكها وخصائصها وطاقاتها المبينة التى تفجرت فى نفوس أصحابها . الأمر

---

(١) الرسالة الشافعية ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ١٣٥ .

الذى هيأ لنزول القرآن بها . فكان نزوله ــ بلسان عربـــى مبيـــن ــ شهادة من الله لهم بالتفوق وللعربية بالكمال .

" وقد ذكر ابن جنى أنه كلما أمعن فى دقائق العربية وما تنطـوى عليه من حكمة ودقة ورهافة فى سياسة المعانى وحيازتها وتدسسها فى غوامض القلوب والنفوس وملامستها لأوابد الخواطر وشوارد الأفكـار قوى فى نفسه أن فى هذه اللغة أمرا إلهيا . بمعنى أن الله جلت حكمته. هيأ لها أجيالا متلاحقة ذات قوى مبينة مكينة . هم ألطف أذهانا وأسرع خواطرا وأجرأ جنانا وأن هذه الأجيال تواكبـت علـى هـذا اللسـان فأنضجته . وانه كان يخاطب بذلك علماءنا المستعربين الذين تدربـوا بلغاتهم قبل أن يستغرقهم درس العربية الذى كان بدوره ينبههم إلى مـا فى لغاتهم من دقائق وغوامض وإلى ما بينها وبين العربية من فـروق فلا يجمع أحدهم بين العربية وغيرها بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلـك لبعده فى نفسه وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه . هكذا سمع من أبى على وأبى حاتم وبندار ومن فى طبقتهم وكأنه موضع ليس للخلاف فيه مجال لوضوحه عند الكافة " [1] .

ويقول القاضى عياض عن بلاغة العرب " خصوا من البلاغـة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب وجعل الله لـهم ذلـك

---

(١) الإعجاز البلاغى صـ ١٣ .



طبعا وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب . فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن ويجرئون الجبان .. منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ومنهم الحضرى ـ أى ساكن المدن ـ ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية .."[1].

وقد أغناهم هذا الوضع المتألق فى اللغة سليقة وطبعا عن النظريات والأصول التى يحتاج إليها فى صناعة الكلام الجيد وتمييز طبقات الكلام بل إنهم لم يتكلموا فى وجوه الإعجاز لأنهم أدركوه بطبعهم وقام برهانه وسطعت حجته فى نفوسهم . وإن كانت هناك من إشارة فهى الإشارة الموجزة والعلامة الموحية والرمز فى خفاء . ولذلك لم يظهر التأليف العلمى فى علوم العربية إلا بتراخى الزمان وضعف السلائق "وكانت المعارف البلاغية والنقدية إنما تتوافر بمقدار توافر وهن السليقة تماما كما كان يحدث فى النحو ولما كان انتقال ألسنة العرب عن نحو السليقة أمرا باكرا كان النحو أسبق علوم العربية

---

(١) نقلا عن المعجزة الكبرى ٦٣ .



فتحددت أصوله فى أوائل القرن الثانى . ولما كانت الأذواق القادرة على تمييز ضروب الكلام أبطأ فى انتقالها وضعفها وأطول عمرا فى نفوس العرب بعد المخالطة كانت المعرفة النقدية والمسائل البلاغية أكثر تراخيا . فلم تتضح ولم تحدد إلا فى القرن الخامس والسادس"[1].

ومنذ عصر التأليف فى القرن الثانى . بدأ الحديث عن أسلوب القرآن من حيث ألفاظه ومعانيه وتآلفهما ومجازه وتأويله وتصويره وبلاغته . وقد بدأ أبوعبيدة فى ذلك خطوة بكتابه "مجاز القرآن" ثم تتابع العلماء فى هذا الطريق القرآنى . يوضحون إعجاز القرآن بعامة والإعجاز البلاغى بصفة خاصة مثل ابن قتيبة فى كتابه "تأويل مشكل القرآن" والجاحظ فى كتابه المفقود ـ الاحتجاج لنظم القرآن ـ ومحمد بن يزيد الواسطى فى كتابه "إعجاز القرآن" والخطابى والرمانى والباقلانى في رسائلهم في إعجاز القرآن . وعبد القاهر فى ـ دلائل الإعجاز والرسالة الشافعية والزمخشرى فى "كشافه" .

وما زال الباب مفتوحا يلجه القادرون من العلماء فى كل زمان ومكان . واقرأ على سبيل المثال . إعجاز القرآن للرافعى . والظاهرة القرآنية لما لك بن نبى وفصل فى إعجاز القرآن للعلامة محمود شاكر مقدمة له . والتصوير الفنى فى القرآن للشيخ . سيد قطب وهناك دراسات متنوعة لأساتذة كبار فى الجامعات المصرية وغيرها مثل

---

(١) الإعجاز البلاغى ١٩ .



أمين الخولى ومحمد خلف الله أحمد ومحمد عبدالله دراز وبنت الشاطئ والإمام محمد أبوزهرة والشيخ.محمد متولى الشعراوى والدكتور/محمد أبوموسى والدكتور/ عبدالعظيم المطعنى . وعبدالكريم الخطيب وعبدالرزاق نوفل وغيرهم كثير ٠

وهذه الكثرة من الدراسات القديمة والحديثة إن دلت على شئ فإنما تدل على علو بيان القرآن وكثرة تصاريفه الأسلوبية وتنوع خصائصه البيانية تنوعا تعجز عنه قوى البشر بل لا يمكن أن تتوفر هذه الخصائص الأسلوبية لكلام بشر . إذ أن القرآن . كلمات مضافة لله عزوجل . ففيه الروح الإلهية والنفحة القدسية والأنغام السماوية . قد وسع الكون وما وراء الكون وما سيجود به الزمان إلى يوم الدين فأى عقل يمكن أن يحيط بلغته ؟ وأى فكر يمكن أن يستقل بقضاياه؟

إن هذه الإحاطة لا تكون إلا للعليم الخبير ٠

ويشير مالك بن بنى إلى هذا التطور الإدراكى من الفطرة إلى التذوق العلمى فيقول "إن لكل شعب هواية يصرف إليها مواهبه الخلاقة طبقا لعبقريته ومزاجه فالفراعنة مثلا كان لهم اهتمام بفنون العمارة والرياضيات يدلنا عليه ما بقى بين أيدينا من آثارهم العظيمة تلك الآثار التى أثارت اهتمام رجال العلم مثل الأب (مورو) الذى خصص أحد كتبه لدراسة تصميم الهرم الأكبر وما يتضمن من نظريات هندسية غريبة وخصائص رياضية وميكانيكية عجيبة ٠



كما كان اليونان مغرمين بصور الجمال على مـــا أبدعــه فــن (فيدياس) وبآيات المنطق والحكمة على ما جادت به عبقرية (سقراط)٠

أما العرب في جاهليتهم فقد كانت هوايتهم فـــى لغتـــهم . فلــم يقتصروا على استخدامها في ضروريات الحياة اليومية شأن الشـــعوب الأخرى وإنما كان العربي يفتن في استخدام لغته فينحت منها صــــورا بيانية لا تقل جمالا عما كان ينحته ـــ فيدياس ـــ في المرمر وما كــانت ترسمه ريشة (ليونار دوفانس) في لوحاته المعلقة في متـــاحف العـــالم الكبرى ٠

فالشعر العربي كما قال أخي الأستاذ محمود شاكر في مقدمة هذا الكتاب ـــ كان حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ نورا يضئ ظلمـــات الجاهلية ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم ويسجدون لآياتـه سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط . فقد كانوا عبدة بيان قبــل أن يكونوا عبدة الأوثان وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم ٠

هذه صورة الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح ـــ بصفة عامة في زمن الـــنزول ـــ علـــى هـــذا السبيل أي بما ركب في الفطرة العربية من ذوق بياني ٠

ثم تغيرت هذه الظروف مع تطورات التاريخ الإسلامي وفـــاض طوفان العلوم في أواخر عهد بني أمية والعهد العباسي فصـــار إدراك



جانب الإعجاز فى القرآن بالمعنى الذى حددناه ـ لغة واصطلاحا ـ من طريق التذوق العلمى أكثر من أن يكون من طريق الذوق الفطرى

وهذا يعنى أن الإعجاز كما أدركته العرب وقت النزول ـ أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين.بيدها وسائل التذوق العلمى"[١]

وقد استمر إعجاز القرآن بعد مرحلة التبليغ لارتباطه بالقرآن إذ هو عين المعجزة وعين المنهج معا وليس من توابعه كما كان الإعجاز فى الديانة الموسوية أو العيسوية فقد انتهى بانتهاء مرحلة التبليغ واقتصر أثره على الجيل الذى شاهده ٠

وأما الإعجاز القرآنى فقد ارتبط بأمرين [٢] :

الأول : بالنسبة لشخص الرسول . هو الحجة التى يقدمها لخصومه ليعجزهم بها ٠

الثانى : بالنسبة إلى الدين . هو وسيلة من وسائل تبليغه٠

وهذان المعنيان للإعجاز يضفيان على مفهومه صفات معينة :

أولا : أن الإعجاز كـ(حجة) لابد أن تكون فى مستوى إدراك الجميع وإلا فاتت فائدته إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم فهو ينكرها عن حسن نية أحيانا ٠

---

(١) الظاهرة القرآنية ٦٠ / ٦١ ٠
(٢) المرجع السابق ٠



ثانيا : ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين. أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثالثا : ومن حيث الزمن أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه ....

وحيث إن حاجة التبليغ ستبقى مستمرة فيه سواء من الناحية النفسية لأن كل مسلم ـ بعكس اليهودي ـ يحمل في نفسه ـ مركب التبليغ ـ أم من الناحية التاريخية لأن الدين الجديد ـ الإسلام ـ سيكون دين آخر الزمن أي الدين الذي لا يعقبه دين سماوي آخر بل ولا يأتي دين بعده بصورة مطلقة كما تشهد بذلك القرون حتى إن حاجة الإسلام إلى وسائل تبليغه ستبقى ملازمة له من جيل إلى جيل ومن جنس إلى جنس لا يلغيها شئ في التاريخ وهذا يعني أن هذه الوسائل يجب ألا تكون مثل الأديان الأخرى . مجرد توابع يتركها الدين في الطريق عبر التاريخ بعد مرحلة التبليغ . مثل اليد عند موسى أو عصاه التي لم يبق لها أثر حتى في متاحف العالم كما بقيت عصا (توت غنخ آمون) الذهبية وعليه يجب أن يكون (إعجاز) القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال "[1].

ولا نظن بعد ذلك أن البلاغة القرآنية من جنس البلاغات البشرية. فهذه أرضية وتلك سماوية .

البلاغة البشرية منبعها النفس الإنسانية وأحوالها مختلفة من قوة وضعف . ونشاط وفتور . وإجادة واعتلال . وكل يوم هي في شأن . والكلام البشري ـ شعر ونثر ـ كالمرايا لأحوال هذه النفوس .

---

(١) الظاهرة القرآنية ٦٤ ، ٦٦ بتصرف .

ولكن البلاغة القرآنية لها سمتها وميزتها ومكانتها فهى أعلى مما تستخرجه النفوس وأرقى مما يتأمله العقل وأكمل مما يصوغه اللسان ويدور في الجنان ٠

وقد ذكر الخطابى أن القوم "صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن الفائقة فى وصفها سائر البلاغات وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل فتقع فى نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه ......

قالوا . وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به قالوا وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه والكلامان معا فصيحان ثم لا يوقف لشئ من ذلك على علة [١] ٠

وقد استنبط الدكتور / محمد أبو موسى من سؤال الخطابى أنه كان يمكن أن يكون أساسا لدراسة فرعين من فروع البلاغة ٠

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٢٤ ٠

الفرع الأول : هو بلاغات البشر . ما هى ؟ وكيف تكون ؟ وما حدودها ؟ وقد انصرفت الجهود إلى هذا الفرع وأتقنته ولكنها لم تصل إلى تحديد المستوى الذى تنتهى عنده طاقة البشر ...

والفرع الثانى : البلاغة الخاصة بالقرآن والتى ليس فيها شئ من بلاغة النفس الإنسانية لأنها مما هو فوق طاقة النفس ومما لم تتهيأ له هذه النفس فى فطرتها . يعنى البلاغة التى هى من نوع إحياء الموتى وقلب العصا حية وإنزال المائدة من السماء وهى الأمر الملزم والذى به قامت الحجة وعليها آمن الناس "[1].

وتتميما لما بدأه الخطابى بسؤاله . نقول إنه لم يقتنع بمقالة أصحاب هذا المذهب. فذهب يبحث عن (باطن العلة) فى هذه البلاغة القرآنية وسبب وجود الإعجاز فيه . فقال " فدل النظر وشاهد العبر على أن السبب له والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ومنها الفصيح القريب السهل ومنها الجائز الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شئ منه ألبتة .

فالقسم الأولى أعلى طبقات الكلام وأرفعه والقسم الثانى أوسطه وأقصده والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل

---

(١) الإعجاز البلاغى ٤٢ .

قسم من هذه الأقسام حصة وأخذت من كل نوع من أنواعـــها شــعبة فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتـاج السهولة والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة فكـــان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلـــة خص بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه"[1].

والأمثلة التطبيقية على الجمع بين هذه الصفات المتضـــادة فـى القرآن كثيرة ومتنوعة . تجمع بين الحقيقة والمجاز أو بيـــن الإيجـــاز والإطناب أو بين الوعد والوعيد أو بين خطاب العامة والخاصة أو بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة أو بين الإجمال والتفصيل . أو بين الإنـذار والتبشير ... إلى آخر هذه المفارقات الأسلوبية العجيبة التى لا ترى إلا فى الذكر الحكيم ٠

• اقرأ مثلا قوله تعـالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ ٢/ ١٨٧ ٠

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٢٦ ٠



وانظر الاستدراج إلى الطاعة فى افتتاح الآيـــة بقولـــه : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين فى قولـــه ــ أخيه ــ وقوله ــ بالمعروف ــ وقوله ــ بإحسان والامتنان فى قوله ــ ﴿تخفيف من ربكم ورحمة﴾ والتهديد فى ختام الآية ثم انظـــر فـــى أى شأن يتكلم؟ أليس فى فريضة مفصلة وفي مسألة دموية؟ وتتبـــع هـــذا المعنى فى سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار . ففـــى أى كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح ؟ بل فى أى لسان تجد هذا المزاج العجيب ؟ تالله لو أن أحدا حاول أن يجمع فى بيان بين هذيـــن الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه لجاء بالأضداد المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رقعا ممزقة "[1] .

ويقول الدكتور/ أبوموسى:"وفى محيط المعنى نجد كلام الشعراء والأدباء إما أن يكون هادرا بالتهديد والوعيد وإمـــا أن يكـــون هاتفـــا بالملاطفة والاسترقاق . وتجد الجملة الواحدة فى المصحف تجهر فـــى طلق واحد بالتهديد المفزع والوعد المطمع انظر إلى قوله سبحانه:﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ تجد فى كلمتى قاهر وفوق ما يخلع القلب ثم تجـد وراء كلمة ــ عباده ــ فيضا من الرحمة والحب والأمان وهكـــذا تتشـــابك المعانى وتعطيك الجملة الواحدة ضروبا متنوعة تشهد أن معدنها ليـــس هو النفس التى لا تجتمع عليها الأحوال"[2].

---

(١) النبأ العظيم ١١٦ .
(٢) الإعجاز البلاغى ٥٠ .

ويضاف إلى ذلك عناصر التصوير الأخرى حيث إن "التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة . فيها الحياة وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين إلى نظارة وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذى وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مع الأحداث وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة ·

إنها الحياة هنا وليست حكاية حياة ... فهو تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون فى التمثيل وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق فى إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان .. "[(١)].

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ٣٢ ، ٣٣ ·

القصة القرآنية . أحداث وشخصيات :

تعتبر الأحداث والشخصيات هما المحوران الأساسيان فى العمل القصصى بعامة ويتصل بهما كذلك عامل الزمان والمكان والمتأمل فى القصة القرآنية . يجد أنها لا تعنى عناية كبيرة بالأشخاص بقدر عنايتها بالأحداث. ولعل الأمر كان كذلك لأن عناية القرآن منصرفة إلى تقرير العبرة والعظة . الدالة على وجود الإله القادر وصدق النبى المرسل . ومصداقية الثواب والعقاب . ووجوب الاهتداء إلى الصراط المستقيم والبعد عن طرق الغواية والضلال . وذلك كله وغيره يصدق بتقرير الأحداث وإثبات الوقائع . وتتابع الأيام وما يجرى فيها . من خير أو شر .

وأما الأشخاص فهم إن ذكروا فإن ذكرهم يكون على قلة إذ أنهم ليسوا مقصودين لذواتهم . وإنما يذكرون كنماذج إنسانية يمكن أن تتكرر فى كل زمان ومكان . والمهم هو الحدث الذى تعلق بها . وذلك ماثل فى القصة القصيرة والطويلة على السواء .

ففى القصة القصيرة مثلا نجد القرآن يذكر أحداثا كثيرة ويطوى ذكر الأسماء كما فى قصة / قابيل وهابيل ، حيث قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ واكتفى بالتعبير عنهما بقوله ــ ابنى آدم ــ وبعد ذلك سردت الآيات الأحداث الكثيرة التى وقعت بينهما وألمت

بهما عن طريق تلك المحاورة التى أثبتها القرآن . هادفا من ذلك إلـــى تلقى العبر والعظات مما حدث . لا ممن تعلقت بهم الأحداث ٠

وفى القصة الطويلة كذلك نجد التركيز على الأحداث أكثر سـواء فى القصص التى تكررت فى أكثر من سورة أو التى ذكرت كلها فـــى سورة واحدة ٠

ففى قصة إبراهيم عليه السلام التى توزعت فى سور كثيرة نجـد اسمه يذكر صراحة فى خمسة وعشرين موضعا وذلك فى هذه السور: البقرة ــ آل عمران ــ النساء ــ الأنعام ــ التوبة ــ هود ــ يوسف ــ إبراهيم ــ الحجر ــ النحل ــ مريم ــ الأنبياء ــ الحج ــ الشـعراء ــ العنكبوت ــ الأحزاب ــ الصافات ــ ص ــ الشورى ــ الزخـوف ــ الذاريات ــ النجم ــ الحديد ــ الممتحنة ــ الأعلى ٠

وعلى الرغم من تعدد المواقف والمشاهد فى قصة إبراهيم عليـه السلام . من مواقف مع قومه ــ ومواقف مع والده ــ ومواقـــف مـــع الملك الذى حاجه . وحواره مع الملائكة إلا أن القرآن لم يصــــرح إلا باسمه فى تلك المشاهد الجمة على الرغم من كثرة الأحـــداث وتعـــدد الأدوار . لأنه مركز الدائرة فى تلك الأحداث المحيطـــة بـــه. وبطـــل القصة التى أسسها وقام بدوره الفاعل فيها وأما غيره من الأشـــخاص وهم كثيرون . فلم يشر إليهم على الرغم من أن الأحداث شركة بينــــه عليه السلام وبينهم ولكنه القصص القرنى الذى يتعلق دائما بـــالأحداث فى معارض الخير والشر ٠

بل إن الموضع الذى صرح فيه باسم أبيه فقال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

نشأ حوله خلاف . هل هو اسم أبيه أو عمه ؟

وكذلك الحال فى القصة الطويلة التى جمعت فى سورة واحدة مثل قصة يوسف عليه السلام . فقد توزعت أدوارها ومشاهدها بين الشام ومصر المحروسة .

وقررها القرآن فى مائة وإحدى عشرة آية (١١١) آية ولم يصرح القرآن بأسماء أشخاصها سوى يعقوب ويوسف عليهما السلام. وأما إخوته الأحد عشر فأحيانا يجمعهم فى ضمير كما فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

وأحيانا يذكرهم بالاسم الظاهر كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ...﴾ وقال : ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وأما يعقوب فذكر ثلاث مرات ويوسف ذكرا اثنتين وعشرين مرة.

إذن يمكن القول ــ باطمئنان ــ بأن القصة القرآنية مجالها الأحداث والوقائع بخيرها وشرها وهداها وضلالها ورشدها وغيها.



وأما الأشخاص فلا يذكر منهم إلا ما له علاقة وطيدة بـــالحدث فإن الشخصية بهذا الاعتبار تعتبر هى المحرك للأحداث والفاعلة فيها، ولذلك تتكرر الأحداث وتعدد الأدوار والمشاهد وتختلف من موضع إلى موضع . والشخصية واحدة . يطالعنا وجهها مع كل حـــدث . فتــأخذ دورها معه وتتفاعل به ويمضى المشهد . وهكذا ٠

ولذلك وجدنا قصة آدم . تتكرر في ســـور كثــيرة [البقـــرة ــ الأعراف ــ الإسراء ــ الكهف ــ طه] ٠

ويطالعنا مع كل حدث وجه آدم وحـــواء ووجـــه الشـــيطان لأن العبرة بالأحداث ولو كانت العبرة بالأشخاص بمعنى أنها تكـــون هـــى مناط القصة والدافع الأصلي لها لجمعت قصة كل نبى فـــى موضـــع واحد. ولما كان هناك من داع لتفريق حياة الشخصية فـــى المواطـــن المختلفة ولضاعت فائدة تكرارها الذى أشار إليه الدكتور/ أبوموســـى ناقضا كلام الباقلانى الذى قال " لأن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفـــاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر به الفصاحـــة وتتبين به البلاغة . وأعيد ذكر القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيـــان بمثلـــه مبتـــدأ ومكررا" ٠

يقول الأستاذ "وجواب الباقلانى ليس هو الجواب لأنه يفترض أن اختلاف الصياغات فى تكرار القصص إنما هو لإظهار القدرة علـــى إعادة القصة مع إحكام الصوغ ودقة السبك وهذا مما يصعب. وأقـــول.



ليس اختلاف الصياغة فى تكرار القصص لذلك . ولا لبيان عجزهم عنها ابتداء وتكرارا لأن هذه غايات قريبة ثم إن هذا التوجيه قائم على فرض غير مسلم وهو أن المعنى واحد فى المرتين من غير زيادة ولا نقصان وليس الأمر كذلك لأن القصة فى كل مرة تركز على إبراز جانب من جوانب العبرة لم يكن فى غير هذا الموضع على هذا القدر من الوضوح . وذلك طبقا لمتطلبات السياق ومقتضياته . وهذا أمر يقتضى تحليل القصة فى كل مرة تحليلا دقيقا يمعن فى كل جملة ويستخرج منها خوافى معانيها المندسة فى جوانب كلماتها ثم يوازن موازنة دقيقة بين الصور التى تكررت ويحاول أن يتبين المعانى التى ذكرت هنا ولم تذكر هناك أو التى أجملت هنا وفصلت هناك ثم يربط ذلك بالسياق العام للسورة . ومعرفة ذلك ليس أمرا سهلا . وإنما يدرك بعد مكابدة ومراجعة والتساهل فى الأمر اليسير جدا فى هذا الباب يضيع به الضوء الهادى إلى معرفة الخصائص وربطها بالسياق"[١].

والدكتور/ أبو موسى ـــ أثابه الله ـــ لم يلغ مقالة الباقلانى فى علة تكرار القصة القرآنية فقط وإنما وضع منهجا تحليليا فى التعرف على سبب تكرار القصة الواحدة وكأنه بذلك يدلنا على "باطن العلة" فى معرفة أسباب التكرار. وهذا المنهج وإن كان صعب التنفيذ ويحتاج إلى مكابدة وإدمان النظر فى التراكيب والوقوف على خصائص البيان

---

(١) الإعجاز البلاغى ١٩٨ / ١٩٩ .



القرآنى إلا أنه المنهج الذى سنقتفيه فى عرض القصة المختارة والله يهدى من يشاء إلى ما يشاء .

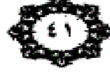
وفى معرض التفريق بين القصة القرآنية والأدبية يقول الدكتور ــ محمد حجازى ــ " ليس القصص فى القرآن كالقصص فى الأدب الفنى . إذ الغاية مختلفة والباحث مختلف ......

فالقصص القرآنى إنما يهدف إلى غرض تربوى عال هو العبرة والعظة فى الأحداث والشخصيات من أساء منهم ومن أحسن وموقف كل أمام دواعى الخير والشر .

أما القصص الأدبى فهو ينزع إلى الإثارة والتشويق وامتلاك الشعور والوجدان حتى يصل بالمخاطب إلى ما يريد ولا بأس عنده من استخدام المرأة أو غيرها فى إثارة الغرائز .

وهناك خصوصية أخرى للقصص القرآنى ولعلها تزيل عنه غبارا يظن بعض الناس أنهم به يحجبون نور الله فى قرآنه . تلك الخصوصية هى أن القرآن الكريم يدور فى قصصه على الأحداث أكثر مما يدور على الأشخاص .

إن القرآن الكريم فى قصصه يهتم بالحادثة أكثر من اهتمامه بالشخص ، فهو لهذا يذكر القصة فى عدة مواضع كما ذكر قصة موسى وفرعون . ونوح مع قومه وهود مع قبيلته . لأن مدار الذكر على الحادثة. فإذا وجدت مناسبة لها سابقة أو لاحقة نزلت الآيات بها.



ثم تراه يذكرها فى مكان آخر لوجود مناسبة أخرى تقتضى ذكرها من زاوية ثانية .

أما القصص التاريخى فإنما يوجه عنايته للشخص أكثر من عنايته بالحادثة . فالشخص هو المحرك فى القصة وهو متعلق الأحداث كلها ...

وهذا يظهر جليا فى القصص الذى يعتمد على الخيال والأوهام والأحلام. إذ كان الناس دائما يحبون أن يروا أنفسهم فى غيرهم. وأن يشهدوا للإنسان وقد واجه الموقف بقطع النظر عن كونه حقيقة أو خيالا. بل الخيال كلما كان أوسع وأعمق كان جذبه للمخاطب أشد وأوقع ...

ومن هنا كان أبطال القصة الأدبية أشخاصا لا أحداثا حتى فى القصص الذى يجرى على ألسنة الحيوانات يكون نطقها وتفكيرها بلسان الإنسان أو بلسان أناس تلبس جلود الحيوان"[1].

هذا شأن الأحداث فى القصة القرآنية . ومعلوم أن كل حدث له زمانه ومكانه . فهما شيئان لازمان لكل قصة إذ ينظر للزمان على أنه اليد الحاملة للحدث . وينظر للمكان على أنه الوعاء الذى يقدم فيه الحدث.

فهل ارتبط الحدث القرآنى فى القصة بالزمان والمكان ؟

---

(١) الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ٢٩٠ ، ٢٩١ .



بالنظر المتأمل نجد أن القرآن لا يذكر زمان القصة بـــالتحديد . كما لا يعنى بتحديد المكان . وإنما جل اهتمامه منصرف إلى الحـــدث ونقله من زمانه الغابر إلى ساحة الحضور الماثل . لأن القـــرآن فـــى حقيقته كتاب هدى وإرشاد وموعظة للمتقين . فهو لا يعنيه التأريخ لهذه الأحداث بقدر ما يعنيه ما يستقر فى القلوب من العـــبرة ويثبـــت فـــى النفوس من الهداية ويطلع الناس على عواقب الإيمان والضلال وذلـــك بتقديم النماذج البشرية التى سلكت مسالك الرشد أو الغواية .

وأما مسألة الزمان فإن كان لها صلة وثيقة بسير الأحداث ولـــها دلالة خاصة تستقى منها العبرة والعظة فإن القرآن يذكرها لهذا الـهدف كما فى تحديده لزمان دعوة نوح عليه السلام حيث قـال : ﴿فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ فهذه المدة المتطاولة تدل علـــى عظيـم بلائه فى خدمة الدعوة وطول صبره على المعاندين وشدة المعاناة التى لقيها من قومه . حتى كانوا جديرين بدعائه عليهم . وفى ذلك نمـــوذج حى وراق لارباب الدعوة بعده إلى يوم الدين .

وأحيانا يترك القرآن للأحداث تحدد الزمن بالتدريج من أوله إلـى آخره كما فى قصة يوسف عليه السلام التى بـــدأت بالرؤيـا : ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾ .

ثم تتابعت الأحداث منذ أن كان يوسف طفلا حتى بلغ أشد وآتـاه الله الحكم والعلم وحيكت له المؤامرات النسوية ودخل السجن وخـرج منه وتقلد الوزارة وهو الحفيظ العليم . وجمع الشمل بعد التفرق. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وقد انتهت بتأويل الرؤيا ......

وكذلك يلاحظ هذا التدرج الزمني في قصة عيسى عليه السـلام. منذ الاصطفاء الأول بقوله تعـالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

ثم تتابعت الأحداث من خلال تدرج الزمن فكـانت ولادة مريـم وكفالة زكريا عليه السلام لها وما حدث لها من معجزات واصطفـاء وبشارتها بعيسى عليه السلام وبعثه بالرسالة ومعجزاته ونهايته.

فهذا التدرج الزمني الدقيق لوحظ من خـلال سـير الأحـداث وتتابعها بترتيب محكم دقيق .

بل إننا نجد أن القرآن يغفل كثيرا من الزمن الأول لحياة الأنبيـاء ويطوى صفحة نشأتهم الأولى إذ لم يتعلق بذكرها هـدف تربـوى أو دينى كما فى حياة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم عليهم السلام . فقد بدأ الحديث عنهم من حين الإرسال ...

وأما إذا كان هناك دلالة إعجازية وأهـــداف تربويـــة وغايـــات سماوية لتعميق معانى القدرة الإلهية والإحاطة الربانية بالمبعوث فـــى ولادته أو فى زمن نشأته الأولى مثل ــ عيسى وموسى ومحمد عليـــهم الصلاة والسلام فإنه يذكر هذا الزمن ولكن من خلال الأحداث الدالـــة عليه ٠واقرأ فى ذلك الآيات الدالة على ولادة عيسى عليه السلام فـــى سورة مريم من آية ١٦ إلى آية ٣٣ ٠

والآيات الدالة على نشأة موسى عليه السلام فى قصر فرعـــون فى سورة القصص من آية ٧ إلى ١٣ ٠

وهناك آيات متفرقات فى نفس السورة سجلت ما حدث منه ووقع له من الزواج بابنة شعيب عليه السلام وذلك قبل الإرسال٠

وهناك آيات مماثلة فى سورة طه من آية ٣٧ إلى ٤١ ركـــزت على أحداث لم تذكر فى سورة القصص حيث فصلت مـــا أجمـــل أو أجملت ما فصل . لتتكامل مشاهد القصة . دون أن يكون هناك تكـــرار حقيقى ٠

واقرأ الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨ من سورة الضحـــى تتبيـــن النشـــأة الأولى لسيدنا محمد عليه الصلاة والســـلام . وهـــى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٠

والآية الأولى من سورة الشرح وهى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهى حادثة شق صدره الشريف فى سنى الطفولة ٠

ولعل القرآن لم يفصل فى أمر ولادته عليه الصلاة والسلام ولا فى نشأته الأولى اعتمادا على الشرح المستفيض الذى جادت به السنة المطهرة . وعلى الروايات الكثيرة التى تحدثت عن سلسلة نسبه الشريف وعن زواج أبيه عبدالله من آمنة بنت وهب وموت أبيه ثم ولادته عليه الصلاة والسلام ونشأته فى ديار بنى سعد ورحلته إلى الشام وتعبده فى غار حراء ومزاولته لبعض الأعمال كالرعى والتجارة وزواجه من خديجة بنت خويلد حتى أفاض الله عليه بالنور فى غار حراء ونزل عليه جبريل معلما ــ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق / ١ ــ ٥] .

وكذلك الشان مع المكان . إذا كان له صلة وثيقة بالحدث وله وضع خاص فى التاريخ وله أثر فى مجريات الأمور الدعوية وله عمق فى سير الأنبياء والصالحين فإنه يذكر مثل ــ مصر ومكة والمدينة والمسجد الأقصى وسيناء والطور والأحقاف والحجر ومدين .

وبذلك يمكن القول بأن الغالب على القصص القرآنى:

١ - أن ذكر الأحداث أكثر من ذكر الأشخاص .
٢ - أن ذكر الزمان يأتى فى المرتبة الثانية بعد ذكر الأحداث إذا دعت الحاجة إليه .
٣ - أن ذكر المكان يأتى فى المرتبة الثالثة إذا اقتضته الأحداث .

القصة القرآنية . أهداف وغايات :

أشرت فيما سبق إلى أن القرآن لم يحفل كثيرا بأسماء الأشخاص أو الأزمنة أو الأمكنة وإنما كان جل اهتمامه بالأحداث . وذلك لأنه ليس كتاب تاريخ وإنما هو في المقام الأول . كتاب تشريع وعقيدة وأحكام ومبادئ ووعظ وإرشاد إلى التي هي أقوم . وقد انخرطت القصة القرآنية في هذا النهر القرآني العام . وكانت جزءا منه أسلوبا وغرضا وهدفا وغاية . وإليك بعض هذه الأهداف والغايات ٠

١ - إثبات أن القرآن الكريم ومنه القصة وحي من عند الله عزوجل . وليست مروية عن آخرين لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن قارئا ولا كاتبا وإنما هو النبي الأمي . كما أن تلك القصص من باب الغيب الذي أوحاه إلى نبيه . كما قال تعقيبا على كثير من القصص : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ (١) ، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) .

وفي ذلك إثبات وحجة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام ٠

٢ - إثبات عجز العرب في تحديه لهم أن يأتوا بمثل القرآن . وتعتبر القصة لونا من ألوان البيان القرآني البليغ . وقد ألفوا مثل هذا

---

(١) سورة آل عمران / ٤٤ ٠
(٢) سورة هود / ٤٩ ٠

اللون فى أسلوبهم ومحاوراتهم وجادلت بها قرائحهم شعرا ونثرا . ولكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو بحديث مفترى ــ فكانت القصة القرآنية . بتنوعها واختلاف أسلوبها وتعدد معانيها وأغراضها دامغة لهم . ومظهرة عجزهم كمال الظهور . وبخاصة أن القصة القرآنية قامت على أسلوب المحاورة والجدل لإثبات الحقائق وإقناع المجادل "وذلك أسلوب لم يكن معهودا للعرب فكان مجيئه فى القرآن ابتكار أسلوب جديد فى البلاغة العربية شديد التأثير فى نفوس أهل اللسان وهو من إعجاز القرآن "[1] .

٣ – أن القصة القرآنية لم تقدم العبرة والعظة تقديما مجردا وإنما قدمته من خلال النماذج البشرية التى تعاملت مع أنبيائها ورسلها فى عالم الواقع . ومن ثم كان هذا التقديم بمثابة التقديم الحسى الحى الذى يعايشه الإنسان وينفعل به . وكأنه تمثيل وتشخيص لتلك المعانى الإسلامية التى يراد لها أن تستقر فى القلوب وأن تؤتى ثمرتها فى النفوس . وذلك أدخل فى باب التأثير والطاعة ٠

فالذى يعرف أن الشيطان هو الذى أخرج أبويه من الجنة لا يفتتن به بل يتخذه عدوا مبينا ٠

والذى يعرف أن الكفر والعصيان مجلبة لغضب الله وعذابه وأن الإيمان والانقياد لرسل الله مجلبة لرضاه تعالى ونعيمة كما هو واقع

---

(١) التحرير والتنوير ١ / ٦٦ ٠



في قصص الأنبياء السابقين من أمثال : نوح ، وهود ، وصالح وغيرهم وقد نقلت أخبار الكافرين والمؤمنين نقلا أمينا وصورت تصويرا بليغا يعيش الإنسان من خلاله وكأنه يرى هذه الأحداث رأى العين. فعليه ــ إحقاقا للحق ــ أن يكره الكفر ويحب الإيمان ٠

٤ – أن القصة القرآنية لم يكن هدفها تقديم العبر والعظات فحسب . وإنما قدمت كثيرا من حقائق الإسلام . فتوحيد الله عزوجل وإبطال الآلهة المزعومة . والبرهان على هذا التوحيد . وبيان نعمه على عباده وأن الشكر عليها هو ما يقتضيه العقل والمنطق . وبيان أن الحكم العادل في تحرى الحق وأن الحكم الظالم في الشطط واتباع الهوى وبيان بعض الأحكام الشرعية كشريعة القصاص وبيان تاريخ التشريع فيها . في التوراة والإنجيل والقرآن وكل منها يصدق الآخر إلا أن القرآن هو المهيمن على جميعها ٠

وذلك ماثل في دعوات الأنبياء والمرسلين . من مثل إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى وداود وقابيل وهابيل ٠

٥ – أن القصة القرآنية داعية من دواعي التفكير في مصائر الأمم وأحوال الأفراد كما قال تعالى : ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) .

---

(١) سورة الأعراف / ١٧٦ ٠



والفكر نتاج العقل وهو فريضة إسلامية يوجبها الإسلام على الإنسان . بأن يفكر ويبحث ويدرس وينقب فى أحوال الماضين بم كان عزهم وفضلهم عند الله؟ وبم كانت نجاتهم من عذابه؟ وما مآل الكافرين به والمعاندين لأوامره؟

ذلك ما يجيب عليه الفكر الواعى الذى يتكئ عليه صاحبه فى الوصول إلى حقيقة الأشياء .

ولذلك وجدنا هذه المادة ــ فكر ــ تتكرر فى القرآن عشرات المرات.

قال البقاعى " لعلكم تتفكرون أى ليكون حالكم حال من يرجى أن يحمل نفسه على الفكر ومن يكون كذلك ينتفع بفكره قال الحرالى . فتبنون الأمور على تثبيت . لا خير فى عبادة إلا بتفكر"[1].

والقصة القرآنية بهذا المنزع الداعى إلى التفكير فيها تعتبر من باب "البرهان التاريخى" الذى يجلى جوانب العلم والقدرة فى جانب الله عزوجل .

يقول الدكتور / يوسف القرضاوى عن هذا البرهان " وهو البرهان الذى يقوم على أساس الرواية الموثقة عن أحداث سبقت أو

---

(١) نظم الدرر ٤ / ٨٨ .

عن مشاهدة للآثار التى خلفها أهلها فى الأرض المعبرة بلسان الحال عما كانوا عليه من قوة وسطوة وعمارة للأرض"(١).

وقال الشاعر :

إذا المرء كانت له فكرة ∴ ففى كل شئ له عبرة

٦ – أن القصة القرآنية تعتبر بشكلها المبثوث فى القرآن داعية من دواعى الإيمان بالوحدة الشاملة ٠

وحدة المصدر : وهو الله عزوجل فهو الذى أوحى ــ من خلال هذا القصص ــ إلى آدم ونوح وهود وصالح ...... إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ٠

وحدة الدين : فكلهم دعوا إلى توحيد الله عزوجل ومقاومة الشرك والكفر وإن كان هناك اختلاف فهو فى الفروع ٠

وحدة الرسل : فكلهم مبلغون عن الله عزوجل إلى خلقه وإن اختلفوا فى الزمان والمكان . فهم إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ٠

وحدة الإيمان بهم جميعا : كما قال تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا

---

(١) العقل والعلم فى القرآن الكريم ٢٧٣ ٠

أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [١] .

ولذلك رأينا السورة الواحدة تجمع أكثر من قصة كما فى سورة الأعراف . فقد عرضت لقصة آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وكما فى سورة هود والشعراء ٠

وكلهم يمثلون حلقات فى سلسلة واحدة تبدأ من آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام وكلهم يبلغون رسالة الله إلى خلقه ويقودونهم بالصبر والحكمة إلى جنب الله رحمة بهم وإنقاذا لهم من جهنم وبئس المصير ٠

---

(١) سورة البقرة ١٣٦ ٠



تقديم وتمثيل

إن المتدبر فى المعانى التى تسوقها الآيات القرآنية ، يجد أن هذه المعانى قد تساق سوقا مجردا يعتمد علـــى أســـاليب اللغـــة المجـــردة والتراكيب المباشرة . وهذا القدر يكفى لإدراك المعنى والتأثر به.

وقد تساق سوقا يعتمد على اللغة المصورة والتراكيب المشخصة والكلمات المجسدة للمعانى . فيرتفع مستوى الإدراك درجة أعلى فـــى استيعاب المعانى الممثلة بواسطة هذه اللغة الحية التى ارتفعـــت عـــن مستوى اللغة المباشرة .

وهناك المستوى الأعلى وهـــو الإدراك مـــن خـــلال الأحـــداث والحركات والأدوار التى لا ترى بالعين من خلال الكلمات وإنما تشاهد وهى أحداث تقع حية فى الوجود وأفعال يقوم بها أصحابـــها كمشـــاهد تؤدى فى قصة قصيرة أو فى قصة تطول .

والذى يمثل المستوى الأول كثير من الآيات التى تتحـــدث عـــن العمل الصالح والعمل الطالح . وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين . كما فى قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ ، ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

والذى يمثل المستوى الثانى كثير من الآيات التى جاءت بأسلوب التشبيه والتمثيل . حيث تقوم اللغة المصورة بنقل المعنى المجرد إلى الصورة التمثيلية التى نراها مجسدة وماثلة أمام نواظرنا وبصائرنا . كما فى قوله تعالى : ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾ .

والذى يمثل المستوى الثالث هو ما أشار إليه الزمخشرى حول قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ .

يقول الدكتور أبو موسى : " ويذكر ـ أى الزمخشرى ـ التمثيل بالأفعال والحركات فى قصة داود عليه السلام مع الخصمين اللذين بغى بعضهما على بعض . وينبه إلى أهمية هذا النوع من التمثيل وإلى ما له من إيحاء قوى وتأثير بالغ فى التوجيه والتهذيب وينبه إلى الأثر القوى فى تصوير المعانى فى مشاهد متحركة أو بين أشخاص تتحاور وتتجادل . والحقيقة المرادة وراء هذا التحاور يشف عنها كأنه غشاء رقيق وينبه إلى وجوب أن يكون فى المشهد التمثيلى رمز يشير إلى الغرض الذى يدور حوله هذا المشهد .

يقول الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا



عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (١) .

يقول ــ فإن قلت ما معنى ذكر النعجة ؟ قلت كان تحاكمهم في نفسه تمثيلا ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أو ريا مع داوود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون فأراد . صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطة وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده والدليل عليه قوله ــ وإن كثيرا من الخلطاء وإنما خص هذه القصة لما فيها من الزمر إلى الغرض بذكر النعجة .

ويقول فإن قلت لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟

قلت لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكنا من قلبه وأعظم أثرا فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من

---

(١) سورة ص ٢١ ــ ٢٤ .

أن يبادره به صريحا مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء وكيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج صاحب الحكاية فاستسمح حال نفسه وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالا لحالته ومقياسا لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجب الحشمة . فإن قلت فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه ؟ قلت ليحكم بما حكم به من قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ حتى يكون محجوجا بحكمه ومعترفا على نفسه بظلمه .

وهذا التحليل يتناول التمثيل الذي هو فن الحركة والأداء. يقول سعد الدين في شرحه للكشاف كان تحاكمهم في نفسه تمثيلا . يعني أنه في الأفعال بمنزل الاستعارة التمثيلية في الأقوال حيث لم يكن المقصود من تحاكمهم ما هو ظاهر الحال " [١] .

لم يشغل البلاغيون بهذا المستوى الثالث أو بهذا الضرب من التمثيل الذي يتجاوز الكلمة المكتوبة إلى الحركة الحية وإنما عنوا بالمقارنة بين الطريقين الأول والثاني وكان الحوار يدور حول موضوع تأثير المعنى في النفس وترسيخه فيها واستبصار الفرق من هذه الجهة بين إيراده باللغة المجردة وإيراده باللغة المصورة"[٢].

---

(١) ينظر الكشاف ٤ / ٦٣ والبلاغة القرآنية ٤٣١ .
(٢) التصوير البياني ١٣١ .



وبالنظر إلى المعانى المسوقة فى قصة صالح عليه السلام فـــى المشهد الذى ورد فى سورة هود عليه الســلام . نجــد تحقــق هــذه المستويات سالفة الذكر فى تسلسل دقيق وعميق الدلالة ٠

فقد بدأت الآيات بالإيماء إلى القرآن الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وتلك قارعة من قوارع التحدى والإعجاز للنــاس . وما يجب عليهم من أن يفردوه بالعبادة . وما يتبع ذلك من البشـــارة والنذارة لمن آمن ولمن نكص على عقبيه . إذ مرجع الكـــل إلـــى الله تعالى : ﴿إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير﴾ ٠

ثم تحدثت الآيات عن الكافرين وما صنعوه إزاء هذا الدين ومــن جاء به . من الإعراض وإظهار الرفض والإنكار وما تقولوا به عليــه من أنه سحر مبين وما كان يعتريهم مـــن الفـــرح والبطـــر واليــأس والكفران وأن كل ذلك مسطور . يوفونه يوم القيامة ولا يجدون لهم من جزاء إلا النار : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

ولما أشبعت الآيات الحديث عن الكافرين وما آلت إليه أعمالـــهم من البطلان والحبوط وما استتبع ذلك من مضاعفة العذاب لهم حتـــى كانوا فى الآخرة هم الأخسرون . تشوقت النفوس لمعرفة أحوال مـــن

---

(١) سورة هود ١٦ ٠

كانوا على الضد من ذلك وهم أهل السعادة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وجاء الاستئناف البيانى يفصح عن تشوق السامعين إلى معرفة حكم المؤمنين . فقال قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٠

فذكرت هذه الآية حقيقة هذا الفريق بأنهم أهل الإيمان وعملهم وهو الصالحات وحالتهم وهى الإخبات أى الخشوع والتوجه والانقطاع إلى ربهم فى اطمئنان القلب وتواضع النفس . وذكرت مآلهم عند ربهم فى جنات النعيم خالدين فيها ٠

فقد ركزت الآية وكثفت فى إيجاز بليغ كل ما هو ضد ما نثر فى جانب الكافرين ٠

ولما استوفت الآيات كل المعانى فى أوصاف الحزبين وما كان من جزائهم المنتظر عند ربهم . جاء التمثيل البلاغى : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [1].

فهذا التمثيل مسوق لبيان حال الكافرين وحال المؤمنين الذين سبق ذكرهما . وهو يقرر ويشخص ويجسم كل ما قيل فى شأن الفريقين . وذلك باللغة المصورة بعد أن أشبعت الآيات الحديث عن

---

(١) سورة هود ٢٤ ٠

المعانى باللغة المجردة وبذلك انتقلت الآيات من المستوى المجرد إلـــى مستوى اللغة المصورة بالكلمات •

فالكافرون الذين لم ينتفعوا بأبصارهم بالنظر فى دلائل التوحيـــد المبثوثة فى خلقه ولم ينتفعوا بأسماعهم فيما يتلى عليهم مـــن الآيـــات البينات . مشبهون بحال من خلق أعمى وأصم . سدت منافذ إدراكـــهما . فلا يدريان أين يتوجهان . فهما فى حيرة واضطراب •

والمؤمنون الذين انتفعوا بأبصارهم وأسماعهم بالآيات الدالة على التوحيد والإيمان . سواء منها الصامت والناطق . مشبهون بحال مـــن هو بصير وسميع . استضاء بنور الآيات وأجدى فيه الإنذار والتبشـــير حتى فاز بالنعيم المقيم •

إن حصول المعانى بطريق التمثيل يزيد النفس أنسابها وقبولا لها لأن مرجع التأثير والمبالغة ليس فى مقدار المعنى وإنمـــا فـــى كيفيـــة وروده وظهوره فإدراكه فى الصورة المشاهدة والكلمة المصورة أبيـــن وأشرف وذلك "أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى وتأتيها بصريح بعد مكنى وأن تردها فى الشئ تعلمها إيـــاه إلـــى شئ آخر هى بشأنه أعلم وثقتها به فى المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبـــع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القـــوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كمـــا قـــالوا ــ ليـــس الخـــبر

كالمعاينة ولا الظن كاليقين . فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة"[١].

ولم يقف أمر التمثيل فى الآية عند حد الأنس بالقوة والتأثير وإنما تعمق مدلوله بهذين الاستفهامين الذين يستنطقان النفس ويثيران الخواطر ويحركان المشاعر فى التعرف على حقيقة الأمر وتجلية الموقف أحدهما ــ هل يستويان مثلا ــ وثانيهما ــ أفلا تذكرون ــ .

فالأول : ينتزع من أعماق الضمير الإنسانى وجوب التخالف بين الفريقين ومن ثم وجوب التحذير من مسالك الضالين ووجوب التدافع والتكاثر فى طريق المقسطين . فهو استفهام آخر يزداد به التمثيل قوة واستحكاما . ولذلك فصل عن التمثيل ووصل به وصلا خفيا لأنه يجرى منه مجرى التوكيد والبيان .

والثانى : ينكر على الفطرة البشرية غفلتها وعدم تذكرها لهذه البديهات المسلمة . إذ يكفى لإدراكها أدنى تذكر لمعرفة الفرق الواضح بين الأعمى والبصير والأصم والسميع . ومن ثم توجب المخالفة بين الكافرين والمؤمنين .

وهذا التمثيل يعتبر حلقة وصل بين المعانى التى قررت بالأسلوب المجرد وهو ما كان قبل التمثيل . ثم جاء التمثيل مقدما بين

---

(١) أسرار البلاغة ١/ ٢٣٤ .



يدى قصص الأنبياء الذين ذكروا بعد ذلك . من أمثـال نـوح وهـود وصالح وغيرهم . وهى فى مجموعها تبين أنهم مرسلون من قبـل الله عزوجل لدعوة الأقوام إلى عبادة الله وما يصاحب ذلك مـن الإنـذار والتبشير . وما يترتب على ذلك من موقف أممهم من اتباع أو رفـض وعناد وما يؤول إليه أمرهم من إهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين.ولذلـك كان هذا القصص بمثابة الشرح الحى أو البث المباشر لموقف هـؤلاء الرسل من أقوامهم . وانقسام الأقوام إلى كافرين ومؤمنين وما حـاق بالكافرين من الوعيد والعقاب وما أحاط المؤمنين من وعد وثواب.وهذا هو المستوى الثالث الذى دخلت فيه المعانى دائرة الحركات والجـدل والحوار بين الدعاة والمدعويين .

وهكذا يتنقل الأسلوب من البيان إلى الأبين إلى الأشـد بيانـا . بإحكام وتفصيل وكأن السورة شرح وبيان لمعنى قولـه تعـالى فـى مستهلها : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) .

يقول البقاعى : " وما بعد ذلك من القصص تقريرا لمضمون هذا المثل وتثبيتا وتسلية وتأييدا وتعزية لهذا النبى الكريم لئلا يضيق صدره بشئ مما أمر بإبلاغه حرصا على إيمان أحد وإن كان أقرب الخلائـق إليه وأعزهم عليه كما تقدمت الإشارة إليه فى قوله تعالى : ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ وقوله : ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ ويـأتى فـى قولـه :

---

(١) سورة هو ١ .



﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ فوضح أن هذه القصص لهذا المعنى سيقت وأن سياقها في الأعراف كان لغير ذلك كما تقدم .

وإن تضمن هذا الغرض بيان هلاك من كانوا أشد من العرب قوة وأكثر جمعا وأمكن أمرا وأقوى عنادا وأعظم فسادا وأحد شوكة وما اتفق في ديارهم من الطامات والأهوال المفظعات تحذيرا من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم ففرق بين ما يساق للشيء وما يلزم منه الشيء"[1].

وعلى نفس الطريقة جاء القصص في سورة الأعراف مقدما بين يديه التمثيل بقوله تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2] .

وقد تناسقت ألفاظ الآية مع الآية التي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

وهذه الآية نص في الحديث عن قدرة الله عزوجل وبيان نعمه على خلقه من خلال هذه الظواهر الكونية . من إرسال الرياح وتكوين

---

(١) نظم الدرر ٨ / ٢٦٥ .
(٢) سورة الأعراف ٥٨ .

السحاب وسوق المطر وإحياء البلد الميت وإخراج كثير من أنواع الثمر. وجعل ذلك المشاهد من أقوى الأدلة والبراهين على قدرته تعالى على البعث . وكان ذلك من أجل ﴿لعلكم تذكرون﴾ وتأتى الآية موضع التمثيل لتلتقى ألفاظها فى تناسق تام مع سابقتها فتذكر ـ البلد الطيب ـ وإخراج النبات بإذن الله . والبلد الخبيث ـ والخروج النكد للنبات ـ وتصريف الآيات ـ وشكر الله على كل ذلك.

وهى فى الحقيقة تمثيل لفريق المؤمنين وفريق الكافرين فقد مثلت حال المؤمنين الذين ينتفعون بالموعظة ويتأثرون بها بحال الأرض النقية التى تنتفع بالمطر وتخرج من كل زوج بهيج .

كما مثلت حال الكافرين الذين لا ينتفعون بالمواعظ ولا يتأثرون بها بحال الأرض الخبيثة التى لا تنتفع بالمطر ولا تنبت إلا نباتا ضعيفا

وروح هذا التمثيل وغايته هو روح وغاية التمثيل الذى ورد فى سورة هود . وإن اختلف الركن الأساسى فيهما وهو جانب المشبه به . إذ هو هنا عنصر من عناصر الجماد الذى يفترق بالطيب والخبيث . تبعا لتكوينه ومعدنه . وهو هناك عنصر من عناصر الإنسان الذى اختلف بالوصف من عمى وصمم وبصر وسمع .

ولعل سر التنوع يرجع إلى أن الآية فى الأعراف كما قلت تتناسق فى الصياغة العامة مع ما سبقها من الآيات التى تتحدث عن خلق الله من السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والليل

والنهار وتعاقبهما والظواهر الكونية من الرياح والمطر والسحاب . فكان التمثيل بالأرض النقية والأرض الخبيثة وما فيهما من نبات قوى مبهج وآخر ضعيف مزعج من أمثل العناصر التى يجب أن تكون فى هذا المكان . وبذلك حدث التشاكل والتآنس والتآخى بين الصياغات . وهذا هو لب نظرية النظم ٠

ولذلك قال الزمخشرى " وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد"[1].

ولست معه فى القول بالاستطراد بل هو تمثيل مكين فى مكانه ومناسب لسياقه ومساقه ٠

والآية فى سورة هود ركزت على العنصر الإنسانى بأوصافه المختلفة وذلك للتناسب مع الصياغات السابقة التى ركزت على العنصر الإنسانى . فى كثير من الآيات . كما فى قوله تعالى : ﴿ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ ٠

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ...﴾ ٠

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ...﴾ ٠

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ...﴾ ٠

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٤ ٠

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ...﴾ .

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ...﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾ .

كما أن الآية في الأعراف ركزت على الجماد من حيث الجوهر والذات وفي سورة هود ركزت على العنصر الإنساني من حيث سلامة أو فساد منافذ الإدراك .

وقد رويت عدة أحاديث تنص على أن المقصود من قوله تعالى: والبلد الطيب .. من باب التمثيل . منها ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . أن قوله ــ والبلد الطيب .. مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين يقول . هو طيب وعمله طيب والذى خبث .. مثل للكافر يقول. هو خبيث وعمله خبيث .. [1].

ثم يأتى بعد ذلك قصص الأمم مع رسلهم . عقب هذا المثل لتقرر وتحقق مضمون المثل عن طريق هذا السرد القصصى الذى يقوم على الدعوة والحوار والجدل والقبول والرفض بواسطة هذا القصص الواقعى وكأنه ترجمة لهذه المعانى الممثلة وشرح لدلالتها وبيان غاياتها من خلال ذكر الرسول والدعوة والقوم وبيان المصير من ثواب أو عقاب .

---

(١) ينظر روح المعانى ٨ / ١٤٨ .



يقول البقاعى فى بيان وجه المناسبة بين القصص وبين المثل السابق "ولما طال تهديده سبحانه لمن أصر على إفساده ولم يرجع عن غيه وعناده بمثل مصارع الأولين ومهالك الماضين ونوع فى هذه الآيات محاسن الدلالات على التوحيد والمعاد بوجوه ظاهرة وبينات قاهرة وبراهين قاطعة وحجج ساطعة . ساق سبحانه تلك القصص دليلا حسيا على أن فى الناس الخبيث والطيب مع الكفالة ـ فى الدلالة على تمام القدرة والغيرة من الشرك على تلك الحضرة ـ بتفصيل أحوال من سلفت الإشارة إلى إهلاكهم وبيان مصارعهم وأنه لم تغن عنهم قوتهم شيئا ولا كثرتهم بقوله تعالى : ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ الآية وقوله : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾ الآية . تسلية للنبى ﷺ وتقوية لصالحى أتباعه بالتنبيه على أن الإعراض عن الآيات ليس من خواص هذه الأمة بل هى عادة الأمم السالفة وعلى أن النعم خاصة بالشاكرين ولذا كانت النقم مقصورة على الكافرين فقال تعالى : ﴿لقد أرسلنا ......﴾ [1].

وكل هذا يؤكد قوة الصلة بين التعبير باللغة المجردة واللغة المصورة والفن القصصى الذى يقوم على الجدل والحوار . وأن الترابط والتناسق بينها دقيق وعميق .

---

(١) نظم الدرر ٧ / ٤٢٥ .

وإذا كان التمثيل بالاستعارة أو التشبيه يمثل مستوى عاليا فى فن التعبير والتصوير والتأثير . فإن الفن القصصى يعتبر هو الوجه الآخر لهذا المستوى العالى فى بلاغة التصوير والتأثير والتحقيق والتقرير وكأن القصة تقوم بدور الشرح والتفصيل لما أودع فى التمثيل من معانى . ولكن بطريق آخر يقوم على الأشخاص الحقيقيين . يقومون بالدعوة إلى دين الله وترسيخ مبادئ السلوكيات الحسنة والأخلاقيات الفاضلة والمواعظ الراشدة والحكم السائدة والأعمال الرائدة للفلاح فى الدنيا والآخرة . وذلك فى نفوس وضمائر الأقوام المدعويين . وبعد ذلك ينجلى الموقف عن إيمان وثواب وكفران وعقاب . تلك هى المعانى التى تدور حولها اللغة الذهنية المجردة وكذلك اللغة والتراكيب المصورة والممثلة . ولذلك قلت إن الترابط بينها دقيق وعميق. وكل منها يعتبر مقدمة للآخر وتزداد المبالغة والتأثير من معرض إلى معرض ومن أسلوب إلى أسلوب •

الفصل الثانى
البناء التركيبى فى القصة

يحسن بنا قبل أن نعرض لمشـــاهد القصـــة بـــالتحليل وبيـــان خصائص البناء التركيبى لجملها . أن نعرض موضوعين على غايـــة كبيرة من الأهمية فى هذا الإطار . وهما: مفهوم الجملة وأثر النحو فى توجيه المعنى . إذ هما منطلق التحليل . والنظر إلى التراكيب ، وبيـــان تعدد المعنى فى إطار الغرض المسوق له الكلام ٠

أولا : مفهوم الجملة :

كان النحو من أوائل العلوم التى دونت كعلاج لغوى لتلك الأدواء التى دبت فى اللسان العربى . منذ أن انساح العرب وانداح المســلمون إلى بلاد الله المفتوحة ، وحدث اختلاط وتزاوج وتلاقح بين الأجنـــاس والألسنة والثقافات ، وفشا اللحن ، فهب علماء المسلمين يدافعون عـــن دينهم ولغتهم وقرآنهم ، وذلك بوضع القواعد والأصول التـــى تحفـــظ عليهم مقومات حياتهم الدين واللغة والتراث ، وكان إمامهم فـــى ذلـــك شيخ النحاة ــ سيبويه ــ الذى وضع مؤلفه الجامع والمنارة الهادية لكل من أراد أن يسلك الصراط اللغوى المستقيم فى القديم والحديث وهـــو كتاب الكتابـــ وكانت قضية الجملة وبيان حدودها ومكوناتها وما يحيـــط بها من أدوات ومتعلقات على رأس القضايا اللغوية المتناولة ، ولذلـــك وجدناهم يصدرون كتبهم بالحديث عن الكلام أو الجملة وأقسام الكلمـــة وأنواع الجملة إلى آخر ما هو مبثوث فى كتبهم، وذلك إن دل على شئ



فإنما يدل على الاهتمام النابع من العقيدة الدينية المتأصلة فى قلوبـــــهم والقارة فى نفوسهم ، المؤمنة بأن اللغة هى السياج المنيـــع والحصـــن المكين لحفظ اللسان العربى وفهم القرآن الكريم . والســنة الشــريفة . وتراث العلماء ...

ونحن فى هذه الأسطر لا ندخل فى تفـــاصيل النحويـين عــن الجملة. وإنما نتعرف على حدودها ومعالمها العامة وذلك مــن خــلال عرض أقوال بعض العلماء ...

فابن جنى يرى أن الكلام هو "كل لفظ مستقل بنفسه مفيد بمعناه . وهو الذى يسميه النحويون الجمل نحو ــ زيد أخوك ــ وقام محمـد ــ وضرب سعيد ــ وفى الدار أخوك ــ وصه . ومه . ورويد ــ وحــاء وعاء فى الأصوات ...

فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام.

وأما القول فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان.تاما كان أو ناقصا. فالتام هو المفيد أعنى الجملة.وما كان فى معناها. من نحو . صه وإيـه ــ والناقص ما كان بضد ذلك نحو ــ زيد ــ ومحمد ــ وإن ــ وكــان أخوك إذا كانت الزمانية لا الحدثية . فكل كلام قول وليس كــل قــول كلاما .

ثم يقول : ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول، إجماع الناس على أن يقولوا ، القرآن كلام الله ، ولا يقال ــ قول الله ــ وذلك

أن هذا الموضع موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شئ من حروفه . فعبر لذلك عنه بالكلام الذى لا يكون أصواتا غير مفيدة ، وعدل به عن القول الذى قد يكون أصواتا غير مفيدة وآراء معتقدة"(١).

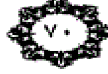
فابن جنى يرى أن الكلام هو الجملة وأنه عبارة عن التركيب القائم بنفسه المستقل بمعناه ، والذى يجنى منه السامع فائدته . وفرق بينه وبين القول . ورأى أن القول أعم من الكلام . لأنه يقع على ما يفيد وما لا يفيد وأما الكلام أو الجملة فلا يكون إلا فيما يفيد، ومن خلال الأمثلة التى ساقها ندرك أنواع التراكيب التى تسمى جملا وهى الجملة الاسمية والجملة الفعلية التى فعلها لازم أو متعدى والظرفية ، والتركيب الناشئ عن اسم الفعل ، وهو مختلف فيه .

" فالبصريون يرون أنه اسم مدلوله الفعل . والكوفيون يرون أنه فعل حقيقة . وبعضهم يرى أنه فعل استعمل استعمال الأسماء ويسمى ـــ مركب الخالفة ـــ "(٢).

ويسير عبدالقاهر فى هذا الاتجاه الذى لا يفرق بين الكلام والجملة فيقول"اعلم أن الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى كلمة.فإذا ائتلف منها اثنان فأفادا نحو ـــ خرج زيد ـــ سمى كلاما، وسمى جملة"(٣).

---

(١) الخصائص ١/ ١٨ ، ١٩ .
(٢) ينظر الجملة العربية ١٠٢ .
(٣) الجمل / ٤٠ .



وعلى هدى منه يرى الزمخشرى أن الكلام "هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى وذلك لا يتأتى إلا فى اسمين كقولك ــ زيد أخوك . وبشر صاحبك، أو فى فعل واسم نحو قولك ــ ضرب زيد ، وانطلق بكر ، وتسمى الجملة"(١).

والملاحظ أن الزمخشرى حصر الجملة فى نوعين ــ الاسمية والفعلية ــ بأسلوبه الدال على الحصر ، وذلك لا يتأتى إلا فى اسمين.. و فى فعل واسم ، وذلك تضيق لنطاق الجملة الواسع الذى أشار إليه ابن جنى من خلال ضرب الأمثلة . وأشار إليه عبدالقاهر من خلال قاعدة الائتلاف ، بين الأسماء والأفعال والحروف ، وهى تلك القاعدة التى بنى على أساسها نظرية النظم .

وإذا قلنا إن الزمخشرى يشير بذلك إلى أدور جملتين فى الكلام وأكثر، وهما الاسمية والفعلية استقام ذلك مع منظور الآخرين.

وأما ابن هشام فيرى أن الكلام غير الجملة، حيث إن الكلام هو "القول المفيد بالقصد ، والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت.

والجملة عبارة عن الفعل وفاعله . كقام زيد ، والمبتدأ وخبره كـ ــ زيد قائم ــ بمنزلة أحدهما نحو ضرب اللص. وــ أقائم الزيدان ــ وكان زيد قائما ، ثم يقول "وبهذا يظهر لك أنهما ليسا مترادفين كما

---

(١) المفصل / ٦ .

يتوهم كثير من الناس وهو ظاهر قول صاحب المفصل . فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال : وتسمى جملة ـ والصواب أنها أعم منه ، إذ شرطه الإفادة بخلافها ، ولهذا تسمعهم يقولون جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، وكل ذلك ليس مفيدا ، فليس بكلام"(١).

ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن الثابت عند العلماء أن الجملة هى محط الفائدة ، وهذه الفائدة لا تحصل من الكلمة الواحدة ولكن لابد من الضم والإسناد بين الكلمات حتى يجنى السامع الثمرة من التركيب فالأمر كما قال ابن جنى عن التركيب ـ إنه مبنى على الاستقلال وتحقيق الفائدة قال " وإنما وضع للفائدة . والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة وإنما تجنى من الجمل .." (٢).

وقد استثمر عبدالقاهر هذا المعنى فأكده فى أسرار البلاغة وهو يتحدث عن خواص الجملة فى الحقيقة والمجاز . وأنه لابد فيها من الإثبات أو النفى ، وذلك يقتضى مثبتا ومثبتا إليه، أو منفيا ومنفيا عنه، أو بمعنى آخر ـ مسندا ومسندا إليه ، وذلك كله من أجل الحصول على الفائدة يقول عبدالقاهر "والذى ينبغى أن يذكر الآن حد الكلمة ـ الجملة ـ فى الحقيقة والمجاز . إلا أنك تحتاج أن تعرف فى صدر القول عليها ومقدمته أصلا، وهو المعنى الذى من أجله اختصت الفائدة بالجملة ... ولم تجز حصولها بالكلمة بالواحدة كالاسم الواحد، والفعل

(١) مغنى اللبيب ٤٩ .
(٢) الخصائص ٢/ ٣٣١ .



من غير اسم يضم إليه ، والعلة في ذلك ، أن مدار الفائدة في الحقيقة على الإثبات والنفي ..."[1].

فالفائدة التي تستقى من الجملة في حالة الإثبات أو النفي هي المقصود الأسمى من صناعة الجملة ، ولا يضر بعد ذلك أن نسميها كلاما أو جملة فلا مشاحة في الاصطلاح ...

وبالنظر في الآيات القرآنية نجد أن بعض الآيات تكون جملا مستقلة تفيد معنى من المعاني ، مثل ـ كذبت ثمود المرسلين ـ فهي جملة من حيث دلالتها على معنى مفيد، ثم إنها منظومة في إطار مشهد متكامل يتحدث عن موقف صالح عليه السلام من قومه . وسنبين في التحليل ذلك ـ فالمشهد كله مكون من مثل هذه الجملة ، وهذه الجمل تعطي المعاني الجزئية التي يتكامل بها المعنى الكلي للمشهد كله،والكل محط الفائدة .

وهناك بعض الآيات تطول وتحوي في داخلها جملا متعددة في إطار كل جملة معنى من المعاني كما في قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف/ ٧٣] .

---

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٣٣ .

فهذه الآية بداية مشهد سورة الأعراف فى القصة ، وهى تبين موقفا من مواقف صالح عليه السلام من قومه وقد اشتملت على الجمل التالية :

١ – ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ .

٢ – ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ .

٣ – ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ .

٤ – ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

٥ – ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ .

٦ – ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ .

٧ – ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ .

٨ – ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

فلكل جملة من هاتيك الجمل معنى ، وبضم هذه المعانى الجزئية يتكون المعنى الكلى للآية ، والكل محط الفائدة وعلى هذا الاعتبار نظرنا إلى الجمل القرآنية فى إطارها الجزئى ، والكلى من خلال السياق والمساق – وسيتضح ذلك أكثر فى الدراسة التحليلية –.

وقد اعتبرت الآية التى تحوى فى داخلها جملا متعددة – جملة كبرى – مثل آية الأعراف السابقة ، كما اعتبرت الجملة الواحدة ذات المعنى الجزئى – جملة صغرى – مثل آية الشعراء السابقة ، وإن

كان ابن هشام قد رأى أن الجملة الكبرى[١] هى المصدرة باسم مخبر عنه بجملة ، والصغرى هى المبنية على المبتدأ، فهذا شئ يستقيم مع الأمثلة الصناعية ، ولكن لغة القرآن لا تخضع لهذه الحدود ، وبخاصة أنها تظهر بأكثر من وجه .

ثانيا : النحو وتوجيه المعنى :

الكلمة فى حالة الإفراد ، ليس لها معنى سوى المعنى المعجمى، وليس لها إعراب ، لأنه وضع للإبانة عن المعنى الوظيفى للكلمة فى الجملة ، كما لا توصف بفصاحة ولا بلاغة إلا إذا وضعت فى نظم وضمها تركيب .

يقول ابن يعيش " والاسم إذا كان وحده من غير ضميمة إليه لم يستحق الإعراب ، لأن الإعراب إنما يؤتى به للفرق بين المعانى ، فإذا كان وحده كان كصوت تصوت به ، فإن ركبته مع غيره تركيبا تحصل به الفائدة نحو قولك : زيد منطلق ، وقام بكر ، فحينئذ يستحق الإعراب"[٢] .

والإعراب كما قال الزجاج هو "الحركات المبينة عن معانى اللغة"[٣] فإذا كان الإعراب هو الذى تستظهر به المعانى التى هى محط الفائدة من الكلام أدركنا أنه من جمال اللغة . ومن فصاحة اللغة أن

---

(١) مغنى اللبيب ٤٩٧ .
(٢) شرح المفصل ١ / ٤٩ .
(٣) الإيضاح فى علل النحو ٩١ .

تستند إليه فى الإبانة عن المعانى التى تثور فى الأذهان ، وتتبجس فى الوجدان ، وتفيض بها النفوس ، وتتراقص لها الرؤوس ولا مميز لها إلا الإعراب الذى يعد من زينتها كما يقول ابن قتيبة "ولها الإعراب الذى جعله الله وشيا لكلامها وحيلة لألفاظها، وفارقا فى بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما فى إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب .

ولو أن قائلا قال ــ هذا قاتل أخى ــ بالتنوين ، وقال آخر: هذا قاتل أخى بالإضافة ، لدل التنوين على أنه لم قتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله .

ولو أن قارئا قرأ : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وترك طريق الابتداء بإنا ــ وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب أن بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى عن جهته وأزاله عن طريقته ، وجعل النبى عليه السلام محزونا لقولهم ــ ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وهذا كفر ممن تعمده وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه.

وقد قال رسول الله "لا يقتل قرشى صبرا بعد اليوم ــ فمن رواه جزما أوجب ظاهر الكلام للقرشى ألا يقتل إن ارتد ، ولا يقتص منه إن قتل ، ومن رواه رفعا انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لا

يرتد منها أحد عن الإسلام فيستحق القتل ، أفما ترى الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين"(١) .

ويسوق ابن هشام رواية تتعلق بالشعر وأثر اختلاف الإعراب في توجيه المعنى فيقول "كتب الرشيد ليلة إلى القاضي أبي يوسف يسأله عن قول القائل :

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمن ∴ وإن تخرقي يا هند فالخرق أشأم

فأنت طلاق . والطلاق عزيمة ∴ ثلاث . ومن يخرق أعق وأظلم

فقال . ماذا يلزمه إذا رفع الثلاث وإذا نصبها؟ قال أبويوسف: فقلت هذه مسألة نحوية فقهية ، ولا آمن الخطأ إن قلت فيها برأي، فأتيت الكسائي وهو في فراشه . فسألته . فقال : إن رفع ثلاثا طلقت واحدة ، لأنه قال — أنت طلاق — ثم أخبر أن الطلاق التام ثلاث ، وإن نصبها طلقت ثلاثا ، لأن معناه أنت طالق ثلاثا ، وما بينهما جملة معترضة ، فكتب بذلك إلى الرشيد ، فأرسل إلي بجوائز، فوجهت بها إلى الكسائي"(٢).

وعلى الرغم من النقد الذى أداره ابن هشام حولها إلا أنها تدل على أثر الإعراب فى توجيه المعنى ..

ويتجلى أثر الإعراب أكثر وأظهر في الآيات القرآنية وذلك لتعدد وجوه المعاني ، وتعدد القراءات القرآنية وتنوع الوقف والابتداء.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤ / ١٥ .
(٢) مغنى اللبيب ٧٦ .

وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقد قرئ المبتدأ – الحمد – بالرفع والنصب ، والرفع يدل على الثبوت والنصب يدل على الحدوث والرفع قراءة الجمهور[1].

وكما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ فعلى اعتبار أن – إن – مخففة من الثقيلة واللام فى – لتزول – فارقة يكون المعنى مهما بلغ مكرهم فى الشدة والهول فإن الله ناصر رسله عليهم ولن تنفعهم معارضتهم للإسلام ، وهى قراءة الكسائى .

وعلى اعتبار أن – إن – نافية واللام فى – لتزول – لام الجحود والفعل المضارع منصوب بعدها يكون المعنى ، إن مكرهم أضعف من أن يؤثر فى الجبال الراسية ، وهى قراءة الجمهور .

فالتفاوت بين المعنيين فى القوة والضعف كان مبعثه هذه التوجيهات الإعرابية والقراءات القرآنية . ولا تناقض بين المعنيين ، لأن الجبال على الأولى حقيقة ، وعلى الثانية مجاز أى دعائم الإسلام وأركانه"[2].

وأما الوقف والابتداء فكما فى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

---

(١) ينظر البحر المحيط ١ / ١٨ .
(٢) ينظر ظاهرة الإعراب فى العربية ١٤٩ .



زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [آل عمران / ٧٠]٠

قرئ : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ بالوقف على لفظ الجلالة ــ الله ــ والابتداء بقوله ــ والراسخون ــ بالرفع على الابتداء وخبره يقولون آمنا به ٠

وقرئ بالوصل أى ــ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، وذلك بعطف ــ الراسخون ــ على لفظ الجلالة ــ الله ــ ٠

فعلى قراءة الوقف . لا أحد يعلم تأويل المتشابه إلا الله عزوجل وعلى قراءة الوصل ، أن الله يعلم تأويله وكذلك الراسخون فى العلم ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ــ أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله ٠

ومن العلماء من فصل فى هذا التأويل فقال " التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان ، أحدهما : التأويل بمعنى حقيقة الشئ وما يؤول أمره إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ وقوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾ أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ٠

فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على لفظ الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الجلية إلا الله عزوجل ويكون قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ ـــ مبتدأ ـــ ويقولون آمنا به ـــ خبره .

وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشئ كقوله ـــ نبئنا بتأويله ـــ أي بتفسيره فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على ـــ والراسخون في العلم ـــ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه .

وعلى هذا فيكون قوله ـــ يقولون آمنا به ـــ حالا منهم[١].

ومن هذه الإشارات الموجزة ندرك أثر النحو والإعراب في توجيه المعاني ، وكيف كان أساسا مكينا يستند إليه في تعدد المعاني وتكثيرها ، وفي توجيه القراءات القرآنية . والوقف والوصل بين الجمل القرآنية .

وهذا الأثر الحميد قد أدركه عبدالقاهر فمزج بين النظرية النحوية والبيانية في كتابه ـــ دلائل الإعجاز ـــ وأقام صرح نظرية النظم على أساس توخي معاني النحوفيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام .

---

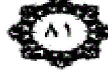
(١) تفسير ابن كثير ٣٤٧/١ .

وكان مما عرض له قوله تعالى : ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ وبين على أى اعتبار من الإعراب والتقديم والتأخير يحصل المعنى المقصود ووازن بين الآية وبين قولنا ﴿وجعلوا الجن شركاء لله﴾ واعتبره نقلا للآية عن صورتها المبهجة المستولية على القلوب إلى صورة لا أثر لها فى النفس وإن كان المعنى العام بجمعهما ، وهو أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، ولكن بتقديم لفظ ــ شركاء ــ يكون المعنى أشمل من هذا . إذ يتناول إنكار أن يكون لله شريك من الجن ومن غير الجن ، وذلك على اعتبار ــ لله ــ فى موضع المفعول الثانى ، وشركاء فى موضع المفعول الأول ، والجن كلام مستأنف على تقدير سؤال ، فمن جعلوا شركاء لله؟ فقيل الجن .

وأما فى قولنا ﴿وجعلوا الجن شركاء لله﴾ على اعتبار أن ــ الجن ــ مفعول أول ، وشركاء مفعول ثان ، فإنه لا يتناول أكثر من إنكار أن يكون الجن شركاء لله ، والذى يناسب القضية هو الإنكار العام لا الخاص.

ويلاحظ أن ــ الجن ــ قرئت كذلك بالرفع والجر ، فالرفع على الاستئناف بتقدير سؤال ــ من هؤلاء الشركان؟

فقيل ــ الجن ــ على أنها خبر لمبتدأ محذوف ــ أى هم الجن ــ وهذه القراءة تلتقى مع قراءة الجمهور بنصب ــ الجن ــ فى الدلالة على عموم الإنكار .



وأما الجر فعلى الإضافة إلى الشركاء ، قال الشهاب : وبـــالجر على الإضافة للتبيين [1] ، وهى تبين أن الشركاء من الجن، وتؤول إلى الإنكار الخاص ، وهو دون المعنى المطلوب ٠

ولا شك أن هذا المزج بين علوم اللغة ـــ هو الأجدى والأنفع فى بيان تفريعات المعانى ، والتعرف على المعانى العامة والخاصة، ومـــا هى ألصق بالسياق والغرض المطلوب ٠

وهذا هو المنهج الأمثل الذى اقتفاه علماؤنا التراثيون من أمثـــال سيبويه والجاحظ وابن جنى وعبدالقاهر والزمخشرى ٠

فإذا أردنا أن نصل أسبابنا بهم ، فعلينا أن ننظـــر فـــى النـــص موضوع الدراسة ، من كافة الزوايا الأسلوبية مـــن البنيـــة الصرفيـــة والتركيبة النحوية والدلالة البلاغية والدلالة اللغوية ، وكافة الأنســـاق المعرفية والثقافية التى كانت ذات أثر فاعل فى صناعة النص ٠

---

(١) حاشية الشهاب ٤ / ١٠٦ ٠

ثالثا : البناء التركيبى فى القصة

وردت الآيات المكونة لقصة نبى الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود فى إحدى عشرة سورة مكية وهى الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل وفصلت والذاريات والنجم والقمر والحاقة والشمس ٠

وأما اسم قومه ـ ثمود ـ فذكر فى ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم . وكلها فى القرآن المكى ما عدا موضعا واحدا وهو ما جاء فى سورة الحج المدنية ٠

وهذا يلفت النظر إلى أن هذا القصص شأنه شأن القرآن المكى. فى أنه كان متوجها إلى القضايا الأساسية فى الدين والعقيدة وهى قضايا التوحيد ، والألوهية والربوبية والنبوة والمبدأ والمعاد . والثواب والعقاب بينما اهتم القرآن المدنى بقضايا السلوك والأخلاق والمناشط الاجتماعية والحياة اليومية وطوائف المجتمع وغير ذلك مما يستدعيه تنظيم المجتمع الإسلامى ٠

بل إن القصة الواحدة قد تتنوع مشاهدها بين القرآن المدنى والقرآن المكى . فيأتى كل مشهد ملائما للسياق العام فى السورة٠

فقصة آدم عليه السلام . جاء منها مشهد فى سورة البقرة ، وهى أول ما نزل بالمدينة ، ومشهد فى سورة الأعراف وهى الثامنة والثلاثون فى ترتيب نزول القرآن المكى ٠

ومع ذلك كان مشهدها فى سورة البقرة يدور حول محور التعليم والتشريف للآدم عليه السلام ، قـال تعـالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة/ ٣١] وما ذكر بعد ذلك كان مفرعا على هذا الأساس ٠

ولكن المشهد الذى جاء فى الأعراف ، كان محوره الأساسى هو بيان المتابعة لأمر الله من الملائكة ، والرفض وعدم المتابعة من إبليس وما حاق به من التصاغر والخذلان والطرد مـن رحمـة الله تعـالى، وبيان كيفية وقوع آدم فى المعصية وإنكار الله عليه ذلك ، ثم لجوئـه إلـى ربـه ـ ضارعـا ـ : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف / ٢٣]٠

فكل من المشهدين يتفق مع السياق والمساق لكل من السورتين ، إذ التعليم من الركائز التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى بينمـا قبـول أمر الله أو رفضه فهو شئ يتصل بالعقيدة٠

وإليك مشاهد هذه القصة ٠

المشهد الأول

فى سورة الأعراف آية ٧٣ ــ ٧٩ :

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ / ٧٣ .

هذه هى بداية القصة الرابعة من هذا القصص المذكور فى سورة الأعراف ، وكان الترتيب وفقا للتدرج الزمنى حيث بدأت السورة بقصة آدم ، وأشبعت الحديث عن أثر المتابعة لما أنزل الله تعالى وعن أثر عدم المتابعة فى ذلك وانقسام الناس إلى أصحاب جنة وأصحاب نار ، ثم ذكرت طرفا من قصة نوح وقصة هود ، ثم كان هذا المشهد من قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود .

وقد بدئت القصة بحرف العطف ــ الواو ــ وهو من باب عطف القصة على القصة ، وهو يعنى العطف باعتبار المعنى ومضمون الكلام ولا يشترط التناسب بين أجزاء الكلامين . كما يشترط ذلك فى عطف المفردات والجمل .

والواو هنا أداة ربط ، ربطت هذا المشهد من هذه القصة بالمشاهد السابقة ، لتلتحم هذه المشاهد كلها مكونة السياق العام للسورة ، وتبدو السورة رغم تعدد هذه المشاهدة فى وحدة نصية كاملة .

وكما أفادت ــ الواو ــ عطف القصة على القصة وكانت وسيلة من وسائل ربط الكلام وإحكامه ، كانت دالة كذلك على الترتيب، في ذكر هذا القصص حيث ذكرت قصة آدم أولا ، ثم قصة نوح ثانيا ، وهو قد ولد لآدم في آخر الألف الأولى وبعث في الألف الثانية كما ذكر الألوسي[1].

ثم قصة هود . وقد قال الله في شأنهم : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ /٦٩ . أي كانوا خلفاء لهم بعد زمن متراخ عنهم .

ثم قصة صالح وقد قال الله في شأنهم : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ / ٧٤ . أي جعلهم بعد زمن متراخ عنهم .

ومن هذا التدرج الزمني كانت الواو مفيدة للترتيب ومن هنا صح قول ابن هشام " وقول السيرافي ــ إن النحويين واللغويين أجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب مردود ، بل قال بإفادتها إياه قطرب والربعي والفراء وثعلب وأبو عمر الزاهد وهشام والشافعي"[2] .

فيتحصل لنا أن هذه الواو لها ثلاث معان :

١ - العطف .

٢ - الربط .

---

(١) روح المعاني ٨ / ١٤٩ .

(٢) مغني اللبيب ٤٦٤ .



٣ – الترتيب ٠

وقد بنيت جملة ــ وإلى ثمود أخاهم صالحا ــ على الحذف ، والتقدير : ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، وذلك بالنظر إلى نظيره السابق وهو ــ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه / ٥٩ ٠

وبنى هذا الحذف على حذف آخر للقسم والتقدير ــ والله لقد أرسلنا ..

وبعد ظهور المحذوفات من القسم واللام وقد يظهر الاهتمام بأمر جواب القسم ؛ لأن القسم يساق تأكيدا للمقسم عليه ، ولذلك قال الألوسى نقلا عن الزمخشرى " والسر فى ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدا للجملة المقسم عليها التى هى جوابها فكانت مظنة لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه لأن القسم دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد " (١) ٠

وبناء الجملة على هذا التوكيد يشير إلى عدة أمور :

١ – تحقيق معنى إرسال الرسول لتقريره فى النفوس بهذه اللغة الحاسمة ٠

٢ – أن هذا التأكيد والتقرير لتثبيت قلب النبى محمد ﷺ وإزالة ما يعتريه من الهم والحزن لانصراف قومه عن قبول الرسالة ٠

---

(١) روح المعانى ٨ / ١٤٨ والكشاف ٢/ ٨٤ ٠

٣ - أن هذا التأكيد من شأنه أن يزيل التردد والإنكـــار مـــن قلـــوب المنكرين الجاحدين ، حيث ينقل لهم هذا النموذج الواقـــع بكـــل أبعاده لعلهم يرتدعون ٠

٤ - وعلى الجانب الآخر يضع بذور الطمأنينة والإيمان فـــي قلـــوب الذين هداهم الله للاتباع ، حيث يعلمون أن مصيرهم من مصـــير هؤلاء الذين نجاهم الله مع رسلهم ٠

٥ - أن جملة القسم بهذا الحشد من التوكيد تشـــوق النفـــس لمعرفـــة الجواب ، الذى هو موضع الاهتمام ٠

٦ - وقال أبو القاسم القشيرى ، إن الله ذكر القســـم لكمـــال الحجـــة وتأكيدها وذلك أن الحكم يفصل باثنين إما بالشهادة وإما بالقســـم فذكر تعالى النوعين حتى لا تبقى لهم حجة[١]٠

وكان القسم هنا بذاته سبحانه وتعالى ، وهو واحد من ثلاثة أشياء يقسم الله بها وهى :

١ - ذاته ، كقوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ ٠

٢ - فعله ، كقوله تعالى : ﴿والسماء وما بناها ﴾ ٠

٣ - مفعوله كما فى قوله تعالى : ﴿والطور وكتاب مسطور ﴾ ٠

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٤ / ٤١

وكما يكون القسم ظاهرا كما فى قولـه ــ ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ يكون مضمرا ــ وهو على قسمين ٠

١ – ما دلت عليه لام القسم كما هنا أى والله لقد أرسلنا وكما في قوله تعالى ــ ﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم﴾ ٠

٢ – ما دل عليه المعنى كقوله تعالى : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ تقديره ــ والله ــ [١].

وبنيت جملة الجواب على الفعل ــ أرسل ــ وهو فى المعجم القرآنى يأتى فى النعمة والنقمة فالنعمة كما فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ٠

والنقمة كما فى قوله تعالى : ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾ ٠

وإرسال الرسول فيه جانب الإنذار وجانب التبشير ومن هنا نقع على الخيط الذى يصل هذا المشهد بموضوع السورة ٠

علاقات وروابط :

فموضوع السورة هو الإنذار والتذكير، كما جاء فى أولها: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٠

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٤/ ٤١ ٠

وإذا كان الإنذار يشفع بالتبشير ، فإن الغالب على هذه السورة هو جانب الإنذار والتذكير ، وأما جانب التبشير فهو قليل إذا قيس بجانب الإنذار وكان فحوى هذا الإنذار هو قوله تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والأمر والنهي: اتبعوا ، ولا تتبعوا ـ هو صلب الإنذار والتذكير التي تقوم عليها الرسالة .

ثم يأتي قوله تعالى : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ / ٤ .

لتقديم الإنذار والتذكير بهذه النماذج البشرية التي أعرضت عما أنزل الله على رسله، وركبت العناد والهوى فحقت عليها كلمة العذاب، وذلك بصورة مجملة كان القصص القرآني وبخاصة في هذه السورة تفصيلا لها .

ويستمر الإنذار في موكب الرسل مع أقوامهم ، وتمضي السورة تذكر بهذه المواقف ، كما في قوله تعالى :

١ – ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ /٦ .

٢ – ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ /٣٥ .

٣ – ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾/ ٤٣ ٠

٤ – ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ / ٥٩ ٠

٥ – ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ / ٦٥ ٠

٦ – ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ / ٧٣ ٠

والتقدير فى الآيتين الأخيريين ــ ولقد أرسلنا .. ويــــأتى قولـــه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ / ٥٧ ٠

تأتى هذه الآية كواسطة العقد فى سلسلة هذا الإرســـــال الإلـــهى وتمتد منها خيوط المشابهة بين إرسال السحاب وإرسال الرسل عليـــهم الصلاة والسلام وذلك فى تقريب يوضح ويعمق معنى إرسال الرســـول من عند الله تعالى ٠

فالذى يرسل الرياح هو الله عزوجل والذى يرسل الرسول هـــو الله تعالى ٠

والرياح بما يحمل هذا اللفظ من الكثرة يقابل رسل الله فهم مـــن الكثرة بمكان ٠

والرياح تحمل الماء إلى الأرض الموات فتحيا بإذن الله تعالى وكذلك رسل الله يحملون الوحى الذى يحى القلوب الميتة بإذنه تعالى .

والماء الذى تسوقه الرياح له مقدمات تكون بين يديه من سوق الرياح للسحاب وتجمعه وتراكبه حتى ينهمل المطر كما جاء فى سورة النور : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ...﴾/ ٤٣ .

وهذا يناظر تلك الإرهاصات والعلاقات التى تسبق إرسال الرسول فى شخصه .

إن المطر سمى رحمة ﴿بين يدى رحمته﴾ والوحى الإلهى رحمة من عنده لخلقه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

وبضم هذه الآية إلى التى تليها وهى قوله تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ / ٥٨ .

يتضح هذا التمثيل وتظهر الخيوط الواصلة بين هذه المظاهر الكونية المادية وبين إرسال الرسل بالوحى الإلهى .

وكأن التمثيل كشف وتوضيح لهذه الحقائق التى يجادل فيها كثير من الناس المارقين .



يقول الرازى " القول الأول ــ أى فى هذه الآية وهو المشهور أن هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر بالأرض الخيرة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التى نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار ، وأما الأرض السبخة فهى وإن نزل المطر عليها لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل ، فكذلك الروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل بها نور القرآن ظهرت فيها أنواع من الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيثة الكدرة وإن اتصل بها نور القرآن لم يظهر فيها من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل "[1] .

وبعد هذا التمثيل شرعت السورة فى ذكر هذا القصص وكأنه كما قلت سابقا تفصيل لهذا الإجمال وبيان وشرح لهذا التمثيل من خلال النموذج البشرى على أرض الواقع ، فهو من باب البيان بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال ، وكأن المثل بهذا الاعتبار عامل من عوامل التشويق والإثارة والترغيب لمعرفة هذا القصص ٠

وبذلك يكون هذا المشهد قد ارتبط ارتباطا قويا ومحكما عن طريق هذه العلاقات والخيوط الممتدة من أول السورة إلى آخرها ، مما جعله لبنة محكمة فى هذا البناء المحكم ٠

---

(١) التفسير الكبير ١٤ / ١١٤ ٠

ثم إن هذا الفعل وهو ـــ أرسل ـــ أسند إلى ضمير العظمة ـــ نـــا ـــ أرسلنا ـــ وهو بما له من عظمة دال على التفرد والاختصاص بهذا الإرسال ، فلا دخل للرسول فيما يرسل به وإنما هو وحى من عنـد الله عزوجل ، وأن ما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام هو من جنـس هذا الوحى ، وهو أيضا دال على الامتنان لأن الرسالة رحمة مـــن الله لخلقه .

ثم ذكرت الآية ـــ المرسل إليهم ـــ وهم قوم ثمود ، قبـــل ذكـــر المرسل ، وهو صالح عليه السلام وذلك يشير إلى اختصاصه بـــــهم ، وذكرت ما يكون دافعا إلى متابعته وهو الأخوة وهى تقتضى مناصرته ومعاونة على هذا الأمر المرسل به وفيها من التشويق لمعرفـــة عينـــه ولذلك ذكرت قبل اسمه الصريح .

فدلت جملة ـــ وإلى ثمود أخاهم صالحا ـــ على ما يأتى:

١ – أهمية هذا الإرسال لمجيئه فى جواب القسم .
٢ – المرسل وهو الله عزوجل المتفرد بذلك .
٣ – المرسل وهو صالح عليه السلام وهو منهم .
٤ – المرسل إليهم وهم قوم ثمود .
٥ – اختصاصه بهم .

فهذه الجملة هى الجملة الأم لأنها احتوت على أركان الرســـالة ، وأوقفت صالحا على نقطة البدء فى تبليغ الرسالة ، فماذا قال صـــــالح بعد هذا التكليف ؟

جملة انطلاق الدعوة :

وهى قوله تعالى ــ قال : ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقد ربطت بسابقتها ربطا معنويا عن طريق الاستئناف البيانى، وكأن ذكر قصة نوح وهود قبلها قد أثار فى نفس السامع سؤلا عن قول صالح لقومه ، ماذا قال؟

فكان الجواب ، قال يا قوم ٠

ومعلوم أن الوصل إما أن يكون ظاهرا بحرف العطف وإما أن يكون خفيا عن طريق الاستئناف وهو أقوى الوصلين كما ذكر الزمخشرى٠

وصدرت الجملة بقوله ــ يا قوم ــ وبالياء خاصة وهى لنداء البعيد أو ما فى حكمه ، وقد ينادى بها القريب توكيدا وذلك لأهمية الأمر المنادى له ، ومعلوم أن قومه كانوا قريبين منه أو على الأقل يسمعونه ولكنه نزلهم منزلة الغافلين أو الساهين ٠

ومن لم يكن منهم كذلك ، فقد أكد له الكلام لأهمية العبادة التى يدعوهم إليها " وهى أكثر حروف النداء استعمالا ، ولهذا لا يقدر عند الحذف سواها"[١] ٠

وقد ذكرهم بهذا النداء بآصرة القربى الدالة على إمحاض نصحه لهم ، وأنه لا يريد لهم إلا الخير . وأضافهم إلى ضميره ، ترقيقا وتلطفا بهم رجاء أن يتابعوه ٠

---

(١) مغنى اللبيب ٤٨٨ ٠



كما أن مادة القيام تدل على الانبعاث والنشاط والمراعاة للشيء والحفظ له والثبات والعزيمة ، وكل ذلك له صلة وثيقة بهذا النداء ، فهو يثير فيهم داعية المتابعة بهذه الملاطفات الندائية . ويقوى فيهم روح العزيمة والثبات والحفظ والمراعاة لهذا الذى يدعوهم لأجله ، وهو عبادة الله عزوجل ٠

وبدأ بلب الرسالة وهو العبادة ، وإذا كانت العبودية إظهار التذلل ، فالعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من لـه غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال : ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾ والعبادة كما يذكر الراغب ، ضربان :

عبادة بالتسخير ٠

وعبادة بالاختيار وهى لذوى النطق وهى المأمور بها فى نحو قوله ــ اعبدوا ربكم ــ اعبدوا الله ــ [1] ٠

والأمر فى اعبدوا الله للوجوب ، وبعد ذلك يقف اختيار الإنسان أمام هذا الوجوب إما أن يفعل أو لا يفعل ، وعلى كسبه يكون الثواب والعقاب وفى ذكر لفظ الجلالة ــ الله ــ ما يدل على أن قوام هذه العبادة هو التكليف الذى جاء فى الرسالة فهو مشعر بالألوهية ، والألوهية تكليف والربوبية عطاء ٠

---

(١) ينظر الراغب ــ عبد ٠

ولكن إذا كان صالح عليه السلام قد أمرهم بعبادة الله عزوجل ، فهل كانوا مشركين أم وثنيين ؟

تأتي جملة ــ ما لكم من إله غيره ــ تفصل في هذه القضية ولكن يبقى الكلام محتملا للوجهين ، ولا مانع من أن يكون فيهم من هو مشرك ومن هو وثني .

" فإن كانوا مشركين كان أمره إياهم بعبادة الله مقيدا بمدلول قوله ــ ما لكم من إله غيره ــ أي أفردوه بالعبادة ولا تشركوا معه الأصنام.

وإن كانوا مقتصرين على عبادة الأوثان ، كان قوله ــ ما لكم من إله غيره ــ تعليلا للإقبال على عبادة الله أي هو الإله لا أوثانكم.

وجملة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ على الوجه الأول بيان للعبادة التي أمرهم بها أي أفردوه بالعبادة دون غيره ، إذ ليس غيره لكم بإله.

وعلى الوجه الثاني يكون استئنافا بيانيا للأمر بالإقلاع عن عبادة غيره"[1].

وقد صدرت الجملة بـ ــ ما ــ لأن هذا القول صدر من الرسول وكان المقصود نفي الآلهة في الحال تحقيقا لمعنى الأمر في

---

(١) التحرير والتنوير ٨ / ١٨٩ .

العبادة ، وكانت ــ ما ــ هى المناسبة للنفى فى الحال كما ذكر عبدالقاهر وهو يقرر نظرية النظم . يقول : "وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه نحو أن يجئ بـ ــ ما ــ فى نفى الحال ، وبـ ــ لا ــ إذا أراد نفى الاستقبال وبـ ــ إن ــ فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون ، وبـ ــ إذا ــ فيما علم أنه كائن .. "(١).

وقد زاد هذا النفى وكادة بدخول ــ من ــ الدالة على الاستغراق على النكرة ــ إله ــ وهى فى ظلال النفى تدل على العموم . وذلك نفى الجنس الآلهة دون الله على سبيل الاستغراق العام ٠

وجملة ــ اعبدوا الله ــ فيها معنى الإثبات وجملة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فيها النفى ، وكأن مضمون الجملتين يجمع بين الإثبات والنفى، إثبات عبادة الله ، ونفى العبادة عن غيره ، وهذا الإثبات والنفى هو مضمون كلمة التوحيد ــ لا إله إلا الله ــ ٠

الجملة الدالة على صدق النبوة :

ظهر فيما سبق أن الجمل تسير وفق ترتيب محكم دقيق ٠

فالجملة الأولى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ ...﴾ دلت على الألوهية المتفردة بالإرسال ٠

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٢ ٠

والجملة الثانية : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ دلت على ملاطفة القوم وأمرهم بالتكليف ٠

والجملة الثالثة : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دلت على الإقرار بالتوحيد ٠

والجملة الرابعة : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دلت على صدق النبوة فيما تبلغ عن ربها وهى تعتبر دليل إدانة للمعرضين ، ودليل طمأنينة للمنيبين ٠

وكان مجئ هذه البينة من الله عزوجل بناء على طلبها فقد جاء فى سورة الشعراء : ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ /١٥٤ ٠

فجملة ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ ليست كلاما ابتدائيا منه عليه السلام وإنما كان ذلك بعد الدعوة إلى التوحيد ، ونصحهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم كما سيأتى فى سورتى هود والشعراء ، وفى أثناء تكذيبهم وجدالهم ، كان مطلبهم ذلك ٠

وقد طلبوه متوهمين عجزه عن ذلك ، وقد بنوا عبارتهم بما يفيد ذلك ، حيث ذكروا :

١ – الإتيان – فأت – والإتيان مجئ بسهولة ، وكأنهم لم يطلبوا شيئا يصعب عليه ، أو يعز وجوده ٠



٢ - تنكير كلمة ــ آية ــ وهو يفيد التقليل وكأنهم طلبوا أى آية . تثبت صحة دعواه ٠

٣ - مجئ كلمة ــ إن ــ الشرطية وهى تدل على شكهم فى صدق دعواه ، وإنكارهم قدرته على مجئ الآية الدالة على صدقه٠

ولذلك كان الرد قاطعا لشكهم ، قاضيا على إنكارهم بهذه اللغة الحاسمة ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ ــ فقد وضعت الجملة فى هذا القالب المتين ، حيث صدرت بـ ــ قد ــ الدالة على التحقيق والتأكيد وكان الفعل ــ جاء ــ والمجئ أقوى وأعظم من الإتيان وتنكير ــ بينة ــ للتعظيم والتفخيم . ثم إنها كائنة من ــ ربكم ــ والربوبية إفضال وإنعام ، وهو تعالى إذ يعطى ، فإنه يعطى بمقياس العظمة التى لا يعجزها شئ فى الأرض ولا فى السماء ٠

ولا يقدح فى صحة ما ذهبنا إليه من أنه روى أنهم طلبوا منه ناقة عشراء وبراء تخرج من صخرة عينوها فإن فعل ذلك آمنوا به وصدقوه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق على ذلك ، فصلى ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة عن هذه الناقة ، وولدت ولدا مثلها فى العظم، فآمن به البعض وأعرض البعض الآخر ٠

لأن ذلك لم يثبت ثبوتا قطعيا ، وقد اختلفت كتب التفسير فى روايته ، بل إن بعضهم لم يعزوه إلى أحد واكتفوا بصيغة التمريض ــ



روى ــ بينما لم يذكره الآخرون مطلقا ، وهم محقون فى ذلــك لأنــه زائد على معطيات القرآن الكريم ٠

وهذه الجملة ــ قد جاءتكم .. ــ تضم إلى الجمل السابقة علـــى وجه التعليل للأمر بالعبادة واختصاصه تعالى بالتوحيد ، وهى من وجه آخر تشير إلى أن صالحا قالها والناقة موجودة ، بدليل قوله بعد ذلــك ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ فاسم الإشارة بما له من التميـــيز والاســتحضار ، والمشار إليه وهو ــ ناقة الله ــ وقوله ــ لكم ــ أى خاصة وتنكير ــ آية ــ للدلالة على التعظيم والتفخيم ، وهى العلامة الدالة على صدقــه فى دعوى النبوة والجملة بكمالها بيان لقوله ﴿قد جاءتكم بينة ..﴾ ويمكــن أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا على معنى أين هى وما هى؟ فقال هــذه ناقة الله ٠

وفى إضافة الناقة إلى الله اعتبارات :

١ – أنها الآية التى جعلها الله معجزة لصالح عليه السلام ٠

٢ – بيان حرمتها وشرفها حيث أضيفت إلى الله دون أحد من الخلق٠

٣ – بيان أنها من صنعة الخالق ابتداء حيث لم تولــد مــن الطريــق المعروف ٠

٤ – بيان أن ملكيتها لله عزوجل دون أى أحد ٠

٥ – بيان عظم الجرم الذى يرتكب فى شأنها وأن مسها بســوء يعــد انتهاكا لحرمة الله تعالى ٠



وأما كونها جاءت آية ومعجزة فهى بلا شك معجـزة ولابـد أن تكون كسائر معجزات الرسل أى أمر خارق للعادة ٠

ولكن من أى وجه كانت خارقة للعادة ؟

ذكر المفسرون أربعة أقوال :

الأول : وعليه الجمهور أنها كانت آية بسـبب خروجـها مـن الصخرة ٠

الثانى : أنها كانت آية بسبب أنه كان لها شرب يـوم واسـتيفاء ناقة شرب أمة عجيب ٠

الثالث : أنهم كانوا يحلبون منها القدر الذى يقوم لهم مقام المـاء فى يوم شربهم ٠

الرابع : أن جميع الحيوانات كان يوم مجيئها للماء ، تمتنع مـن الورود على الماء ، وكانت يوم امتناعها تأتى ــ أى جميع الحيوانـات ــ الماء [1] ٠

وقال الإمام الرازى " واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آيـة ، فأما ذكر أنها كانت آية من أى الوجوه فهو غـير مذكـور ، والعلـم حاصل بأنها كانت معجزة من وجه لا محالة والله أعلم"٠

---

(١) قصص الأنبياء / ٨٢ ٠

ولست أرى ما ذهب إليه الرازى من أنها معجزة من وجه ولكنه غير مذكور لأن لغة القرآن ناطقة بأنها معجزة عظيمة بدليل الصياغات التى يفهم منها وجوه الإعجاز ، مثل تنكير ــ بينة ــ وإضافة الناقة لله عزوجل ــ وتنكير ــ آية ، وكل ذلك ناطق بأنها عظيمة ، ولابد أن تكون هذه العظمة على خلاف المعهود عند الناس ، وهو ما قررته الإضافة فى ــ ناقة الله ــ ثم إن القرآن ذكر شيئا هو من مقتضيات العظمة لهذا المعجزة وهو أن ماء القوم كان قسمة بينهم وبينها ، فقال : ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ١٥٥ الشعراء ، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ ٢٨ القمر .

فكون الماء الذى يكفى ما يقرب من أهل خمسة آلاف بيت تشربه هذه الناقة فى يوم ، فإنه من أكبر الأدلة على عظمها . وهو صريح لفظ القرآن الكريم .

جملة الأمر والنهى :

من المعلوم أن الشرائع الإلهية تقوم على أحكام وتكاليف يطلب من الناس أن يتمثلوها فى حياتهم ، ولب هذه الأحكام والشرائع هو الأمر والنهى ، ولذلك شاع هذا الأسلوب فى القرآن الكريم ، لأنه أصل التكليف ــ افعل ولا تفعل ــ وهى باب الاتباع وعدم الاتباع كما ذكر فى أول سورة الأعراف : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ...﴾ .

وكما هما ــ الأمر والنهى ــ مقترنان فى الأساليب وبخاصة فى القرآن الكريم ، مقترنان كذلك عند المؤلفين ، فسيبويه يعنون لهما فى كتابه بعنوان "باب الأمر والنهى" كما أفاض النحويون والأصوليون والبلاغيون فى ذكر صيغهما والمعانى الحقيقية والمجازية ، والأسوار البلاغية فى أساليبهما ، كما تناولهما كثير من الباحثين والدارسين فى المجالات الأسلوبية المختلفة وذلك مبسوط فى الكتب والرسائل الجامعية.

وأول ما يلقانا من هذا الأسلوب ، هو أسلوب الأمر فى قوله تعالى : ﴿فذروها تأكل فى أرض الله﴾ وهذه الجملة متسببة عن الجملة السابقة ومتفرعة عنها إذ بعد وجود الناقة معجزة بين أيديهم .

كان لابد من سوق الأوامر والنواهى المتعلقة بها أولا لأن سلامتهم من سلامتها ، وإيذاءهم من إيذائها فإذا حافظوا عليها وهى الحيوان الأعجم كان حفاظهم على شرع الله وعدم التفريط فى جنب الله أولى وأعظم فالفاء فى قوله ــ فذروها ــ دالة على :

١ - التفريع .
٢ - السببية .
٣ - الربط .

وجاء الأمر الصريح بالفعل ــ ذروها ــ أمرا إلزاميا على سبيل القطع والوجوب وهو يعنى الفرضية وطلب الفعل على سبيل الحتم

وعدم التهاون فى تنفيذه ـــ كما يقول الجرجانى ـــ والفرض ما ثبـــت بدليل قطعى لا شبهة فيه ، ويكفر جاحده ، ويعذب تاركه وهو نوعـان، فرض عين ، وهو ما يلزم كل واحد إقامته ولا يسقط عـــن البعـض بإقامة البعض .

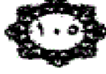
وفرض كفاية وهو يلزم جميع المسلمين إقامته ، ويسقط بإقامـــة البعض كالجهاد"[1] .

وكان هذا الأمر فرضا من الله تعالى لهم ، أخبرهم بـــه صـــالح عليه السلام ، وإذا علمنا أن الأمر الاصطلاحى هو "طلب الفعل علـــى جهة الاستعلاء" أدركنا أن جهة الاستعلاء فـــى جـــانبين وهمـــا . الله عزوجل الذى أرسل صالحا ومعجزته ، وصالح عليه السلام الذى بلـــغ هذا الأمر إليهم ، وهم الجهة المأمورة بالتنفيذ وعدم التهاون وتضمنـت الجملة عدة أمور .

١ – الفعل وهو فذروها أى اتركوها .
٢ – التارك وهم القوم .
٣ – المتروك وهى الناقة .
٤ – جهة الترك وهى تركها تأكل .
٥ – ومكان الترك وهو أرض الله تعالى .

---

(١) التعريفات للسيد الجرجانى ١٤٤ .



فأما الفعل ــ ذرا ــ فتدور مادته حول التطيير والإذهاب والتسريح . يقال ــ ذرى نفسه ــ سرحه كما يذرى الشئ فى الريح ، وذروته أنا أى طيرته وأذهبته ، والذرية ، الناقة التى يستتر بها عن الصيد[1].

فكان الفعل ــ فذروها ــ من الأفعال المكينة فى مكانه ولا يصلح الفعل الذى بمعناه وهو ــ فاتركوها ــ مكانه لأن هذا الفعل ــ فذروها ــ دل على المراد منه وهو تسريح الناقة ، وتركها تذهب وتتنقل حيث شاءت فى كل مكان ، كما تذرو الريح التراب فى كل مكان .

كما أن المادة تتحمل الإطلاق الخاص بالناقة وهى لفظ ــ الذرية ــ فكأن الفعل ــ فذروها ــ تحمل المعنى المراد متعلقا بمفعوله الخاص وهو الناقة .

وأما التارك والمتروك وهم القوم والناقة ، فقد عبر عنهما بالضمائر لتقدم مرجعيهما ، وتواليا فى جملة تعد كالكلمة الواحدة ــ فذروها ــ إشارة إلى وجوب الترابط والتواصل والالتزام بالأمر نحوها فلا ينخلعون عن هذا الأمر . بل يظلون محتفظين بحرمتها فى نفوسهم .

---

(١) لسان العرب ــ ذرا ــ .



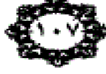
ويجئ جواب الأمر ـــ تأكل فى أرض الله ـــ وهى جملـــــة ذات دلالات دقيقة ·

فقد أبانت عن حيثية الأمر فى فذروها ـــ أى اتركوها تأكل فـــى أرض الله ـــ أى تأكل الكلأ والعشب وحذف للعلم بـــه ، وقـــد اكتفـــى بالأكل عن غيره لأنه الأصل فى قوام البدن ·

وإضافة الأرض إلى الله تعالى ، تقديم لدليل مادى قطعى الثبوت بأن الأرض لله كما أن الناقة لله وفى ذلك قطع لأعذارهم فى التعـرض لها بسوء ·

وكأنه يقول لهم ، إنكم لا تخسرون شيئا بتركها تأكل فـــى أرض الله ، فما فى الأرض من نبات إنما هو مـــن خلــق الله ، فالناقــة لله ، والأرض لله ، والنبات من إنبات الله ، فأى عذر لكم فى أن تتعرضـــوا لها بسوء ، بل إن التعرض لها بعد ذلك إنما هو جـــرم كبـير وإثــم خطير ·

فهى دعوة للتأمل فيما حول الإنسان من حيوان ونبات وجماد كى يصل عن طريق الفكر السديد ، والعقل الرشيد فـــى أن خـــالق هــذه الأشياء إنما هو الله عزوجل وهو الذى يملكها ويصرفها كيفمـــا شـــاء فيعرف أنه المستحق للعبادة والإفراد بالتوحيد فلا يســـعه إلا أن يلبـــى الأمر فى قوله ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ويعلم أنها قضية إيمانيـــة يقينية وعليها أدلة من نفسه ومن الواقع المحيط به·



وقرئ ــ تأكل ــ بالرفع ، والجملة حال أى آكلة[1] وجملة الأمر هذه وجوابها يفوح منها معنى السلامة وعدم التعرض لها بأى إيــذاء ، فى كل أحوالها ، وليس المقصود حالة الأكل فقــط لأن الأكــل ســيق مساق الشئ الغالب على أحوالها ٠

وهذا المضمون المفهوم من جملة الأمر ، صرحت بـــه جملـــة النهى ، وهى ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ ٠

وجملة النهى معطوفة على جملة الأمر ، وتعاقب النهى والأمـــر هو المقصود من التشريع ، أى الاتباع وعدم الابتداع ٠

وجملة النهى ــ ولا تمسوها بســوء ــ عــبرت بـــالأدنى عــن الأعلى، فقد نهت عن المس وهو دون القصد والإصابة وتنكير ــ سوء ــ إشارة إلى قلته وتفاهته أى بأدنى سوء . وذلك مبالغة فى الزجر عن التعرض لها وقد يكون المقصود به التعميم . أى بأى نوع من أنـــواع الأذى ، قل أو كثر فضلا عن التعرض لها بالعقر أو النحر أو الطـــرد أو المنع من الكلأ والماء ٠

ورتب على هذا الأمر والنهى ، قوله ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ وهـــو وعيد شديد لمن لم يمتثل الأمر والنهى، وكأنه سبب دافع إلى الامتثال ،

---

(١) روح المعانى ٨ / ١٦٣ ٠



ففائدتها مزدوجة ، بيان ما ينتظر المخالفين ، ودافع نفسي إلى وجوب الامتثال .

وصدرت الجملة بفاء السببية ــ فيأخذكم ــ وانتصب الفعل بعدها بأن المضمرة بعد فاء السببية ، وهي تشير إلى سببية أخذهم بالعذاب الأليم .

ومادة الأخذ تدل على القهر والشدة كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى : ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد .

ويعبر عن الأسير بالمأخوذ والأخيذ ، ويقال فلان مأخوذ وبه أخذة من الجن[1] .

وإسناد هذا الأخذ بهذا المعنى إلى العذاب الأليم ، فيه من مضاعفة الشدة والألم ما فيه ، وهذا من الأنباء التي أخبرهم بها صالح عليه السلام قبل وقوعها ، إذ لم يأخذوا هذا الأمر والنهي مأخذ الجد ، فعقروا الناقة ، وحل بهم العذاب الأليم .

وبعد بيان دلالة جملة الأمر ، وجملة النهي ، نشير إلى أن جملة الأمر لها دلالتها الخاصة وهي ــ فذروها تأكل في أرض الله ــ وجملة النهي لها دلالتها الخاصة ــ ولا تمسوها بسوء ــ .

---

(١) مفردات الراغب ــ أخذ ــ .

فكما ان كل جملة لها ألفاظها الخاصة،فكذلك لها معناها الخلص، وإذا كان هناك اقتضاء عقلى وتلازم دلالى بين المعانى فإن العبرة بالألفاظ الدالة على هذه المعانى ، هل هى متحدة أم مختلفة؟

وطالما اختلفت الألفاظ ، فلابد أن تختلف المعانى ولذا قال عبدالقاهر "لأنه لا سبيل إلى أن تجئ إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصفته بعبارة أخرى، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه فى صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور .

ولا يغرنك قول الناس ، قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه ، فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه فى الكلام الأول ، حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلته هناك ، وحتى يكون حالهما فى نفسك حال الصورتين المشتبهتين فى عينك كالسوارين والشنفين ففى غاية الإحالة، وظن يفضى بصاحبه إلى جهالة عظيمة ، وهى أن تكون الألفاظ مختلفة المعانى إذا فرقت ومتفقتها إذا جمعت وألف منها كلام ، وذلك أن ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو ــ قعد ــ و ــ جلس ــ ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر نحو أن تنظر فى قوله تعالى : ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ وقول الناس ــ قتل البعض إحياء للجميع ــ فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا فى مثل هذا ــ إنهما عبارتان معبرهما واحد ــ فليس هذا القول قولا



يمكن الأخذ بظاهره أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر"[1] .

وهذا الذى ذهب إليه عبدالقاهر ، هو محط رحال البلاغيين إذ هم يتعاملون مع الألفاظ ، حقيقة أو مجازا أو كناية ولا عبرة بما ذهب إليه ابن الأثير من أن الأمر بالشئ نهى عن ضده ، وهو بصدد الحديث عن التكرير ، وتقسيمه إلى تكرير يوجد فى اللفظ والمعنى، وتكرير يوجد فى المعنى دون اللفظ كقولك ـــ أطعنى ولا تعصنى ـــ فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية ، والفائدة فى ذلك تثبيت الطاعة فى نفس المخاطب"[2].

وحكى سعدالدين التفتازانى خلافا للأصوليين حول هذه المسألة قال ـــ اختلفوا فى أن الأمر بالشئ هل هو نهى عن ضده وبالعكس وليس الخلاف فى المفهومين للقطع بأن مفهوم الأمر بالشئ مخالف لمفهوم النهى عن ضده ـــ ولا فى اللفظين للقطع بأن صيغة الأمر ـــ افعل ـــ وصيغة النهى ـــ لا تفعل ـــ وإنما الخلاف فى أن الشئ المعين إذا أمر به ، فهل هو نهى عن الشئ المضاد له ، فقيل : إنه ليس نفس النهى عن ضده ولا متضمنا له عقلا ، وقيل نفسه ، وقيل متضمنه ، ثم اقتصر قوم على هذا ، وقال آخرون، إن النهى عن الشئ نفس الأمر بضده ، وقيل يتضمنه .

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٦١ .
(٢) المثل السائر ٣ / ٣ ـــ ٢٩ .

وحاصل هذا الكلام ، أن وجوب الشئ يدل على حرمة تركه ــ وحرمة الشئ تدل على وجوب تركه ، وهذا مما لا يتصور فيه نزاع[1].

فالأساس الذي بناه عبدالقاهر هو الذي عليه المعول أي أنه يستحيل أن تتوارد عبارتان بينهما أدنى خلاف في النظم على معنى واحد ، وبذلك تبقى لجملة الأمر استقلاليتها ولجملة النهي استقلاليتها، نعم إن المفاهيم قد يؤكد بعضها بعضا ، لكن لا يمكن الاستغناء عن القوالب اللفظية من أجل هذه الدلالات الداخلية ٠

جملة ذكر النعم الخاصة والعامة :

بعد هذا الترهيب من حلول العذاب الأليم لمن لا يمتثل لهذا الأمر والنهي ، جاء الترغيب بقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ / ٧٤ ٠

هذه الجملة معطوفة بالواو ، إما على ــ اعبدوا الله ــ وإما على ــ فذروها تأكل في أرض الله ٠

وهو ترقي في طريق الاستدلال على وجوب توحيده تعالى فقد أمرهم أولا بالتوحيد ــ اعبدوا الله ...... وساق دليل صدق النبوة ــ

---

(١) شرح التلويح على التوضيح ١ / ٤٢١ ، ٤٢٢ ٠

هذه ناقة الله لكم آية ... ، وساق فى هذه الآية التذكير بالنعم الخاصة والعامة فالتذكير هو العنصر الأهم فى هذه الجملة ، إذا كان صريح الأمر فى قوله ــ واذكروا ــ هو التذكر ، فإن مضمونه هو الوعيد والإنذار لمن لا يتذكر ويعتبر بأحوال الماضي.

والذكر كما يقول الراغب ــ يقال اعتبارا باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشئ القلب أو القول ، ولذلك قيل الذكر ذكران ، ذكر بالقلب وذكر باللسان ، وكل واحد منهما ضربان ، ذكر عن نسيان ، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ .

ومن الذكر باللسان قوله تعالى : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾ .

ومن الذكر بالقلب واللسان معا قوله تعالى : ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ .

ومن الذكر عن النسيان قوله ــ ﴿ فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ .

وقوله ــ ﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل﴾ أى أولا يذكر الجاحد لبعث أول خلقه ، فيستدل بذلك على إعادته .

والذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر قال تعالى : ﴿رحمة منا وذكرى لأولي الألباب﴾ (١).

---

(١) المفردات ــ ذكر ــ .



ويقول الدكتور / الخولى : وبضم ما يفهم من سـياقات القـرآن التى وردت فيها هذه المادة ، يكون بملكنا أن نقول :

إن التذكير يرد على نسيان وعلى غفلة وعلى جحود وإنكار .
وحين يرد على نسيان، فغايته حث الناس على استحضار ما نسيه .
وحين يرد على غفلة، فغايته دعوة الغافل للتأمل والتدبر .
وحين يرد على جحود وإنكار فغايته التخويف والزجر .

ولعل الغاية الأولى ظاهرة فـى مثـل ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ .

ولعل الغاية الثانية أظهر فى مثـل ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

ولعل الغاية الثالثة أشد ظهورا فى مثل ﴿وذكرهم بأيام السنة﴾ (١).

فإذا كان خطاب صالح عليه السلام لقومه الكافرين كان قولـه ــ واذكروا ــ مدعاة للتأمل واستحضارا لنعم الله عليهم كى يتوصلوا مـن ذكر النعم إلى شكر المنعم وهو الله الذى له الخلـق والأمـر ، وبهذا المعنى يدخل التذكر فى حيز التكليف ، ومن شأنه إيصالهم إلى توحيـد الله وعبادته .

---

(١) السنة بيانا للقرآن ٣٥٤ .



وإذا كان التذكر له دلالات متعددة كما وضح مما سبق فإن هـذه الدلالات لا يلغى بعضها البعض ، ولكن يبقى المعنى المحورى ظاهرا طبقا للسياق والمساق وهو هنا التذكر الذى يأتى على الجحود والنكران ومن شأنه أن يخوف ويزجر الجاحد ، وتبقـى بعـد دلالات النسـيان والغفلة، داخلة فى نطاق هذا التذكر الذى يردع الجاحدين فضلا عـن الناسين والغافلين .

وتأتى الجملة محل الامتنان الأول وهو ـ ﴿إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أى اذكروا وقت جعلكم خلفاء من بعد عاد والبعدية هذه بعدية زمانية ، وليست مكانية لاختلاف مكان عاد وثمود . فعاد كانت بجنوب الجزيرة العربية ، من أرض اليمن وحضرموت وعمـان والأحقـاف وثمود كانت بالحجر بين الحجاز والشـام أى فـى شـمال الجزيـرة العربية .

والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الأخير ، استخلف الله أولياءه فى الأرض قال تعالى:﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض﴾ .

والخلائف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف[1] .

ويقول صاحب اللسان :

---

(١) مفردات الراغب ـ خلف .

والخليفة الذى يستخلف من قبله والجمع خلائف . جاءوا به على الأصل مثل كريمة وكرائم وهو الخليف والجمع خلفاء، وأما سيبويه فقال خليفة وخلفاء ، كسروه تكسير فعل لأنه لا يكون إلا للمذكر .

وقال الفراء فى قوله تعالى : ﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض﴾ قال جعل أمة محمد خلاف كل الأمم قال . وقيل خلائف فى الأرض يخلف بعضكم بعضا ابن السكيت ، فإنه وقع للرجال خاصة، والأجود أن يحمل على معناه ، فإنه ربما يقع للرجال ، وإن كانت فيه الهاء. ألا ترى أنهم قد جمعوه خلفاء؟

قالوا ثلاثة خلفاء لا غير ، وقد جمع خلائف فمن قال خلائف، قال ثلاث خلائف وثلاثة خلائف ، فمرة يذهب به إلى المعنى ، ومرة يذهب به إلى اللفظ ، قال: وقالوا خلفاء من أجل أنه لا يقع إلا على مذكر وفيه الهاء، جمعوه على إسقاط الهاء، فصار مثل ظريف وظرفاء، لأن فعيلة بالهاء لا تجمع على فعلاء"[1].

فإذا كانت خلفاء تقع للرجال خاصة، والخلائف يلاحظ فيها جانب التذكير والتأنيث، وهو المقصود من قوله تعالى : ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾ فسواء كان الخطاب عاما أو كان الخطاب خاصا بالأمة المحمدية ، بأنهم يخلف بعضهم بعضا أو خلائف عن الله فى الأرض ،

(١) اللسان ــ خلف ــ .

أو يفعلون فعل الخلفاء من التمكن والتصريف فى الأرض ، فإن ذلك يشمل الذكور والإناث ، وتكون ــ خلائف ــ نظير ــ جماعات ــ يخلف بعضهم بعضا ٠

وأما الخلفاء التى تقع للرجال خاصة فإن المقصود بها هنا الذكور والإناث ولكن خص ــ الخلفاء ــ من باب التغليب ــ ولعل ذلك لأن الموضع موضع امتنان بالقوة فى عمارة الأرض ، بعد عاد، التى كانت تقول ــ ﴿من أشد منا قوة﴾ ومع ذلك لم تحمهم قوتهم من الهلاك وهذا هو موطن التذكر لما هم عليه من القوة والخلافة لهؤلاء الأقوام الذى هلكوا ولم يبق منهم إلا هذا التاريخ موطن العبرة والعظة٠

ويلاحظ أنه هنا قال ــ من بعد عاد ولم يقل من بعد قوم هود ــ كما قال عن قوم نوح ــ من بعد قوم نوح ــ فى توجيه الأمر لعاد، فى قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف / ٦٩] وذلك لأن قوم نوح لم يكن لهم اسم علم خاص بهم فكان تعريفهم يكون بالإضافة إلى نبيهم نوح عليه السلام وأما قوم هود فلهم اسم علم خاص بهم ، فكان الأبلغ هو ذكرهم باسم العلم ، ولذلك جاء فى القرآن : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء/ ١٠٥] ، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر/ ٩] وأما غيرهم فيذكرون بالاسم العلم لأنه الأبلغ ٠



ولذلك قال الرازى " لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه ، فإنك إذا قلت بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة، فكذلك إذا قلت رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد ، فعاد اسم علم للقوم.

ويورد اعتراضا بقوله " لا يقال قوم هود أعرف لوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى وصف عادا بقوم هود حيث قال ـ ألا بعدا لعاد قوم هود ـ ولا يوصف الأظهر بالأخفى والأخص بالأعم.

ثانيهما : أن قوم هود واحد ، وعاد ، قيل إنه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى ـ عادا الأولى ـ ويدفع هذا الاعتراض بقوله "أما قوله تعالى ﴿لعاد قوم هود﴾ فليس ذلك صفة وإنما هو بدل ويجوز فى البدل أن يكون دون المبدل فى المعرفة ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة .

وأما عادا الأولى فقد قدمنا أن ذلك لبيان تقدمهم أى عادا الذين تقدموا ، وليس ذلك للتمييز والتعريف"[1].

وتأتى الجملة محل الامتنان الثانى ، وبوأكم فى الأرض ـ وهى معطوفة على ـ جعلكم ـ للتوسط بين الكمالين ، وداخلة معها فى حكم

(١) التفسير الكبير ٢٩ / ٤٣ .



ــ إذ ــ أى اذكروا وقت أن جعلكم خلفاء من بعد عـــاد ، ووقــت أن بوأكم الأرض .

ومعنى بوأكم فى الأرض أنزلكم بها وأسكنكم إياهـــا والمبـــاءة المنزل فى الأرض[1] .

والمادة فى أصلها تدور حول التسوية والسكن والراحـــة يقــول الراغب : أصل البواءة مساواة الأجزاء فى المكان خلاف النبوة الــذى هو منافاة الأجزاء ، يقال مكان بواء إذا لم يكن نابيا بنازله ، وبوأت له مكانا سويته ..

ويقال ــ تبوأ فلان كناية عن التزوج . والباءه كناية عن الجماع، ومنه قولهم ــ حياك الله وبياك ــ أى بوأك منزلا[2].

إذن هذه المادة من المواد الثرية التى يمكن أن ترفدنا بكثير مـــن الدلالات فى هذا السياق ، فهى تدل على عدة أمور :

١ – أن الله أنزلهم فى هذا المكان السهل الذى لا ينبو بساكنه.

٢ – أنهم مهما جدوا فى سعيهم . بعيدا عن هذه الديار فإنهم ســرعان ما يرجعون إليها ، ولا يرضون بها بدلا ولا يبغون عنها حولا.

---

(١) البحر المحيط ٤ / ٣٢٩ .
(٢) مفردات الراغب ــ بواء ــ .

٣ – أنها تدل على تمكنهم وتصرفهم الكامل فى هذا المكان، ولذلك عبر عنها فى سياق الحديث عن الحرب فى قوله تعالى : ﴿تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ كما عبر بها عن التصرف المطلق فى شأن يوسف عليه السلام بقوله تعالى : ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ ٠

٤ – أنها تفوح بريح التكثير فى الذرية ، حيث دلت فى بعض تصاريفها على التزوج وهذا المعنى مناسب مناسبة دقيقة لمجيئه بعد الحديث عن كونهم خلفاء ٠

٥ – أن هذا التبوء كان صالحا لهم بكل المعايير ، لأن الله هو الذى يمتن عليهم به ، والكريم إذا امتن بشئ فإنه يكون قد وصل إلى الغاية المرضية التى ليس بعدها شئ٠

وقد أسند إليه هنا ــ بوأكم ــ بخلاف قوله ــ تبوئ المؤمنين ــ يتبوأ ــ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ــ ٠

فإنه أسند إلى البشر ، فهو على قدر إمكانياتهم ٠

فكل هذه المعانى مضمنة فى تلك المادة ، وكان وضعها دقيقا فى هذا السياق ، ولا يغنى غيرها مكانها من نحو ــ أنزلكم أو أسكنكم ــ ويأتى التعبير بعد ذلك عن مكان التبوء ، وهو قوله ــ فى الأرض ــ وحرف الوعاء ــ فى ــ يدل كذلك على التمكن والتصرف المطلق

والاقتدار فى الأرض ، وتنضم هذه الدلالة إلى دلالات التبوء السابقة، فتتعانق دلالة الفعل المسند إلى الله عزوجل مع دلالة الحرف ـــ يكونان هالة من المعانى حول كيفية التبوء فى الأرض ، يقع الإنسان بشأنها فى إبهام أو إجمال ، تتشوق معه النفس إلى بيانه وتفصيله فتأتى الجمل بعد ذلك تفسر وتبين على طريق شبه كمال الاتصال.

وكلمة ـــ الأرض ـــ إما أن يكون المقصود منها الأرض المعهودة التى يسكنونها ، وهى الحجر ، فالألف واللام للعهد ، وإما أن تكون الألف واللام للجنس ويكون المقصود أنه تعالى أنزلهم هذا الجانب من جوانب الأرض(١) .

وتأتى الجمل بعد ذلك تشرح كيفية التبوء فى الأرض وتفصل ذلك فى جملتين :

الأولى : تتخذون من سهولها قصورا .

الثانية : وتنحتون من الجبال بيوتا .

وقد دل هذا التفصيل على أن أرضهم احتوت على السهل والجبل، وكانوا من الاقتدار بحيث عمروا النوعين بكل ما يليق منهما فاتخذوا القصور فى السهول، ونحتوا البيوت فى الجبال .

وقد خالفت الجملتان فى الفعلين نظرا إلى طبيعة الأرض فالاتخاذ يناسب القصور فى السهول والنحت يناسب البيوت فى الجبال.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٨ / ٢٢٠ .



والأخذ حوز الشئ وتحصيله ، ومنـه الإخـاذة والإخـاذ أرض يأخذها الرجل لنفسه ، كما يقول الراغب.

وهذا المعنى هو المناسب لاتخـاذ القصـور ، ومعنـى اتخـاذ القصور في السهول إما أن يكون المقصود أنها تبنى في السهل ، وإمـا أن يكون المقصود أن مادتها تؤخذ من السهل حيث تبنى مـن اللبـن والآجر وما إلى ذلك .

فـ ـ من ـ على المعنى الأول بمعنى ـ في ـ وعلى المعنـى الثاني تبعيضية .

واما النحت فخاص بما صلب من الخشب والحجارة، فكان فعلـه مناسبا لاتخاذ البيوت في الجبال .

وهذا التنويع في المساكن بين قصر في السهل وبيت في الجبـل، يدل على أن القوم كانوا مترفين ، وأنهم كانوا يسكنون القصـور فـي الصيف، ويسكنون البيوت الجبلية في الشتاء ، وهذا من تكامل اللـذات الحسية في معائشهم .

كما خالفت بين المفعولين ـ القصور والبيوت ، لأن القصـر ، الدار التي قصرت على بقعة من الأرض مخصوصة بخـلاف بيـوت العمود ، وسمي بذلك لقصور الناس عن ارتقائه أو لقصور عامتهم عن بنائه ، كما يذكر أبو حيان[1].

---

(١) البحر المحيط ٤ / ٣١٥ .

فالقصر يلاحظ فيه خصوصية المكان وهى هنا السهل وهو ما لان من الأرض وانخفض والارتفاع الملحوظ الذى يعجز الإنسان عن ارتقائه ، وكذلك التميز عن الأبنية المناظرة .

وأما البيت فأصله مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال بات . أقام بالليل كما يقال ظل بالنهار .. [١].

فالبيت يلاحظ فيه البيات بالليل والاكتنان بداخله دون نظر إلى مظهره الخارجي، فقد يكون من حجر ومدر وصوف ووبر .

وهذه المعانى الملحوظة فى القصر والبيت هى المرادة من المخالفة بين مفعولى الاتخاذ والنحت ، ومن هنا صلح القصر لأن يكون مصيفا، وصلح البيت لأن يكون مشتى .

كل ذلك سيق فى ظلال ـ إذ ـ المسبوقة بالفعل ـ واذكروا ـ وحيث وقعت كذلك " فالمراد به الأمر بالنظر إلى ما اشتمل عليه ذلك الزمان ، لغرابة ما وقع فيه فهو جدير بأن ينظر فيه وقد أشار إلى هذا الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت ...﴾ [٢].

وتأتى بعد ذلك جملة التذكير بالنعم العامة ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ـ بعد أن لفتهم الحق سبحانه وتعالى على

---

(١) مفردات الراغب ـ بيت .
(٢) البرهان ٤ / ٢٠٨ .

لسان صالح عليه السلام إلى النعم الخاصة فى ذواتهم وفى أرضهم وفى مساكنهم ــ لفتهم إلى النعم العامة فى كل ما يدور حولهم ، وهذا ارتقاء فى التذكر يعول على عقولهم فى معرفة نعم الله تلك المعرفة التى تسوقهم إلى الشكر والطاعة وتباعد بينهم وبين الفساد بكل ألوانه.

وكأنه يأخذ بأيديهم من النعم الواضحة والمفصلة إلى النعم العامة المجملة ، فإذا لم ينتفعوا بالواضح الذى يعيشون فيه فإنهم لن ينتفعوا بالمجمل الذى يوجهون إليه ، ولذلك كانت ــ الفاء ــ فى قوله ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ ــ فاء الفصيحة أى إن ذكرتم وقت جعلكم الله خلفاء من بعد عاد . وبوأكم فى الأرض، تتخذون القصور فى السهول والبيوت فى الجبال ، فاذكروا نعمه الكثيرة التى لا تحصى عددا ولكن يكفى أن تقلبوا فيها عيونكم نظرا.

والآلاء ــ مثل أعناب وآناء ــ مفردها ــ إلى ــ مثل معى أو ــ ألى مثل ــ قفا ــ .

وإضافتها إلى الله عزوجل تدل على التعظيم والإيجاد والكثرة والتنوع الذى لا يحصى ــ كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل/ ١٨].

وكرر الأمر بالتذكر ــ إشارة إلى إيجابه مكررا ليكون ذكرا عقب ذكر ــ لا يملون منه ، ولا ينقطعون عنه بل يملأ عليهم حياتهم لأنه طريقهم إلى الشكر والطاعة واستدامة نعم الله عليهم .



وتكرار الأمر بالذكر في قوله ــ واذكروا ...... و ــ فـاذكروا ليس من باب التوكيد اللفظي وإنما هو لتأكيد المأمور به في جملتي الإنشاء ، وهو أبلغ من التأكيد ــ كما يذكر السيوطي ــ وهو من محاسن الفصاحة خلافا لمن غلط ، وله فوائد منها التقرير وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر .. [١].

ويقول الزركشي : " وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة له ، وليس كذلك بل هو من محاسنها. لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذ أبهمت بشئ إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه ، كررته توكيدا وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء ، وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة ، وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد ، لأن الإنسان مجبول من الطباع المختلفة ، وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع"[٢].

ثم شفع هذا الأمر بالنهي على طريق الخطاب القرآني في المزاوجة بينهما ــ فقال ــ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ــ .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٦٦ .
(٢) البرهان في علوم القرآن ٤ / ٩ .



وجملة النهي هذه أشارت إلى عدة معان :

١ – النهي عن الفساد المدرك بالحس ٠

٢ – النهي عن الفساد المعنوي ٠

٣ – أن من عثى كأنه ترك النور إلى الظلام لأن من متصرفات المادة ـــ الأعثى لون إلى السواد ٠

٤ – أن من عثى كأنه اتصف بالحمق ولذلك قيل للأحمق الثقيل أعثى[1].

فهذا النهي يباعد بينهم وبين الفساد بكل أشكاله في ذواتهم وفي كل ما يحيط بهم ، ولا فساد في الأرض أكثر من ترك الطاعة إلى المعصية ومن ترك الإيمان إلى الكفران ، ومن ترك امتثال الأوامر والنواهي إلى طاعة الهوى والشيطان ٠

وقد أكد هذا النهي ـــ ولا تعثو ـــ بقوله ـــ مفسدين ـــ لأن العثي ، الإفساد ، ومفسدين حال مؤكدة ٠

والجدير بالإفساد هو النهي ، والجدير بذكر آلاء الله على خلقه هو الأمر ، ولذلك كان الأمر والنهي مناسبين جد المناسبة لما دخلا عليه من الذكر والإفساد ٠

---

(١) مفردات الراغب ـــ عثى ـــ ٠

وعطفت جملة النهى على الأمر للتوسط بين الكمالين والمناسبة واضحة بين الآمر والناهى فهو صالح عليه السلام .

والمناسبة واضحة بين المأمورين والمنهيين ، وهم القوم .

والمناسبة بين الذكر وبين العثى هى التضاد أو شبهه ونلحظ التناسق الواضح فى الأفعال المعطوفة كما يلى :

١ - عطف ـ بوأكم على جعلكم ـ وهما ماضيان .

٢ - عطف ـ تنحتون على تتخذون ـ وهما مضارعان .

٣ - عطف ـ ولا تعثوا على فاذكروا وهما وإن .

كانا من باب المضارع والأمر ـ لكنهما ـ يجتمعان فى الإنشائية .

جملة الحوار بين المستكبرين والمؤمنين :

بعد هذه الأوامر والنواهى التى تعتبر لب التكاليف الشرعية ـ يأتى موقف الرافضين الذين تزعجهم هذه الأوامر والنواهى التى من شأنها أن تحطم سيادتهم وتحجم كبرهم ، فيقول الله تعالى : ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾ .

كان من الطبعى بعد هذا التوجيه والإنذار من صالح لقومـــــه أن يكون فيهم من قبل وآمن . ولعل مجئ هذه الآية مفصولة عن ســـابقتها تشير إلى ذلك، وكأن سؤالا قد ثار فى الذهن عن موقف النـــاس مـــن دعوته عليه السلام ، فجاءت الآية تقرر هذا الموقف بطريـــق حكايـــة المحاورات فى القرآن الكريم ، قال الملأ ...

كما قال عبدالقاهر ، واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفـــظ ـــ قال ـــ مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه والله أعلم .

أعنى مثل قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ...﴾ .

جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان فـــى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم ، دخل قوم على فـــلان فقالوا كذا ـــ أن يقولوا فما قال هو؟ ويقول المجيب، قال كذا، أخـــرج الكلام ذلك المخرج ، لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه وسلك باللفـــظ معهم المسلك الذى يسلكونه"[١].

وكان المفروض أن تكون المحاورة بين صـــالح عليـــه الســـلام وهؤلاء المستكبرين ، ولكن عدلوا عنه إلى المؤمنين به لأمرين :

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٠ .

الأول : أنهم لم يكونوا من الغلظة والجفاء كالأقوام السابقين ــ قوم نوح وعاد ــ الذين أغلظوا القول في الرد على أنبيائهم ، فقالوا مرة ــ إنا لنراك في ضلال مبين ــ ومرة ــ إنا لنراك في سفاهة ــ ولكنهم قالوا له ــ يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. فهذا القول وإن كان يحمل معنى الرفض لكنه مبنى على اللين والتعقل.

الثاني : أن هدفهم ينصب على الدعوة والإيمان بها ، وهم يعلمون أن صالحا مرسل إليهم وبخاصة بعد دعوته لهم وبيان حجته عليهم ، وتحذيرهم من مغبة الإفساد في الأرض، ولا يمكن إثناؤه عن دعوته ، ولذلك التفتوا إلى من آمن به وهم المستضعفون ، رجاء تخويفهم وذرع بذور الشك في قلوبهم ومن ثم يكون ارتدادهم عن دينهم.

وفي سبيل تحقيق غرضهم استثمروا وجاهتهم في مجادلة هؤلاء الضعفاء ، ولذلك عبرت عنهم الآية تعبيرا يتناول الشكل والمضمون.

أما الشكل ففي قوله ــ الملأ ــ أي الأشراف الذين يملأون القلوب بجلالهم والأبصار بجمالهم والمجالس بأتباعهم .

وأما المضمون فهو ما استقر في قلوبهم من الإباء والاستكبار وهو مفهوم جملة الصلة ــ الذين استكبرو ــ وهي وصف ــ للملأ ــ والوصف باسم الموصول يدل على أمور :



١ - يدل على أن هذا الوصف من الأمور المعهودة عند السامعين وأنه أمر مفروغ من تحققه والعلم به.

٢ - أن هذا الوصف قد يكون للتخصيص لأن من أشرافهم من آمن مثل جندع بن عمرو .

٣ - أن هذا الوصف قد يكون للذم لأنهم طلبوا أن يكونوا كبراء وتدل صيغة ـ استكبر أى استفعل ـ على ذلك(١).

٤ - أن هذا الوصف يدل على علة كفرهم إذ أن كفرهم كان بسبب الاستكبار .

ومعلوم أن الموصول بعد المعرفة يكون تابعا له على سبيل النعت وليس على البدل إلا إذا تعذر كما فى قوله تعالى : ﴿ويل لكل همزة لمزة ۝ الذى جمع مالا وعدده﴾ لأن النكرة لا توصف بالمعرفة"(٢).

ويقول الراغب " والكبر والتكبر والاستكبار ، تتقارب فالكبر الحالة التى يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره وأعظم التكبر ، التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة.

---

(١) ينظر البحر المحيط ٤ / ٣٢٩ .
(٢) مغنى اللبيب ٧٣٩ .



والاستكبار يقال على وجهين :

أحدهما : أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا وذلك متى كان على ما يجب وفى المكان الذى يجب وفى الوقت الذى يجب، فمحمود .

والثانى : أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم . وعلى هذا ما ورد فى القرآن من قوله ــ أبى واستكبر ــ وأصروا واستكبروا استكبارا[1].

وما وصف به قوم صالح عليه السلام هو من هذا الجنس المذموم .

ويأتى الطرف الآخر فى الحوار وهم المستضعفون ــ للذين استضعفوا ــ أى قالوا لهؤلاء لأنهم موضع اهتمامهم ، وهم أتباع الرسل أذلهم المتكبرون .

والتعبير عنهم باسم الموصول ، يدل على أن ضعفهم معلوم لكل أحد ، وبناء ــ استضعوا ــ للمفعول تؤكد ذلك فهم مستضعفون من كل أحد .

ومقابلتهم بالذين استكبروا تدل على أن هؤلاء المتكبرين استضعفوهم لقوتهم البدنية والمالية، ولكن الإيمان هو الذى عدل

---

(١) مفردات الراغب ــ كبر ــ .

الميزان، وجعلهم يقفون فى مواجهة المتكبرين ولذلك أتبعوا بقوله — لمن آمن منهم — على طريق البدل من اسم الموصول بإعادة العامل.

" والبدل يقصد به الإيضاح بعد الإبهام ، وفائدته البيان والتأكيد، أما الأول فواضح أنك إذا قلت رأيت زيدا أخاك ، بينت أنك تريد بزيد الأخ لا غير ، وأما التوكيد فلأنه على نية تكرار العامل فكأنه من جملتين ، ولأنه دل على ما دل عليه الأول ، إما بالمطابقة فى بدل الكل وإما بالتضمين فى بدل البعض أو بالالتزام فى بدل الاشتمال"[١].

فقوله — لمن آمن منهم — توضح وتؤكد وتقرر حقيقة المستضعفين، وهى صالحة لبدل الكل ولبدل البعض.

يقول أبو حيان "والضمير فى منهم إن عاد على المستضعفين كان بدل بعض من كل ويكون الذين استضعفوا قسمين ، مؤمنين وكافرين، وإن عاد على قومه كان بدل كل من كل وكان الاستضعاف مقصورا على المؤمنين ، وكان الذين استضعفوا قسما واحدا ومن آمن مفسر للمستضعفين من قومه واللام فى للذين للتبليغ"[٢].

ولا شك أن مقابلة المستكبرين بالمستضعفين ، وأن إعلان الكفر من المستكبرين ، وإعلان الإيمان من المستضعفين ، يجعل الضعفاء قسما مستقلا موصوفا بالإيمان ، والمستكبرين قسما مستقلا موصوفا

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٢ / ٧٠ .
(٢) البحر المحيط ٤ / ٣٢٩ .

بالكفر وهذا أولى من جعل الضعفاء، منهم مؤمنون ومنهم كافرون وهذا يرجح كون البدل كل من كل ٠

ومن هنا تتعادل الصفات بين الكافرين والمؤمنين فالكافرون ، وصفوا بالاستكبار وأنهم من قومه والمؤمنون ، وصفوا بالاستضعاف وأنهم من قومه ٠

وترجع خيوط هذه المقابلة بين المستكبرين والمؤمنين إلى ما هو مبثوث في السورة من حديث عن المستكبرين والمؤمنين ، فإبليس امتنع عن السجود بسبب كبره وقال الله له ـ ﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ / ١٣ وقال ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ٣٥ ، ٣٦ ٠

قال: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ /٤٠ ٠

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ /٤٢ ٠

فكان ما ذكر في هذا المشهد من المستكبرين والمؤمنين هو خيط ممتد في السورة وفي قصص الآخرين ، وكذلك ما ترتب على موقف كل من الكفر والإيمان من الجزاء٠

كان هذا من تحرير الصفات الذاتية لكل من الفريقين والتى كانت دافعة إلى الحوار والجدل بينهما وتأتى جملة مقول القول على لسان الكافرين ـ أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ـ بهذا الاستفهام الدال على الإنكار والسخرية والاستخفاف ، وهذا يدل على أن موقفهم هو الإنكار والرفض دون الاستعلام والتثبت لأن صالحا عليه السلام قد جاءهم بدليل صدق نبوته ـ قد جاءتكم بينة من ربكم .. وهم يعلمون ذلك ولكنهم أرادوا أن ينسحب إنكارهم على المؤمنين فبدأوهم بهذا الإنكار .

وشفعوا هذا الإنكار بما يدل على الغلظة والجفاء فذكروا ـ صالحا ـ باسمه ـ وقالوا ـ مرسل من ربه ـ دون أن يقولوا ـ من ربكم أو ربنا ـ وهذا نسيان أو تناسي لما أمرهم بتذكره سلفا ـ من قوله ـ قد جاءتكم بينة من ربكم ـ واذكروا إذ جعلكم خلفاء ـ فاذكروا آلاء الله ..

وكان المؤمنون من الفطنة بمكان فقد تجاوزا إنكارهم وما أنكروه من كون صالح مرسلا من ربه ، وبنوا جوابهم على الإيمان بما جاء به، وكأن حديث إرساله من ربه أمر مفروغ منه عندهم ولا جدال فيه، ولذلك قالوا ـ ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ .

قال الألوسى " فإن الجواب الموافق لسؤالهم . نعم . أو نعلم أنه مرسل منه تعالى ، ومن هنا قال غير واحد ، إنه من الأسلوب الحكيم

، فكأنهم قالوا ، العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون ٠

واختار في الانتصاف أن ذلك ليس إخبارا عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب فإنه أبلغ من ذلك فكأنهم قالوا، العلم بإرساله وبوجوب الإيمان به لا نسأل عنه وإنما الشأن في امتثال الواجب والعمل به ونحن قد امتثلنا"(١).

ومعلوم أن أسلوب الحكيم فيه تنبيه المخاطب أو السائل إلى الأهم له والأولى له باتباعه ، وكأن المؤمنين بهذا الجواب يوجهون الكافرين إلى نبذ دائرة الشك والإنكار إلى وجوب الإيمان ، والبعد عن الجدال في الأمر الواضح وتجاوزه إلى الامتثال لما يدعو إليه من وجوب الإيمان به ٠

وهم بذلك يلقنون الكافرين درسا في أنهم يقابلون سخريتهم بهذا الثبات واليقين الذي لا يلين ، على حد ما قال السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون ، لفرعون عندما هددهم بالتقطيع والتصليب، ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه / ٧٢]٠

---

(١) روح المعاني ٨ / ١٦٤ ٠

وقد تعلم الكافرون من المؤمنين هذا الرد، ولذلك جاء قولهم : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ على خلاف مقتضى الظاهر فلم يقولوا ﴿إنا بالذى أرسل به كافرون﴾ وإنما قالوا ما قالوه "ردا لما جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلما كأنهم قالوا ليس ما جعلتموه معلوما مسلما من ذلك القبيل [(١)].

وقال ابن المنير " ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا . إنما بما أرسل به كافرون ولكن أبوا ذلك حذرا مما في ظاهره من إثبات لرسالته وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم كما قال فرعون ﴿إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾ فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضوع التهكم ـ فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين ـ المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن شعار الإيمان بالرسالة احتياطا للكفر وغلوا في الإصرار"[(٢)].

وتأمل التوكيد الذى شاع في جمل المحاورة بإن واسمية الجمل:

١ – أن صالحا مرسل من ربه ؟
٢ – إنا بما أرسل به مؤمنون .
٣ – إنا بالذى آمنتم به كافرون .

---

(١) ينظر المرجع السابق .
(٢) ينظر الكشاف والإنصاف عليه ٢/ ٩١ .

والتأكيد فى الجملة الأولى جاء فى ظلال الاستفهام، قصد به توهين هذه القضية اليقينية فى نفوس المؤمنين ٠

والتأكيد فى الجملة الثانية دل على الثبات والاستمرار على الإيمان والتأكيد فى الجملة الثالثة دل على الثبات والاستمرار على الكفر ٠

كما شاع فيها التعبير باسم الموصول ، وهو يدل على أن المعنى فى ظلاله من المسلمات التى لا جدال فيها ، كما فى هذه الجمل:

١ – قال الملأ الذين استكبروا ٠

٢ – للذين استضعفوا ٠

٣ – لمن آمن منهم ٠

٤ – إنا بما أرسل به مؤمنون٠

٥ – الذين استكبروا ٠

٦ – إنا بالذى آمنتم به كافرون ٠

وقد ربطت الجمل الداخلية فى المحاورة عن طريق الحروف الظاهرة مثل ــ للذين ــ لمن ــ وطريق البدل أو كمال الاتصال ، وشبه كمال الاتصال، وهكذا تتابعت الجمل فى ترتيب وإحكام وتعانق لا مثيل له فى لغة البشر ٠

جملة عقر الناقة والتهكم بصالح عليه السلام :

قد انتهى الحوار بين المؤمنين والمكذبين بإعلان المكذبين ﴿إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾ ٠

ونتوقف عند مادة ــ الكفر ــ لنكشف عن العلاقة بين هذه الكلمة وبين جملة عقر الناقة التالية لها ·

يقول الراغب ــ الكفر فى اللغة ستر الشئ . ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص ، والزراع لستره البذور فى الأرض·

وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها ، قال تعالى : ﴿فلا كفران لسعيه﴾ وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة·

والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا ، والكفر فى الدين أكثر والكفور فيهما جميعا[1] ·

اتضح أن مادة الكفر تدور حول الستر والتغطية ، وتمتد لتشمل ستر النعمة فلا يؤدى شكرها ، وستر العقل فيجحد وحدانية الله ونبوة الرسل، وبذلك تقترب كلمة ــ الكفر ــ التى جاءت على لسان المستكبرين لتعلن عن الحقيقة التى استقرت فى قلوبهم ، فهم قد كفروا بنعم الله عليهم ــ النعم العامة والخاصة فى الآيات السابقة، وكفروا بما جاءهم به صالح عليه السلام من ربه ، أى كفروا بالوحدانية ونبوة صالح عليه السلام ومن هنا خرجوا على الأومر والنواهى السابقة ، وكان خروجهم يتمثل فى الآتى :

---

(١) مفردات الراغب ·

الأول:هذه المحاورة التى دارت بينهم وبين المستطعفين وأعلنوا فيها ما استكن فى قلوبهم من الكفر ٠

الثانى : التجاوز من حد القول إلى الفعل ، ويتمثل ذلك فـــى ـــ عقر الناقة ، وبلوغهم فى الاستكبار مبلغ التهكم بصالح عليه السلام٠

الثالث : هذا الإجماع منهم فى الحوار ، يناظره إجماع آخر فى عقر الناقة ، فهناك ـــ الذين استكبروا ـــ وأعيد مرة ثانية ـــ وهنـــا ـــ فعقروا الناقة ـــ وعتوا ـــ وقالوا ـــ واو الجماعة فى كل هذه الأفعـــال تطبعهم بطابع واحد ٠

فيتوحدون فى المبدأ ، وفى الحركة وفى الفعل ، وفى الرضا بكل ما يأتون ويذرون ، وهذا ما حدث فى عقر الناقة ، عقرها ـــ قدار بـــن سالف ـــ أشقى الأولين ـــ كما قال سيد المرسلين ﷺ وهو واحد ٠

ولكن أسند العقر إلى الجماعة ؛ لأنه فعل برضـــاهم وتواطـــؤوا معه على الفعل وقد عبر عن هـــذا الرضـــا بـــالنداء، وعـــن العـــاقر بالصاحب وأضيف إليهم فى قوله تعـــالى : ﴿فنادوا صاحبهم.فتعاطى فعقر﴾ ٠

فهذا النداء والإضافة يشيران إلى أن عقر الناقة كان باتفاق مـــن الجميع، وهذا هو الذى سوغ إسناد العقر إلى الكل . وإن كان الفـــاعل واحدا فهو مجاز من باب إسناد ما للبعض للكل ٠



وقد صرحت آية القمر بالحقيقة ، بقولها ــ فتعاطى فعقر ــ وقد دلت الفاءات ــ فنادوا ــ فتعاطى ــ فعقر ــ على تواصل هذه الأحداث وأزمانها ــ وكأنهما احتشدوا لإنفاذ هذا الأمر دون تراخ أو حدوث فاصل زمنى بين هذه الأحداث . وهذا يدل على قوة شكيمتهم فى العناد والطغيان .

وصدرت جملة ــ فعقروا الناقة ــ بفاء السببية الدالة على تضافر الأسباب السابقة فى عقر الناقة ، ولم تضف الناقة إلى لفظ الجلالة ــ الله ــ كما أضيفت سابقا ناقة الله ــ إشارة تعريتهم لها عن كونها لله . وأن هذه الإضافة لم تجد مكانا لها فى قلوبهم بل سرعان ما سقطت من قلوبهم وكان سقوطها فى اللفظ دليلا على سقوطها فى اعتباراتهم . وشاء الله عزوجل أن يكون هذا الإسقاط مقدمة لسقوطهم فى الهلاك . تحقيقا لقول صالح عليه السلام ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .

وأحيانا يسقط لفظ ــ الناقة ــ ويدل عليها بالضمير ، كما فى قوله تعالى ــ فعقروها ــ هود ــ ٦٥ ــ والشمس ١٤ .

وأحيانا تسقط كلية كما فى قوله تعالى : ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ ٢٩ القمر .

فهذه الصياغات تعبر عن أحوالهم تجاه ناقة الله ــ فقد أسقطوا من اعتبارهم أنها ناقة الله .



وعبر عنها بالضمير ، والتعبير بالضمير ليس فى قوة الاسم الظاهر ، وأسقطت كلية إشارة إلى تكذيبهم •

وكأن هذه أحوال لإذهاب الكفر لنور الفطرة من القلوب شيئا فشيئا حتى يمحوها ويستولى عليها الرين •

وأما عن اختيار ــ العقر ــ فإن مادته تدور حول القطع والأصل . يقال . عقرته أصبت عقره أى أصله ، وعقرت النخل قطعته من أصله . وعقرت البعير نحرته[1].

وقال الأزهرى : أصل العقر عند العرب قطع عرقوب البعير ثم استعمل فى النحر لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره[2].

وسواء أطلق العقر على النحر أو على ما يكون سببا فى النحر فإنه يدل على القطع الذى يتناول الأصل ، فهم قد قطعوا أصل دليل صدق النبوة . وهو الناقة ــ وكفى بذلك فسادا ويقول البقاعى "وأكثر ما يستعمل العقر فى الفساد وأما النحر فيستعمل غالبا فى الانتفاع بالمنحور لحما وجلدا وغيرهما ، فلعل التعبير به دون النحر إشارة إلى أنهم لم يقصدوا بنحرها إلا إهلاكها"[3].

---

(١) مفردات الراغب •
(٢) روح المعانى ٨ / ١٦٥ •
(٣) نظم الدرر ٧ / ٤٤٨ •

وكان هذا الإجماع الفعلي منهم على عقر الناقة مظهرا من مظاهر الخروج على الأوامر والنواهي التي سيقت لهم من قبل ، ولم يبق لهم بعده إلا العتو . وهو النبو عن الطاعة ، فقد وصلوا إلى حالة من الغلظة والتكبر يستحيل معها العلاج ، وفيه معنى التولي والإعراض وامتد الخيط إلى التهكم بصالح عليه السلام — طالبين منه على سبيل التعجيز والاستخفاف مبالغة في التكذيب ﴿أن يأتيهم بالعذاب الأليم﴾ .

وذلك معنى قوله تعالى : ﴿وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ .

فهذا الخروج عن الامتثال يتمثل في — العتو — وفي قولهم هذا — وهو يدل على تكذيبهم له والتهكم به والشك في رسالته :

١ – فالتكذيب من هذا الأمر — ائتنا — على سبيل التعجيز والإفحام وذلك من منطلق زعمهم الفاسد في عدم قدرته على ذلك وما دروا أنه عندما قال ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ إنما كان يعول على قدرة من أرسله وهو الله الذي على كل شئ قدير .

٢ – والتهكم في قوله — بما تعدنا — وهو العذاب . ولم يقولوا بما توعدنا به لأن الوعيد نص في الشر خاصة وأما الوعد فيطلق على

الخير والشر . فلإيمانهم بعدم قدرته على الإتيان بالعذاب نزلوا وعيده منزلة الوعد ، من باب استعمال اللفظ فى جزء معناه تهكما واستخفافا .

٣ – والشك فى كونه من المرسلين فى قولهم ﴿إن كنت من المرسلين﴾ بدخول أداة الشك — إن — على — كان — وهم لم يشكوا فيما مضى . وإنما شكهم موصول إلى المستقبل كما هو مفاد — إن — عند دخولها على — كان — [1].

جملة فأخذتهم الرجفة :

لم يكن بد بعد بلوغهم مبلغا عظيما فى العتو والتهكم من تصديق صالح عليه السلام فى وعيده لهم ، فيأخذكم عذاب أليم .

فتأتى الآيات تبين هذا العذاب الأليم ، يقول الله تعالى : ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾ .

ونلاحظ — هذه الفاءات — الدالة على التسبب والتعقيب والتعقيب بحسبه كما يقولون .

١ – فعقروا الناقة .
٢ – فأخذتهم الرجفة .
٣ – فأصبحوا فى دارهم جاثمين .

---

(١) ينظر البرهان ٤ / ١٢٧ .

٤ – فتولى عنهم •

كل هذه الأحداث . رتب بعضها على بعض . والأخذ هنا فيـــــه معنى القهر الدال على صغارهم وحقارتهم أمام هذه الرجفة . والرجف الاضطراب الشديد ، وهو إما فى قلوبهم تأخذها حتى تنقطع ، وإما فى الأرض من تحتهم ولا مانع من إرادة المعنيين •

والفعل ــ فأصبحوا ــ دال على زمن هذه الرجفة وهو الصبــاح وهو وقت الأمن والراحة . فإذا داهمهم العذاب فى هذا الوقت كان أشد وأنكى •

و ــ فى دارهم ــ دال على المكان وهى توحـــد مـــع الرجفـــة وتجمع مع الصيحة "للإشارة إلـــى عظـــم الزلزلـــة والصيحـــة فـــى الموضعين، وذلك لأن الزلزلة إذا كانت فى شئ واحد كـــانت أمكـــن، فتكون فى المقصود من النكال أعظم . والصيحة من شأنها الانتشـــــار فإذا عمت الأماكن المتنائية والديار المتباعدة فأهلكت أهلـــها ومزقـــت جماعتها ، وفرقت شملها كانت من القوة المفرطة والشدة البالغة بحيـث تنزعج من تأمل وصفها النفوس وتجب له القلوب •

وحاصله أنه حيث عبر بالرجفة وحد الدار إشـــارة إلـــى شـــدة العذاب بعظم الاضطراب ، وحيث عبر بالصيحة جمع إيماء إلى عموم الموت بشدة الصوت ، ولا مخالفة لأن عذابهم كان بكل منهما •



وخصت الأعراف بما ذكر فيها.لأن مقصودها إنذار المعرضين. والرجفة أعظم قرعا لعدم الإلف لها"(١).

وتتمخض هذه الأحداث عن النتيجة وهى ــ جاثمين ــ وسواء كان خبرا أو حالا . فإنه يدل على موتهم شر ميتة لأن الجثوم فى الأصل البروك على الركب . أو اللصوق بالأرض على الصدر مع قبض الساقين كما يرقد الأرنب والطير(٢).

أى صاروا موتى لا حراك لهم ، وهم على هذه الهيئة التى تشبه هيئة الحيوان ، وكفى بذلك مذمة لهم فى الممات .

وهكذا تسلسلت أحداث الجملة من أخذهم بالرجفة ، ثم بيان زمانها ومكانها وبيان هيئة من أخذتهم الرجفة .

الجملة الدالة على مفارقة صالح لهم :

وتأتى الجملة الأخيرة فى هذا المشهد وهى فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين.

وعلى حسب ظاهر العطف على الجملة السابقة ، يكون هذا التولى بعد هلاكهم ، والتولى يعنى الإعراض عنهم وفراقهم غضبا وسخطا عليهم .

---

(١) نظم الدرر ٧ / ٤٥٠ .
(٢) ينظر روح المعانى ٨ / ١٦٥ والبحر المحيط ٤ / ٣٣١ .



ويكون قوله ـــ يا قوم .. إلى آخره قاله تحسرا وتفجعـا عليـهم وأن ما نالهم لم يكن عن تقصير فى التبليغ أو النصيحة، فهو يقسم بأنـه بلغ ـــ لقد أبلغتكم ـــ والبلوغ الوصول والانتهاء أى أنه أوصل وأنـهى إليهم رسالة ربه . وأضاف الرسالة إلى ربه ، لما تشعر هذه الإضافـة من لزوم الطاعة ووجوب الامتثال . ولم يقتصر علـى أمـر التبليـغ للرسالة . ولكن شفع هذا التبليغ بالنصيحة ، وهى جانب الترغيب فـى الأوامر والتحذير من المعاصى. وأنه كان يتحرى ما فيـه مصلحتـهم بناء على أن النصح تحرى ذلك قولا أو فعلا، وقيل هو تعريف وجـه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه.

وأصل النصح فى اللغة الخلوص يقـال : نصحـت العسـل إذا خلصته من الشمع. ويقال: نصح الرجل ثوبه إذا خاطه شـبهوا فعـل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بفعل الخياط فيما يسد مـن خلل الثوب ، وقد يستعمل لخلوص المحبة للمنصوح له والتحرى فيمـا يستدعيه حقه ، ولذلك قيل ـــ الدين النصيحة.

فالنصح أو النصيحة . تدور حول الخلوص والإحكام(١) فصـالح عليه السلام قد وفى بالجانبين . تبليغ الرسالة والنصيحة لقومه، وتـأمل تعدى فعل النصيحة باللام ودلالة ذلك . وهو يتعدى بنفسـه ويتعـدى باللام "ويكثر أن يعدى إلى المفعول بلام زائـدة دالـة علـى معنـى الاختصاص للدلالة على أن الناصح أراد من نصحه ذات المنصوح. لا

---

(١) ينظر روح المعانى ٨ / ١٥٢ .

جلب خير لنفس الناصح، ففى ذلك مبالغـــة ودلالـــة علـــى إمحـــاض النصيحة ، وأنها وقعت خالصة للمنصوح ، مقصودا بها جانبه لا غـير . فرب نصيحة ينتفع بها الناصح . فيقصد النفعين جميعا، وربما يقـــع تفاوت بين النفعين فيكون ترجيح نفع الناصح تقصيرا أو إجحافا بنفـــع المنصوح"[١].

وتأتى جملة الاستدراك ــ ولكن لا تحبون الناصحين ــ لتعلـــن الحقيقة عن عدم انتفاعهم بالتبليغ والنصيحة .

فى أنهم لا يحبون أى ناصح من رسول أو غيره . وهذا كشـف عن نفسياتهم فى أنه لا يرجى لهم الاهتداء بأى حال مـــن الأحـــوال . وكان جمع ــ الناصحين ــ وتعميمه مشيرا إلى ذلك وذلك مبالغة فـــى ذمهم .

فالاستدراك هنا واقع موقعه . إذ هو بين المتنافيين . والمضـارع فى قوله ﴿ولكن لا تحبون﴾ لحكاية الحال الماضية ..

وعلى حسب ظاهر الخطاب فى قوله ﴿يا قوم لقد أبلغتكم . .﴾ يحتمـل أن يكون توليه عنهم قبل نزول العذاب بهم . ويكـــون هـــذا الخطـــاب توبيخا وتسجيلا عليهم بالكفر المؤدى بهم إلـــى الـــهلاك لا محالـــة . ويكون المضارع فى قوله ــ ولكن لا تحبون ــ دالا علـــى موقفـــهم المتجدد والمتكرر منه عليه السلام . وأن ذلك ديدنهم لا يحيدون عنه .

---

(١) التحرير والتنوير ٨ / ١٩٤ .

وجاءت أفعال الجملة مرتبة على حسب ترتيبها في الوجود:

١ - التولي ـ فتولى عنهم ٠

٢ - القول ـ الذي صدر منه عليه السلام ٠

٣ - القسم على تبليغ الرسالة ٠

٤ - الإخلاص في النصيحة ٠

٥ - بيان موقفهم منه ـ ولكن لا تحبون الناصحين٠

كما تماثلت الأفعال في الزمن الماضي . فتولى ـ قال ـ أبلغتكم ـ نصحت لكم ـ ويظهر الترتيب المحكم في جمل هذا المشهد. وكان كالآتي :

١ - الجملة الدالة على الإرسال ٠

٢ - الجملة الدالة على الدعوة إلى التوحيد ٠

٣ - الجملة الدالة على صدق النبوة بالمعجزة ٠

٤ - جمل الأوامر والنواهي والوعيد على المخالفة ٠

٥ - جمل الحوار بين المستكبرين والمؤمنين ٠

٦ - جمل عقر الناقة والتهكم بصالح عليه السلام٠

٧ - الجملة الدالة على الهلاك بالرجفة ٠

٨ - الجملة الدالة على تحسر صالح عليه السلام وغضبه عليهم٠

وكان الترابط بين هذه الجمل بطريقين :

الأول : حروف الوصل الظاهري مثل ـ الواو ـ والفاء٠

الثاني : عوامل الوصل الداخلي مثل ـ كمال الاتصال . وشبه كمال الاتصال ٠

المشهد الثانى

فى سورة هود من آية ٦١ ـ ٦٨

علاقة هذا المشهد بموضوع السورة :

تدور سورة هود حول محور التبشير والإنذار ، والاعتبار بمصائر الأمم السابقة ، ولذلك استهلت السورة بالحديث عن القرآن الكريم باعتباره المعجزة الخالدة •

يقول الله تعالى : ﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو الكتاب المتحدى به، وقد أحكمت آياته ، نظما وبلاغة ومنعا من الفساد والباطل والنسخ . وكانت ذات حكمة لأنه من الحكيم •

كما فصلت آياته بأدلة التوحيد والأحكام والزواجر والقصص وجعل ذلك فصولا فى سوره وآياته ، وما يحتاج إليه العباد فى معايشهم . ونزل ذلك مفرقا طبقا للظروف والملابسات ، وكان كذلك لأنه من العليم الخبير •

وقد أرسل الله به ـ محمدا عليه الصلاة والسلام ، ليقول ـ ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ فهذه الجملة هى لب الإرسال ، وأصل كل رسالة جاءت من عند الله . ولما كان هذا الأصل لا يسلم به كل الناس . بل إن منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قال ﴿إننى لكم منه نذير وبشير﴾ وقدم

النذارة على البشارة لأنها الأصل فى التقويم ، والعماد الذى يقوم عليه الترغيب والترهيب والتبشير ناشئ عنه .

ويمتد خيط التوحيد من قوله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وهذه الجملة تبين طريق التوحيد وهو الاستغفار والتوبة .

والاستغفار طلب المغفرة وستر الذنب .

والتوبة ــ الرجوع إلى الطاعة وعدم العود إلى الذنب والندم عليه ، والاستمرار على ذلك والإخلاص فيه .

ولذلك كانت ــ ثم ــ للترتيب الرتبى ؛ لأن المعنى الثانى أهم من المعنى الأول وإن كان لابد منه .

ورتب على ذلك أمرين :

الأول : المتاع الدنيوى:﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

الثانى : المتاع الأخروى : ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ثم أنذرهم بالعذاب إذا لم يحققوا معالم التوحيد فى نفوسهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ .

وهذا العذاب قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة لأن مرجعهم إلى الله ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وبين أنه تعالى مطلع على كل عوامل الرفض الظاهرة والباطنة ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود/ ١ ــ ٥] .

وبعد ذلك فصلت السورة مواقف المؤمنين والكافرين وضربت لهم المثل : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود/ ٢٤].

وجاء القصص القرآني في هذه السورة شرحا وبيانا لهذا المثل، وكأنه تفصيل لهذا الإجمال الكان في هذا التمثيل كما سبق بيانه.

وهكذا تتناظر الأشياء وتتناسب .

فالقصص في سورة الأعراف جاء عقب التمثيل في قوله تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ...﴾ والقصص في سورة هود جاء عقب التمثل في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ...﴾ .

كان هذا تلخيصا للعناصر الأساسية لدعوة التوحيد على لسان رسولنا ﷺ ــ كما جاءت في مطلع هذه السورة .

وأما عن العلاقات والروابط التى تربط مشهد قصة صالح عليه السلام ، بهذه العناصر فالأمر قد وضح إذ تبدأ قصة صالح عليه السلام بالجملة الدالة على الإرسال وهى ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وهى تناظر الجملة المقدرة بشأن محمد عليه الصلاة والسلام فى أول السورة أى أرسلناك بالكتاب قائلا : ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ ــ لأن التقدير هنا ــ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ــ كما سبق بيانه.

وكما كانت دعوته ﷺ إلى التوحيد كانت دعوة صالح كذلك ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ .

وكما كان هناك رافضون لدعوة التوحيد ومؤمنون به كان كذلك مع صالح عليه السلام .

ويلاحظ هنا فى سورة هود أن المشهد ابتدأ بالجمل الأساسية وهى ــ جملة الإرسال وجملة الدعوة إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام وهما الجملتان المحوريتان فى هذه القصة.

واختلف ما جاء بعدهما عما جاء فى سورة الأعراف ، فبينما كان فى الأعراف الحديث عن الآية البينة وهى معجزة الناقة كان هنا الحديث عن دليل القدرة والعلم ، بنشأة النوع الإنسانى من الأرض ، واستمراره يعمر الحياة، كما قال تعالى : ﴿هو أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها﴾ .

والجملتان وردتا على سبيل التخصيص ، ببناء الخبر الفعلى على ضمير المسند إليه المقدم.

وهو تذكير بنعم الله على الخلق إذ أنشأهم من الأرض بنشأة أبيهم آدم عليه السلام ، فنحن مخلوقون بخلقه وكنا ذرية فى ظهره، وإذا قلنا إننا نشأنا من التقاء ذكر وأنثى ، فإن ذلك يؤول إلى الأرض ، لأن المنى يتكون من الدم ، والدم يتكون من الأغنية الحيوانية والنباتية وذلك منشأه من الأرض مباشرة ، وذلك بخلق آدم عليه السلام.

وإما أن يرجع إلى الأرض بطريق غير مباشر وكل ذلك دليل على قدرة الله عزوجل التى توجب عبادته وحده والجملة المعطوفة ــ واستعمركم ــ مبنية على المعطوف عليها .

إذ النشأة أولا ، والإعجاز ثانيا ، أى جعلكم عمارها ــ بما أهلكم من العقول وأعطاكم من القوى والأعمار المديدة .

والجملتان متناسبتان ، فالمسند إليه فيهما واحد والمسند مختلف طبقا لتعداد النعم ، ولكنه متناسب من حيث ترتب الثانى ــ الإعمار ــ على الأول ــ الإنشاء ، وكذلك كان التناسب فى الزمن الماضى.

والتذكير بالنشأة من الأرض ، بعد بيان الأمر بالعبادة وترك عبادة الأصنام ، لعله يشير إلى أنهم غير محقين فى عبادتها لأنها تماثلهم صناعة من الأرض، فكيف يعبدون ما يساويهم ولا يفضل عنهم



بشئ ، بل إنهم أفضل منهم إذ يعمرون الأرض ويتمتعـــون بوســـائل الإدراك المختلفة ٠

ومن ناحية أخرى يشير إلى ارتباطهم بالأرض فهم:

ـ خلفاء فيها بعد قوم عاد ٠

ـ يتخذون من سهولها قصورا ٠

ـ ينحتون من الجبال بيوتا ٠

ـ كانوا أهل غرس وزرع ، كما في سورة الشعراء ٠

ـ كما أنهم كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، كما جـــاء فـــي الشعراء والنمل ٠

ـ ومعجزتهم الناقة كانت من الصخر ٠

الجملة التعليلية ذات هدفين :

كانت جملة التذكير بالنعم ـ النشأة والإعمار ـ وهي من بـــاب الأمر الوارد في سورة الأعراف ـ فاذكروا آلاء الله ـ وذلـــك علـــى سبيل العموم ، ولكنه هنا ذكر على سبيل التفصيل ، وهكـــذا يفصـــل المشهد هنا ما أجمله هناك . ويؤيد ذلك أن الأعراف أسبق نزولا مـــن هود . فالأعراف في تعداد النزول الثامنة والثلاثون وهـــود الحاديـــة والخمسون[١] ٠

---

(١) ينظر الزركشي ١ / ١٩٣ ٠

وموقع هذه الجملة هنا موقع التعليل للأمر بعبادة الله تعالى فهو وحده المختص بالنشأة والتعمير ، فتجب له العبادة لأنه الخالق وحده : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل/ ١٧] فهي بهذا الاعتبار علة للسابق .

وأيضا هي علة للأمر بالاستغفار والتوبة وكانت جملة : ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ جملة مفرعة على جملة التعليل السابقة فهي علة للسابق واللاحق .

وهذه الجملة التفريعية تناظر الجملة الواردة في أول السورة : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ .

ولكنه هناك بين ما ترتب عليها من المتاع الدنيوي والجزاء الأخروي ، وهنا ذكر علة الأمر بالاستغفار والتوبة بقوله ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ .

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، كأنهم استعظموا أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار عنه ، فأجيبوا بأن الله قريب مجيب[١].

وهذه الجملة ــ إن ربي قريب مجيب ــ قد بنيت على التوكيد واسمية الجملة للدلالة على ثبوت هذا المعنى واستمراره لله عزوجل

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ١٠٩ .

وإن كان ظاهرها يوجب الترغيب وإطماعهم فى الاستغفار والتوبة ، فإنها تتضمن الوعيد كذلك لمن لم يستغفر ولا يتوب لأنه سبحانه وتعالى قريب مجيب فكما أنه قريب بالرحمة والعلم لكل من لجأ إلى جنابه واستفتح بابه ــ ومجيب لكل من دعاه ، فهو كذلك قريب مجيب لصالح عليه السلام ، حيث حذرهم من عاقبة الفساد فى الأرض وتوعدهم بالعذاب الأليم .

فهو سبحانه قريب مجيب لكل من أخلص فى التوحيد وتذكر نعم الله عليه .

وهو سبحانه قريب مجيب لكل من دعا على الظالمين ، وناداه لتدمير المفسدين .

جمل الحوار بينه وبين قومه :

قام هذا المشهد على الحوار بين صالح عليه السلام وبين قومه بينما كان الحوار بين المستكبرين والمستضعفين هو السمة الغالبة على المشهد في سورة الأعراف .

وقد تتابعت جمل الحوار على طريق الاستئناف البيانى كما هو معهود .

وبعد أن أمرهم بموجبات التكليف التى تتمثل فى :

١ – العبادة ــ واعبدوا الله ...

٢ – الاستغفار ــ واستغفروه ...

٣ – التوبة ــ ثم توبوا إليه ...

٤ – التذكير بالنشأة الأرضية ·

٥ – التذكير بعمارة الأرض ·

جاءت الجملة الأولى فى الحوار على ألسنتهم بهذا الجفاء ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ·

فهذه الجملة فصلت بين زمانين ــ قبل هذا ــ وبعد هذا ــ فالقبلية تعنى الزمن قبل مجئ صالح عليه السلام بالتشريع واسم الإشارة ــ هذا ــ إلى وجوه التكليف فى الآية السابقة ·

وأما البعدية فتعنى الزمن بعد مجئ صالح عليه السلام بالتشريع ·

فقبل زمن مجيئه بالتشريع، كان مرجوا فيهم قد كنت فينا مرجوا، أى مرجوا بالخير، أى ناصرا لدينهم وقوة لجميعهم، وداخلا فى دينهم، ولكنهم بعد إعلانه التوحيد ونبذ عبادة الأصنام ، يئسوا منه وخاب رجاؤهم، وضاع أملهم، فالجملة كما هى تقرير لما كانوا يتوسمونه فيه، فإنها تعريض باليأس فى خيريته ·

وأما بعد مجيئه بالتوحيد ، فقد أظهروا لــــه الإنكـــار والشـــك.
فالإنكار فى قولهم : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ والشك فى قولـــهم :
﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ والإنكار منصب على نهيه عليــــه السلام لما هم عليه من عبادة الأصنام ، فهذا الإنكار يعود إلى قوله لهم ــ ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهم بهذا الإنكار يخالفون هذا الأمــر، ويتمسكون بطريق الآباء ، طريق التقليد والمتابعة العمياء.

وينتقلون من هذا الإنكار إلى الشك فى دعوته ، ويعبرون عــــن موقفهم الثابت ببناء الجملة على أكثر من مؤكد ــ وإننا لفـــى شـــك ــ ويعبرون عن دعوته بالفعل المضارع، إشارة إلى أنها دعـــوة طارئـــة ومستحدثة ما عهدوها من قبل ، مما تدعوننا إليه .

وهذه الجمل الإنشائية والخبرية فى هذه الآية تلتقى علـــى هـــذه المعانى :

١ – الغلظة وسوء الأدب فى الرد على صالح عليه السلام.
٢ – إحاطة اليأس بهم بعد إعلان دعوة التوحيد .
٣ – الإنكار والتوبيخ لنهيهم عن متابعة الآباء .
٤ – عدم تصديقه بعد الأدلة التى ساقها على صدقه .
٥ – الرفض الكامل لكل ما جاء به ، والشك فى دعوته.

وجاءت جملة ــ مما تدعونا إليه ــ بين الشك وبين ــ مريـــب أى أنها وقعت بين الصفة والموصوف، وكأن دعوته لهم بدأت بشكهم.

وانتهت بالريب ، وهو انتقال من السئ إلى الأسوأ لأن " الشك هو أن يبقى الإنسان متوقفا بين النفى والإثبات ، والمريب هو الذى يظن به السوء ، فقوله ــ وإننا لفى شك ــ يعنى به أنه لم يترجح فى اعتقادهم صحة قوله ، وقوله ــ مريب ــ يعنى أنه ترجح فى اعتقادهم فساد قوله ، وهذا مبالغة فى تزييف كلامه " [١] .

" ومن محاسن النكت هنا ــ كما يذكر ابن عاشور ــ إثبات نون ــ إن ــ مع نون ضمير الجمع لأن ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد ، والإظهار ضرب من التحقيق بخلاف ما فى سورة إبراهيم من قول الأمم لرسلهم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ــ ٩ ــ لأن الحكاية فيها عن أمم مختلفة فى درجات التكذيب ، ولأن ما فى هاته الآية خطاب لواحد ، فكان ــ تدعونا ــ بنون واحدة هى نون المتكلم ومعه غيره ، فلم يقع فى الجملة أكثر من ثلاث نونات ، بخلاف ما فى سورة إبراهيم لأن الحكاية هنالك عن جميع الرسل فى ــ تدعوننا ــ فلو جاء ــ إننا ــ لاجتمع أربع نونات" [٢] .

والإسناد فى قوله ــ شك مريب ــ مجاز عقلى علاقته السببية لأن الشك سبب فى الوقوع فى الريبة التى هى قلق النفس وعدم الطمأنينة .

---

(١) التفسير الكبير ١٨ / ١٨ .
(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ١١٠ .

والمقصود بها هنا عدم تصديق صالح عليه السلام فيما يبلغ عن ربه .

جملة الحوار الممتد على لسان صالح عليه السلام :

بعد أن وقفوا منه هذا الموقف العنيد ، كان على صالح عليه السلام أن يرد ليفند شبههم ويبطل إنكارهم ، وقد جاء الجواب على طريق المحاورة واتصال الجمل بطريق شبه كمال الاتصال ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ / ٦٣ .

وكما بدأ حواره معهم بقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾ كرر هذا النداء فى الرد عليهم ـ يا قوم ـ للإشعار بأهمية هذا الأمر المنادى له ، ولفتا لأذهانهم وإيقاظا لقلوبهم وتأكيدا لقوميتهم له ولا قيام لهم إلا به، واستنزالا لمنازعهم النافرة وعقولهم الشاردة .

وقد امتد هذا الاهتمام من جملة النداء ـ يا قوم ـ إلى جملة الاستفهام ـ أرأيتم ـ وهو استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد، وهو استفهام تقريرى إذا كان فعل الرؤية غير عامل فى مفرد ، فهو تقرير على مضمون الجملة السادة مسد مفعولى (رأيتم) ولذلك كان معناه آيلا إلى معنى أخبرونى ولكنه لا يستعمل إلا فى طلب من حاله حال من يجحد الخبر "[1] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٥١ .



فاستخدام هذه الصيغة ــ أرأيتم ــ في هذا السياق لــها دلالتــها فهي تدل على المعاني التالية :

١ - تحقيق وتقرير الأمر الذي يدعوهم إليه .

٢ - أن المخاطب في معرض الجحود ورفض الخير .

٣ - أنها تأتي في معرض التهديد والوعيد .

وصيغة هذا الفعل تنتظم بعده جملتان ، شرطية واستفهامية فأمــا الشرطية فهي ــ إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة .

وأما الاستفهامية فهي ــ فمن ينصروني من الله إن عصيته وهي جواب الشرط أو دليله .

وهذا هو الذي أشار إليه الزركشي بقوله"وأما ــ أرأيت ــ فبمعنى ــ أخبرني ــ ولا يذكر بعدها إلا الشرط وبعده الاستفهام ..."[1].

وقد بنيت جملة الشرط على حرف الشك ــ إن ــ مع علم صالح عليه السلام بأنه على يقين تام بالحجة والنبوة من قبل ربــه ، وذلــك مجاراة لقولهم ﴿وإننا لفي شك﴾ فكان ذلك من بــاب إرخــاء العنــان للخصم الجاحد ، لعله يدعوه إلى التأمل والقبول .

وكان في قوله ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ هي ــ كان ــ الدالة على الحال ، كما في قوله تعــالى : ﴿إن الصلاة كانت على

---

(١) البرهان ٤ / ١٥١ .



المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ وليست للمضى المنقطع كما فى قولهم السابق ﴿قد كنت فينا مرجوا﴾ وكما فى قوله تعالى : ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ [النمل/ ٤٨] .

وتأتى كذلك ــ كما قال الرازى للدلالة على :

١ - الأزل والأبد كقوله تعالى : ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ .

٢ - بمعنى الاستقبال كقوله تعالى:﴿ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾

٣ - بمعنى ــ صار ــ كقوله : ﴿وكان من الكافرين﴾ (١).

ولكن تفترق الجملتان مقولهم ــ وإننا لفى شك ــ ومقول صالح عليه السلام ــ إن كنت على بينة ــ من حيث كون شكهم على سبيل الجزم واليقين بدليل التوكيد ــ وشكه عليه السلام شك أسلوبى ظاهرى قصد به المجاراة ، والإطماع ولكنه كر عليهم بهذا الاستفهام المقصود به النفى ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ــ فأبطل حجتهم وأعلن موقفه الصريح فى ثبوته على دعوة التوحيد ، واستخدم أسلوب ــ إن عصيته ــ فى موقعه الدال على عدم وقوع العصيان منه لله عزوجل .

واستخدم كلمة ــ ربى ــ فى قوله ﴿إن كنت على بينة من ربى﴾ للدلالة على التفضل والإحسان إذ أن النبوة فضل منه سبحانه وتعالى .

---

(١) البرهان ٤ / ١٢٧ .



واستخدم كلمة ــ الله ــ في قوله ــ فمن ينصرني من الله .. لأن المقام مقام تهويل وتخويف ، ولفظ الجلالــة ــ الله ــ لدلالتــه علــى الألوهية وهي اقتدار وعظمة وتكليف أدل على ذلك كما أن إظهاره في موضع الإضمار لزيادة المبالغة في هذه المعاني وتأمل هذه الفــاءات وقد رتبت الأحداث ، وجعلت بعضها بسبب من بعض، فقوله ﴿فمن ينصرني من الله﴾ أي لا أحد يمنعه من عذاب الله إن عصاه فيما آتاه من بينة ونبوة ويترتب على ذلك أي إن عصاه ، فما تزيدونني غــير تخسير .

" والمراد بالزيادة حدوث حال لم يكن موجودا ، لأن ذلك زيــادة في أحوال الإنسان ، أي فما يحدث لي إن اتبعتكــم وعصيــت الله إلا الخسران كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام ﴿فلم يزدهم دعائي إلا فرارا﴾ أي كنت أدعوهم وهم يسمعون فلما كررت دعوتهم زادوا علــى ما كانوا عليه ففروا ، وليس المعنى أنهم كانوا يفرون فزادوا في الفرار لأنه لو كان كذلك لقيل هنالك ــ فلم يزدهم دعائي إلا مــن فــرار ــ ولقيل هنا ، فما تزيدونني إلا من تخسير[1] .

اقتران جملة النداء بالواو :

كرر صالح عليه السلام النداء لقومه شأنه في ذلك شــأن بــاقي الرسل ، ومن طبيعة هذا النداء أنه يستميل المنادى بما فيه من تلطــف

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ١١٢ .



وإشفاق واستدراج، وكثيرا ما يتكرر هذا النداء دون عاطف ، وبخاصة إذا كان المنادى واحدا كما فى حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه فـــى سورة مريم فقد تكرر قوله ـــ يا أبت ـــ أربع مرات دون ذكر العاطف ولكن الملاحظ أن الذى ورد فى قصص نوح وهود وصالح وشـعيب ، أن المنادى تارة يعطف بالواو ، وتارة يكون بغير الواو .

فيأتى بغير الواو إذا كانت الجملة واردة على سبيل الحوار كمـــا هو الشأن فى شبه كمال الاتصال ، وكما هو واضح فى هذه الـتراكيب ، قال يا قوم اعبدوا الله ـــ قال يا قوم أرأيتم ويأتى بالواو إيذانـــا بـــأن الجملة معطوفة على ما قبلها ، وأن النداء الثـــانى متصـــل بـــالأول ، واستقلال الثانى لأن الخطاب المذكور بعد النداء خطاب مســـتقل عـــن الأول .

وأنه موضع العناية والاهتمام ، فأشبه التغاير المؤذن بـــالعطف ، ولذلك لا نجد كلمة ـــ قال ـــ مع هذا النداء ، وإنما نجد العاطف وقـــد دخل على المنادى مباشرة ـــ ويقوم ، وكأنه من باب تعديد ما يدعوهـم إليه ويحذرهم منه .

فقوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ .

نجد أن جملة النداء اقترنت بالعاطف فدل على التناســـب بينـــها وبين سابقتها ، من حيث الإنشائية ودل على التغاير من حيث المعنى ،

فالأولى تتحدث عن النبوة والثانية تتحدث عن دليل صدق النبوة، والعطف يعتمد على التناسب والتغاير ٠

وهذا الذى يأمرهم به وينهاهم عنه فى هذه الآية . قد سبق فى سورة الأعراف ، ولكنه جاء هناك بعد دعوته إلى التوحيد مباشرة، ثم كان الحوار بين المستكبرين والمستضعفين، ثم كان عقرهم للناقة ٠

ولكنه هنا جاء بعد حوار صالح عليه السلام مع قومه ، وهذا الاختلاف فى موضع هذا الأمر والنهى حيث يأتى قبل الحوار أو بعده ، يدل على تكراره وأن صالحا عليه السلام لم يقله مرة واحدة، وإنما كانت دعوته لهم وتكرارها فى الأحوال المختلفة ، مقرونة بالإشارة إلى معجزة الناقة ووجوب تركها تأكل فى أرض الله وعدم مسها بسوء٠

ولعل اختلاف الفاصلة يشير إلى تعدد الأحوال ٠

ففى الحالة الأولى: رتب على عدم التزامهم قوله ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ ٠

فذكر الأخذ بالعذاب الأليم دون إشارة إلى زمان وقوعه ٠

وأما فى الحالة الأخيرة ، فرتب على عدم التزامهم قوله ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ ٠

فذكر الأخذ بالعذاب وأشار إلى زمان وقوعه بقوله ــ قريب ــ وفسر هذا القرب فى الآية التالية بقوله تعالى ﴿فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ ٠

دلالة الفاء فى قوله : فعقروها:

وقد اقترنت جملة مقول صالح عليه السلام بالفاء دلالة على سرعة جوابه ردا على عقرهم الناقة ، كما اقترنت جملة عقر الناقة بالفاء، دلالة على مبادرتهم بالتكذيب وعلى الرغم من أن عقر الناقة كان متراخيا عن دعوتهم إلى التوحيد ، وأنه لم يكن من أول الأمر ، ولكنه سبق بمحاورات بين صالح عليه السلام وقومه ، ومحاورات بين المستكبرين والمستضعفين، وكان حقه أن يعطف بـ ــ ثم ــ ولكنه خالف الظاهر وعطف بالفاء ــ .

فإنه من المعلوم أن التعقيب من المعانى الخاصة بالفاء ولذلك قال المرادى "ومعناها التعقيب. فإذا قلت قام زيد فعمر. دلت على أن قيام عمرو بعد زيد بلا مهلة . فتشارك ــ ثم ــ فى إفادة الترتيب وتفارقها فى أنها تفيد الاتصال و ــ ثم ــ تفيد الانفصال. هذا مذهب البصريين. وما أوهم خلاف ذلك تأولوه"[١].

والتعقيب ــ كما يقول ابن هشام ــ فى كل شئ بحسبه ألا ترى أنه يقال ــ تزوج فلان فولد له ــ إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل ، وإن كانت متطاولة ، ودخلت البصرة فبغداد إذا لم تقم فى البصرة ولا بين البلدين . وقال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ

---

(١) الجنى الدانى / ٦١ .



الأرضُ مُخضَرَّةً﴾ وقيل : الفاء فى هذه الآية للسببية ، وفـــاء الســـببية لا تستلزم التعقيب. بدليل صحة قولك ــ إن يسلم فهو يدخل الجنة ومعلوم ما بينهما من المهلة.وقيل تقع الفاء تارة بمعنى ــ ثم ــ ومنه الآية[1].

فإذا كان هذا هو شأن الفاء ــ التعقيب والاتصال ــ فإن ذلك يدل على توالى تكذيبهم منذ دعوتهم الأولى وأن ذلك التكذيب ظل مســـتمرا ومتواصلا حتى عقر الناقة وقد طوت الفاء هذا الزمن الطويل . لأنه لا اعتداد به فى حياتهم لأنهم لم ينتفعوا به ، فكأنه ســـقط مـــن حياتـــهم فالتعقيب مجازى . نزل فيه هذا الزمن الطويل منزلة الزمن القصـــير فى عدم الاعتداد لخلوه من المنفعة.

وهكذا تجسد هذه الفاء سرعة ارتكابهم هـــذه الجريمـــة وكيـــف تعاونوا وتواصلوا قبلها دون فتور . كما تجسد تواصلهم فـــى فعلـــها وبعده ــ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ــ وظلـــوا كذلـــك حتـــى أخذتهم الرجفة، تنبئ عن ذلك ــ الفاء فى قوله تعالى ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وأن هذا الأخذ ظل بهم حتى أصبحوا فى دارهم جاثمين ــ ولذلك جـــاء بالفاء ــ فأصبحوا .

فلم تكن هناك مهلة فاصلة بين هذه الأحـــداث ولكنـــها أحـــداث متتالية ، العقر. فالأخذ فالجثوم ، وذلك هو المناسب لموقف التـــهويل والتفظيع لهؤلاء القوم .

---

(١) مغنى اللبيب ٢١٤ .

وكان رد صالح عليه السلام متناسقا في سرعته مع هذه الأحداث — فقال — بالفاء — دون الواو وكما تهكموا به تهكم بهم بقوله — تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، والتمتع ، التلذذ بكل ما يكون به التلذذ ولذلك أطلق الفعل دون القيد بمفعول معين دلالة على الإطلاق والشمول، وهو أمر قصد به الوعيد والتهديد وماذا يغنيهم من الترف في ثلاثة أيام إذا أتى الهلاك في رابعها ؟

وأعاد الأمر بالتمتع مرة ثانية مضمنة في اسم الإشارة — ذلك — للبعيد ، لبعده في باب التفخيم والتهكم ٠

وأنه وعد غير مكذوب — وهو إما من باب الحقيقة أي غير مكذوب فيه — فحذف الجار وإما من باب المجاز "كأن الواعد قال له أفي بك فإن وفى به صدقه وإلا كذبه — فهناك استعارة مكنية تخييلية وقيل مجاز مرسل يجعل — مكذوب — بمعنى باطل ومتخلف أو وعد غير كذب على أن مكذوب مصدر على وزن مفعول ... "[1].

الفاء وجملة مجئ العذاب :

بعد هذا الوعد الذي ضربه صالح عليه لهم وهو ثلاثة أيام وأنه وعد غير مكذوب كان لابد من مجئ العذاب . وقد اقترنت جملته بالفاء نظرا إلى هذا الزمن القصير والذي أعقبه مباشرة حلول العذاب فقال

---

(١) روح المعاني ١٢ / ٩٢ ٠

تعالى : ﴿فلما جاء أمرنا﴾ فالفاء أشارت إلى التعقيب والتسبب عن الوعيد السابق واختيار لفظ — جاء — لمناسبته التفخيم والتهويل ويقوى ذلك إضافة — الأمر — إلى — نا — الدالة على عظمة المتكلم ، وأنه لا أمر لأحد سواه فهو وحده الآمر بنزول العذاب أو أن المقصود بالأمر العذاب أو القضاء بإهلاكهم على سبيل الكناية •

ورتب على مجئ العذاب أمرين:

الأمر الأول: نجاة صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين من العذاب ومن خزى هذا اليوم •

الأمر الثاني: حلول العذاب بالذين ظلموا حتى صاروا جاثمين •

وذلك معنى قوله تعالى : ﴿نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا . ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها . ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود﴾ •

والملاحظ أنه قدم نجاة صالح عليه السلام ومن معه على حلول العذاب بالكافرين، اهتماما بهم ورفعا لشأنهم فهم السابقون إلى الإيمان، والسابقون في الذكر ، والمقربون من الله تعالى، ولذلك جاء الحديث عنهم بصيغة التعظيم — نجينا — برحمة منا — احتفاء بهم وتعظيما لهم •

بخلاف الحديث عن الكافرين فقد جاء بأسلوب الغيبة طردا لـــهم عن ساحة الحضور ، وتبعيدا لهم عن رحمة الله وتقبيحا لقصتهم بيـــن الناس، وتأخيرا لهم عن موقف الإعزاز والتكريم ، وذلك واضح مـــن قوله تعالى : ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ ٠

وهذه النجاة إما أن تكون برحمته تعالى وتفضل منه على عبـــاده المؤمنين ٠

وإما أن تكون بسبب الأعمال الصالحة المعبر عنها بالرحمة٠

وقد ذكر في جملة النجاة فعلا واحدا وهو ــ نجينا ــ " وعطــف قوله ﴿ومن خزي يومئذ﴾ على متعلق ــ نجينـــا ــ المحـــذوف أي نجينا صالحا ــ عليه السلام ــ ومن معه من عذاب الاستئصال ومـــن الخزى المكيف به العذاب فإن العذاب يكون على كيفيات بعضها أخزى من بعض فالمقصود من العطف ، عطف منه على منة لا عطف إنجاء على إنجاء ولذلك عطف المتعلق ولم يعطف الفعل كما عطف في قصة عاد : ﴿ونجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ لأن ذلك إنجاء من عذاب مغاير للمعطوف عليه "[1] ٠

ويقول البقاعي ــ وحذف ــ نجينا ــ هنا يدل على أن عذابـــهم دون عذاب عاد[2] ٠

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ١١٤ ٠
(٢) نظم الدرر ٩ / ٣٢٥ ٠

وجاءت الفاصلة ﴿إن ربك هو القوى العزيز﴾ مشيرة إلى قوة التمييز بين أهل النجاة وأهل الهلاك ، فهو وحده الغالب والقادر على التفريق بين الخبيث والطيب بالإهلاك والإنجاء . وذلك يطمئن قلوب المؤمنين ويفزع قلوب الظالمين ــ فكأن الفاصلة مضمنة معنى الوعد والوعيد ، وقد مضى الوعد فى نجاة صالح والذين معه وبقى الوعيد وهو ما تفصح عنه الآيات التالية ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ ٠

والآيات تفوح بروح القهر والغلبة والانتقام العادل ويتمثل ذلك فيما يلى :

١ - اختيار الفعل ــ أخذ ــ لأن له خصوصية فى القهر والشدة كما فى قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود / ١٠٢] وقوله : ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر / ٤٢]٠

٢ - إسقاط علامة التأنيث من الفعل وإن كان ذلك جائزا هنا لأن الصيحة مؤنث مجازى ولوجود الفاصل بينها وبين الفعل بالمفعول وهذا النظر النحوى لا يغنى عن النظر الدلالى وهو أن تذكير الفعل يدل على عظم الأخذ وقوته فالتذكير أقوى من التأنيث٠

يقول البقاعى : وأشار إلى عظمة هذه الصيحة بإسقاط علامة التأنيث[1] ٠

---

(١) نظم الدرر ٩ / ٣٢٥ ٠



٣ – تقديم المفعول ــ الذين ظلموا ــ على الفاعل ــ الصيحة ــ لأنهم المعنيون بالأخذ دون غيرهم ، والأسماع تتوجه إلى معرفة ما حل بهم بعد الوعيد والتهديد لهم على لسان صالح عليه السلام ... فهم محل التشوف والتطلع، وخاصة بعد نجاة صالح ومن معه ٠

ووقوع الفاعل ــ الصيحة ــ بعد المفعول كأنها تلاحقهم وتطاردهم ولا تنفك عنهم. فالمفعول ــ الذين ظلموا ــ بعد أن كانوا العنصر الفاعل في الحياة أصبحوا فضلة لا أثر لهم في الحياة ، وأصبح العذاب هو الذى يسيطر عليهم . يفعل بهم ما قدر لهم٠

وعبر عن المفعول باسم الموصول ــ حيث تقرر جملة الصلة ــ ظلموا الحكم العادل الذى نزل بهم ، وهو بسبب ظلمهم فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٠

٤ – التعبير عن العذاب هنا بالصيحة . وهى الصوت القوى الذى يتموج به الهواء ويدخل جميع الديار . وذلك دليل قوته وشدته ، وجمع الديار مع الصيحة يدل على ذلك . كما سبق ٠

٥ – بيان زمن جثومهم فى الصباح بقوله ــ فأصبحوا ــ يدل على "زيادة فى التخويف والتأسيف بما وقع لهم من التحسير لو أدركه أحد منهم لأن الإنسان يفرح إذا أصبح بقيامه من نومه مستريحا قادرا على ما يريد من الحركات للاستمتاع بما يشتهى من التصرفات فأصبح

هؤلاء ـــ بعد الصفة على ما قص الله ـــ خفوتا أجمعين كنفس واحدة رجالا ونساء صغارا وكبارا كأنهم لم يكونوا أصلا ... "[١].

٦ - دلت جملة التشبيه ـــ كأن لم يغنوا فيها ـــ على تمام هلاكهم حيث وضحت وقررت معنى جثومهم في الديار وكأن وجودهم كلا وجود ، فكأنهم لم يقيموا في هذه الديار ولم يوجدوا بها أصلا.

وأعيد بيان سبب هلاكهم بطريق التنبيه والتأكيد بقوله ﴿ألا إن ثمودا كفروا ربهم﴾ قطعا لعذرهم وبيانا لحكمه تعالى العادل.

وقد مر تحليل مادة ـــ كفر ـــ وهي تدل على الستر والتغطية ولم يقل ـــ كفروا بربهم ـــ لأنهم لم يكفروا به دينا فقط أو بألوهيته فحسب. وإنما كفروا به خلقا ورزقا وإرسالا ، وقوله ـــ كفروا ربهم ـــ أدل على شمول كفرهم لكل النعم ، ولذلك استحقوا الدعاء عليهم بالبعد.

ـــ ألا بعد الثمود ـــ وهو الهلاك .

والبعد ، إما من ـــ بعد ـــ وهو أكثر ما يستعمل في المحسوس وإما من ـــ بعد ـــ وهو أكثر ما يستعمل في الهلاك وهو المقصود من الآية .

وتأمل الجمل الثلاث :

ـــ كأن لم يغنوا فيها .

---

(١) المرجع السابق .

ــ ألا إن ثمودا كفروا ربهم ·

ــ ألا بعد الثمود ·

تجد استقلال كل جملة فى دلالتها على المعنى . فجملة التشبيه تدل على اقتلاع جذورهم·

والجملة الثانية تدل على غلظة كفرهم ·

والجملة الثالثة تدل على دوام لبثهم فى الطرد والبعد وتكرار ــ ألا ــ فى الجملتين ومعناها الاستفتاح وفائدته التنبيه على تحقيق ما بعدها[1] ·

وبعد بيان ما جاء فى هذا المشهد يتضح أنه ليس من باب التكرار للمشهد الوارد فى سورة الأعراف ولذلك نقرر أنه لا معنى للقول بتكرار القصة فى القرآن ، لأن لب التكرار ، هو إعادة النص بلفظه ومعناه "فى سياق واحد . لغرض يستدعى إعادتها وفى مقام يقتضى هذه الإعادة"[2] ·

---

(١) ينظر مغنى اللبيب ٩٥ والبرهان ٤ / ٢٣٥ ·
(٢) ينظر التكرار بلاغة ٢١ ·

المشهد الثالث

فى سورة الشعراء ـ من آية ١٤١ ـ ١٥٩

وسورة الشعراء هى السادسة والعشرون فى الترتيب المصحفى والسابعة والأربعون فى ترتيب النزول وهى مكية أى تعنى بقضايا التوحيد وأصول العقيدة ومواقف الأقوام من الدعوات والرسل . وفى ذلك تذكير لأهل مكة . بأن مصيرهم إذا استمروا على تكذيب محمد عليه الصلاة والسلام ، سيكون من مصير هؤلاء لأن جوهر الدعوة واحد ، ومناهج الرسل لا تختلف ومصير المكذبين واحد وهو الإهلاك فى الدنيا أو فى الآخرة .

وقبل بيان أوجه بناء الجمل فى هذا المشهد ، نبين خيوط المعانى بين مطلع السورة وبين هذا المشهد والأسس التى قامت عليها المحاور الأساسية فى هذه السورة .

خيوط المعانى ومحاور المبانى :

ضمت سورة الشعراء قصة موسى مع فرعون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وأصحاب الأيكة وكان الحديث عنهم بين يديه ومن خلفه حديث عن القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام . وقريش وتهديد المكذبين ، وبيان قدرة الله على الانتقام والإمهال .

فالقرآن هو المعجزة التى تحدى الله بها العرب ، وأعلمهم بأنها مكونة من حروفهم التى ينظمون بها كلامهم شعرا ونثرا . وقد باين

كلامهم لعلو مقامه ، واستقامة منهجه وصدق وعده ووعيده . وعدلـــه في تبشيره وتهديده . وقد وقعت الإشارة إليه بالبعد المؤذن بـــالتعظيم والتفخيم في قوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وذلك بعـــد ذكـــر الحروف المكون منها ــ ﴿طسم﴾ــ .

وأما الرسول ﷺ فلحرصه وإخلاصه وأمانته قد بدا حزينا أســيفا كاد يقتل نفسه غما لإعراض قومه عن الدعوة . وذلك معنـــى قولـــه تعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وسواء كان المقصود بهذه الجملة الأمر ، أي أشفق على نفســك أو النهي ، أي لا تبخع نفسك ــ أو الاستفهام الإنكاري أي هــل أنــت باخع نفسك . فإنها تدل على مدى التحسر والتحزن الذي وصل إليـــه الرسول عليه الصلاة والسلام لانصراف قومه عن الإســلام . وذلـــك بسبب أمانته وإخلاصه لقومه ودعوته .

وأما قومه المكذبون فلم يشأ أن يقسرهم على الإيمان قسرا كمـــا فعل ببني إسرائيل حيث نتق الجبل عليهم كالظلة وظنوا أنه واقع بـــهم وقال لهم : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [1] لأن الإيمان مبناه على الاختيـــار لا على الإجبار ، وذلك معنى قوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ .

---

(١) تنظر آية ١٧١ الأعراف ــ وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ...

لأنه تعالى لا يريد قوالب جامدة ولكن يريد قلوبا نابضة ٠

فترك هذا الأمر الملجئ إلى الإيمان . وتوالت الآيات التنزيلية الداعية إلى التوحيد والإيمان بالبعث ولكنهم أعرضوا . وكلما تجدد التنزيل تجدد الإعراض . وهذا يدل على قوة عنادهم وشدة كفرهم وبخاصة أنه ذكر من الرحمن جاء رحمة بهم ومنفعة لهم في الدنيا والآخرة . وذلك معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [٥] ٠

ويستمر هذا الإعراض ويصل إلى التحقيق والتأكيد في باب التكذيب ـــ فقد كذبوا ـــ وهذا هو الموقف الأخير للقوم ٠

" وهنا جاء الوعيد والتهديد في نفس الآية : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٦] ٠

والفاء في الموضعين تشير إلى مقدمات طويت . دلت عليها قوة الكلام فهي بفاء الفصيحة أشبه إذا كان هذا هو حالهم الذي جمدوا عليه، ولم يتزحزحوا عنه مع توالي النذر . وتجديد التذكرة .. فقد كذبوا ـــ عزموا موقفا نهائيا لا يحيدون عنه، وإذا كان التكذيب المصر ـــ هو ما انتهوا إليه فقد عرضوا أنفسهم للمصير الذي قضى الله بحكمته وعدله أن يكون مصير المكذبين"[1].

---

(١) التكرار بلاغة ١٢٥ ٠

وكما لم ينتفعوا بالآيات التنزيلية لم ينتفعوا بالآيـــات التكوينيـــة المحسوسة والمشاهدة لهم فى الأرض من إخـــراج النبـــات بأصنافـــه المختلفة كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ـ ٧ ـ ٠

والاستفهام للإنكار التوبيخى ، وكأنه ينكر عليهم عدم اعتماد تلك الأدلة العقلية دليلا على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى وعلى إمكانيـــة البعث . لما يرونه من حياة الأرض بعد موتها . وأن القادر على ذلـــك . قادر على البعث وإنفاذ الوعد والوعيد ٠

وتأتى الآية الثامنة ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ـ لتشير بـــ ـــ ذلك ـ إلى دلائل قدرة الله عزوجل من عجائب الأرض وأصناف النبـــات وأن ذلك يكفى للردع عن الكفر ، والدخول فى الإيمان ، ولكنها تسجل على أكثرهم الكفر والعناد ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وأن أقلـــهم كان من المؤمنين ٠

وتأتى الآية التاسعة : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ لتشـــير إلـــى جانبى العزة والرحمة العزة أى الغلب والقدرة على الانتقام من الكفـــرة والرحمة بأن يمهلهم ولا يأخذهم بغتة . أو الرحمة لمن تـــاب منـــهم . وذلك يومئ إلى إهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ٠

وقدم صفة العزة على الرحمة لأن المقام مقام تهويل ووعيد للمكذبين .

هذه هى خيوط المعانى الأساسية والمحاور الرئيسة فى سورة الشعراء لتأخذ قريش ومن وراءها العبرة والعظة من مواقف المكذبين. ومصائرهم فى قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فتسوق السورة قصصهم " وليس هناك — فى مقام الاعتبار والاتعاظ بمصائر المكذبين ما هو أعظم فى الدلالة وأنفذ فى الموعظة وأزجر عن التمادى وأقوى فى التعريض . من نبأ موسى وفرعون ومن نبأ نوح مع قومه . ومن نبأ هود مع قومه ، ومن نبأ صالح مع قومه . ومن نبأ لوط مع قومه . ومن نبأ شعيب مع قومه صلوات الله وسلامه على رسل الله وأنبيائه أجمعين "(1).

جملة تكذيب الرسل :

بدأ المشهد فى الشعراء بهذه الآية ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [141] وهذه الجملة بوضعها تدل على أن دعوة إلهية جاءت القوم على لسان رسول . وهو صالح عليه السلام . كما تحدثت الآيات فى سورة الأعراف فهى أسبق من الشعراء فى النزول ولكن لما اختلف السياق اختلفت الآيات المتصدرة المشهد فى كلتا السورتين فهناك فى الأعراف . تبليغ وإنذار ، وهنا اعتبار بمصائر المكذبين ولذلك بدأ

---

(1) المرجع السابق 126 .



المشهد بالجملة الدالة على تكذيب القوم . وفى ذلك ارتباط لتكذيب قريش ومن على شاكلتهم بتكذيب هؤلاء •

فهنا ــ كذبت ثمود ــ وفى شأن قريش ــ فقد كذبوا ــ وبذلك يتلاقى الأقوام على مبدأ التكذيب . ولا شك أن المصير يكون واحدا. وتؤخذ العبرة ممن سبق •

وإذا كان الفعل ــ كذب ــ قد لحقته علامة التأنيث على تأويل ــ ثمود ــ بالأمة أو الجماعة فإن هذا نظر نحوى ويبقى النظر الدلالى فى اجتماعهم وتواطئهم على هذا التكذيب وكأنهم تعاهدوا عليه بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهذه هى كثرتهم التى تعاونت على الكذب •

وقد أسند التكذيب إلى ثمود على الرغم من أن بعضهم آمن كما هو منطوق آيات الإنجاء ﴿نجينا صالحا والذين آمنوا معه﴾ لأن المؤمنين قليلون ــ يروى أنهم مائة وعشرون ــ والقليل يعتبر فى حكم العدم ــ إذا قيسوا بالأكثرية ــ عددهم خمسة آلاف بيت ــ وقد أوقع فعل التكذيب على ــ المرسلين ــ ومن المعلوم أن ثمود لم تعرف إلا رسولا واحدا وهو صالح عليه السلام •

ولكن لما كانت دعوة الرسل جميعا متفقة فى أصل التوحيد وأصول الشرائع فالدعوة واحدة والمنهج واحد والغاية واحدة كان تكذيب الواحد هو تكذيب الكل •

وذلك يوحى بغلظ التكذيب وعظم جرم المكذبين والتأمل الواعـــى فى مصير المكذبين ، ومراجعة النفس لأخذ العبرة والعظة والاستبصار لمواقف الهلاك والنجاة .

وهنا ندرك لماذا قذفت هذه الجملة فى بداية هذا المشهد وأمثاله . فقد ذكرت على الوضع التالى :

١ - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٠٥] .

٢ - ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٢٣] .

٣ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٤١] .

٤ - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٦٠] .

٥ - ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧٦] .

إذ أن الأساس فى ذلك هو الاتعاظ بمصائر هـــؤلاء المكذبيـــن . وقد جاءت الجمل فى أول كل مشهد منبئة عن ذلك .

زمان هذا التكذيب :

وقد جاءت الجملة التالية لجملة التكذيب تبين زمان هذا التكذيب . وذلك فى قوله تعـالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٤٢ ــ ١٤٥] .



فقد صدرت جملة القول بـ "إذ" وهى ظرف للزمان الماضى وهو الغالب فى استعمالها وقد شغل هذا الظرف بتكذيبهم وهو زمان دعوتهم وما كان بينهم وبين صالح عليه السلام من محاورات ، فهو تكذيب ممتد من بداية الدعوة إلى انتهائها .

وجملة : ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ جاءت على سمت ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وفى كلتا الجملتين دلالة على خصوصية صالح عليه السلام لثمود . فهو قد أرسل لهم دون غيرهم .

وكذلك هو يقول لهم دون غيرهم والجملة الثانية متفرعة عن الأولى لأن القول ناشئ عن الإرسال . وهذا ما يؤكده كون الشعراء بعد الأعراف فى النزول .

وفى كلتا الجملتين حديث عن الأخوة . وهى تعنى الرفق واللين وحب الخير والمناصرة وتحريك المشاعر والعواطف نحو رسولهم وهذا ما تمليه الأخوة فى جملة الإرسال الأولى .

ولكن بعد أن عرض عليهم دعوته ، ولم يقابلوه بمقتضيات الأخوة وظهر تكذيبهم وعنادهم ، كما يقرر ذلك المشهد فى الشعراء . فإن الحديث عن الأخوة هنا يوحى بالتحسر والتأسف على ما بدر منهم تجاه دعوة صالح عليه السلام .

ويكون قوله ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ يفيد التحزن لأنهم لم يقيموا وزنا لهذه الأخوة ، ولم يكن لها مكان فى قلوبهم .

وبذلك تفترق دلالة الألفاظ من سياق إلى سياق ، فـــالأخوة فـــي بداية الأمر كانت مدعاة للتناصر والائتلاف ، وبعد التكذيـــب كـــانت حديث التحسر والتحزن على ما فات من مقتضياتها.

وتأتي جملة مقول القول ــ ألا تتقون ــ مصدرة بـــ ــ ألا ــ بالفتح والتخفيف . فيجوز " أن يكون لفظ ــ ألا ــ مركبا من حرفيـــن همزة الاستفهام دخلت على ــ لا ــ النافية فهو استفهام عـــن انتفـــاء تقواهم مستعمل في الإنكار . وهو يقتضي امتناعـــهم مـــن الامتثـــال لدعوته.

ويجوز أن يكون ــ ألا ــ حرفا واحدا هو حـــرف التحضيـــض مثل قوله تعالى : ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ وهو يقتضي تباطؤهم عن تصديقه "[1] .

ويلاحظ أن مقول القول هنا اختلف عمـــا جـــاء فـــي ســـورتي الأعراف وهود . حيث كان هناك دعوة إلى التوحيـــد ونبـــذ الشـــرك ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ولكنه هنا تجاوز دعـــوة التوحيـــد إلـــى الثمرة وهي التقوى وهي الخوف من عقاب الله عزوجل فيجعل الإنسان بينه وبين عقابه تعالى وقاية .

(١) التحرير والتنوير ١٩ / ١٥٨ .

وتأتى جملة : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعلل للإنكار أو التحضيض فى قوله ـ ألا تتقون ـ ويضيف إلى وصف الأخوة وصفين آخرين . أنه رسول وأنه أمين ، فهو رسول بحكم أنه يدعو إلى توحيد الله عزوجل ويبلغ رسالته .

وهو أخوهم لأنه واحد منهم . فهو صالح بن عبيد بن آسف وينتهى نسبة إلى ثمود بن عامر جدهم الأكبر ومن مقتضيات هذه الأخوة حب الخير لهم .

وهو كذلك أمين . أى مشهور بالأمانة بينهم . وأمين على تبليغ رسالة ربه ، وإذا كان معروفا بالأمانة بين الناس . فما كان له أن يكون كذلك مع الناس ويكذب على الله عزوجل . وهكذا كان محمد ﷺ بين قومه فقد عرف بالصادق الأمين . وفى ذلك تعريض بقريش فى تكذيبها محمدا عليه الصلاة والسلام .

فانظر إلى هذه الصفات . وكيف يقوى بعضها بعضا ويدعم بعضها بعضا .

١ - الرسول . ٢ - الأخوة . ٣ - الأمانة .

وهذه الثلاث هى الركائز فى دعوة كل رسول . ولذلك تكررت صريحا مع نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

وأكدت جملة التعليل بحرف التأكيد ــ إنى ــ " لأنه توقع حدوث الإنكار . فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة فإن الأمانة دليل على صدقه فيما يبلغهم من رسالة الله "[1] .

وهم قد قالوا عنه ﴿قد كنت فينا مرجوا قبل هذا﴾ في سورة هود .

وسبب عن هذا التعليل معاودته الأمر بالتقوى وأضاف إليها الطاعة فقال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ومع إضافة الأمر بالعبادة تنتظم له هذه الأمور :

١ - الأمر بالعبادة كما فى سورتى الأعراف وهود .
٢ - الأمر بالتقوى .
٣ - الأمر بالطاعة .

والتقوى ثمرة العبادة والطاعة مسببة عن التقوى . ولما كان ذكره لأمر الرسالة والأخوة والأمانة مما يوجب الإقبال عليه . ذكر بعده ما يوجب نفى الفرار منه ، بقوله ﴿وما أسئلكم عليه من أجر﴾ إن أجرى إلا على رب العالمين ، فهو بذلك قد جرد نفسه من أى نفع شخصى يمكن أن يعكر صفو الأخوة والأمانة . وهذا عامل آخر من عوامل الإقبال عليه . وإن كان بطريق النفى وما قبله كان بطريق الإثبات . وبذلك يتشابك الكلام ويرتبط بعضه ببعض ، ويؤكد بعضه البعض .

---

(١) المرجع السابق / ١٥٨ .

وكما بالغ في النفي في قوله : ﴿وما أسئلكم عليه من أجر﴾ بدخول – من – الاستغراقية على النكرة . فقد أكد هذا بجملة القصر – إن أجرى إلا على رب العالمين – الحقيقي التحقيقي . وفصلها إما لكمال الاتصال أو لشبهه .

عدول الجمل من التقرير إلى الإنكار:

بعد تقرير المعاني السابقة الموجبة لاتباعه عليه السلام اتجهت الجمل وجهة أخرى ، وهي الإنكار عليهم الإغراق في الماديات . وكان تكرير الأمر لهم بالتقوى والطاعة وعدم خسرانهم شيئا من الأجر له عليه السلام كفيلا بأن يتبعوه ويعلموا أن الدنيا متاعها قليل . وأن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون . ولكن شيئا من ذلك لم يكن فما كان منه عليه السلام إلا أنه أغلظ لهم القول بهذا الاستفهام الذي توالت بعده الجمل تفصل ما أجمل وتبين أنواع الماديات التي أغرقوا فيها . وتفرع على ذلك الأمر بما أمروا به أولا وهو التقوى والطاعة . ويمتد خيط الطاعة هنا ليشمل النهي عن طاعة المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون يقول الله تعالى : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [١٤٦ – ١٥٢] .

وقد بدئ هذا المقطع بجملة الاستفهام ، وقبله جملة خبرية ـ والفصل بينهما لكمال الانقطاع . وليس معنى الانقطاع أن المعانى منقطعة ، أو أن الأغراض متشاردة فهذا لا يكون فى الكلام البليغ فضلا عن الكلام المعجز وإنما المعانى متواصلة والغرض واحد كما سبق بيانه فإذا كان قوله ﴿إن أجرى إلا على رب العالمين﴾ تبين أن أجره على الله وحده لا غير . وهو وحده الذى يقدر ثوابه وجزاءه . فمعلوم أن ذلك سيكون يوم البعث فهى تومئ إلى إنكارهم لهذا اليوم وأنه حق لا ريب فيه . ولذلك جاء إنكاره عليهم وتوبيخه لهم . على ركونهم إلى الملذات الدنيوية ركون من يظن أنه خالد فى الدنيا وأنه آمن من عذاب يوم عظيم " ولذلك خاطبهم بالاستفهام الإنكارى التوبيخى وهو فى المعنى إنكار على ظنهم ذلك ، وسلط الإنكار على فعل الترك لأن تركهم على تلك النعم لا يكون فكان إنكار حصوله مستلزما إنكار اعتقاده .

وهذا الكلام تعليل للإنكار الذى فى قوله ــ ألا تتقون ــ لأن الإنكار عليهم دوام حالهم يقتضى أنهم مفارقون هذه الحياة وصائرون إلى الله .

وفيه حث على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا الله عليها كما قال صاحب الحكم ــ من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها "[١] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٩ / ١٧٤ .

وقد أجملت جملة الاستفهام ما هم فيه من النعم بقولها — فى ما ههنا — إشارة إلى النعم الحسية . و— آمنين — إلى النعمة التى تمكنهم من التلذذ وهى نعمة الأمن وفصل هذا الإجمال بقوله ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ٠

وهذه النعم الموجودة فى السهول المشار إليها فى سورة الأعراف ٠

وأشار إلى نحتهم البيوت فى الجبال . ولكنه هنا زاد على ما فى الأعراف بيان حالهم فى النحت وهو قوله — فرهين — مشتق من الفراهة وهى النشاط والحذق والاهتمام . يفعلون ذلك أشرا وبطرا وذلك دليل قوتهم الجسدية ٠

وباستقصاء النظر إلى تلك النعم تظهر كما يلى :

١ – استخلافهم فى الأرض بعد قوم عاد ٠
٢ – تمكينهم من اتخاذ القصور فى السهول ٠
٣ – تعدد الجنات والعيود والزروع ٠
٤ – نحت البيوت فى الجبال . يشتون فيها ٠
٥ – أنهم أصحاب صنعة ونشاط فى النحت ٠
٦ – توفر لديهم نعمة الأمن ٠

وأحيانا يدلهم على تلك النعم إجمالا كما فى قوله تعالى :



١ – في ما ههنا ٠

٢ – فاذكروا آلاء الله ٠

٣ – هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ٠

وقد فرع على ذكر هذه الاستدلالات المعنوية والحسية التي توجب الاتباع الأمر بالتقوى والطاعة فقال ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ ٠

وقد ذكرت جملة ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ قبل ذلك في رقم ١٤٤ والفاء فيها لترتيب ما بعدها على ما قبلها . ثم علل للأمر بالتقوى والطاعة بقوله ﴿وما أسئلكم عليه من أجر﴾ ٠

ثم جاء بالجملة مرة ثانية في رقم ١٥٠ بالفاء كذلك لترتيب ما بعدها على ما قبلها.ثم علل لهذا الأمر بقوله﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ ٠

والتكرير للتأسيس والتنبيه على أن كل جملة مستقلة بذاتها وأنها مع ما هي مترتبة عليه وعلتها كافية في إيجاب الأمر بالتقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعت كل الدلائل على إيجاب ذلك ؟[1] ٠

وهذا التكرير تقرير للعرض الأول ـــ ألا تتقون ـــ وإذا كانت الجملة الأولى ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ شفعت بالحديث عن تنزهه عليه السلام من الطمع في الأجر وأن أجره على الله ٠

---

(١) ينظر المرجع السابق ٠

فإن الجملة الثانية ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ شفعت بالنهى عن طاعة المسرفين من أئمة الكفر ورؤوس الضلال . الموصوفين بقوله ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ ٠

وذلك يؤكد أن كل جملة لها استقلاليتها فى السياق وتأمل المبالغة فى قوله ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ "ونسبة الإطاعة إلى الأمر مجازا وهى للآمر حقيقة وفى ذلك من المبالغة ما لا يخفى ٠

ويجوز أن تكون الإطاعة مستعارة للامتثال لما بينهما من الشبه فى الإفضاء إلى فعل ما أمر به أو مجازا مرسلا عنه للزومه له ٠

ويحتمل أن يكون هناك استعارة مكنية تخييلية"[1] والتعبير عن إفسادهم فى إطار جملة الصلة وبالفعل المضارع . يدل على وقوعه بالفعل ومعلوم لهم ومتجدد فيما بينهم فى ذواتهم وفى غيرهم . فهم فاسدون . ومفسدون ٠

ثم قرر ذلك على أبلغ وجه بقوله ـ ولا يصلحون ـ دفعا لما قد يظن أن فسادهم يمكن أن يتخلله إصلاح فجاءت هذه الجملة تبين كمال فسادهم وأنه لم يتطرق إليه شائبة من شوائب الإصلاح . وكفى بذلك مذمة لهم على ضلالهم وإضلالهم ٠

(١) روح المعانى ١٩ / ١١٣ ٠

نقل الحوار وتهافت القوم فى الجواب :

بعد أن وعظهم صالح عليه السلام . وأقام من نفسه ومن نعم الله عليهم الأدلة على وجوب التزامهم بالتقوى والطاعة ٠

ولم يجدوا خللا فى براهينه ، وظهر عجزهم أمام أدلته القاطعة نقلوا الحوار من هذه الحقائق إلى شئ متهافت مرجعه إلى التخييل والسحر . فماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٥٣ ــ ١٥٤] ٠

وهذا شأن العاجز الضعيف أمام نور الحق . يفر من مواجهة الحق إلى أوهام السحر وأباطيل السحرة فهؤلاء زعموا أن ذلك من صالح عليه السلام أثر من آثار السحر الشديد ٠

وهى صورة من صور الرفض لدعوته والتكذيب له . وقد بنوا الجملة على وضع ينبئ عن ذلك . وجملة مقول قولهم اشتملت على الجمل التالية :

١ – إنما أنت من المسحرين ٠
٢ – ما أنت إلا بشر مثلنا ٠
٣ – فأت بآية إن كنت من الصادقين ٠

فالجملة الأول وضعوها فى ظلال ــ إنما ــ الدالة على القصر أى قصره عليه السلام ــ أنت ــ على كونه من المسحرين ــ قصر

موصوف على صفة ، قصر قلب أى هــو مــن المســحرين لا مــن الراشدين .

واختيرت ــ إنما ــ لأنها تجعل ما بعدها فــي الحكــم الأمــر المعلوم ولذا قال عبدالقاهر "اعلم أن موضوع ــ إنما ــ على أن تجــئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة"(١).

وهذا ما أرادوا ترويجه عن صالح عليه الســلام ــ بــأن هــذا الإدعاء أمر ظاهر معلوم للجميع .

وصياغة ــ المسحرين ــ اسم مفعول من سحره بالتشديد تــدل على كثرة السحر الذى تعرض له وأنه متمكن منه .

كما أن جمعه يعزز الاتصاف بالسحر الشديد . لأن الجمع أبلــغ من الإفراد . لو قالوا إنما أنت مسحر ــ وكأنهم يقولون له . أنت مــن الجماعة الموصوفين بالسحر والمشهود لهم بذلك ومثــل هــذا جديــر بالتكذيب .

" ونقل البغوى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن معنــاه مــن المخلوقين المعللين بالطعام والشراب ، يقال: سحره أى علله بالطعــام والشراب ، ويؤيده تفسيره بقولهم إشارة إلى أنه لا يصلح للرســالة ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ (٢) .

---

(١) دلائل الإعجاز / ٣٣٠ .
(٢) نظم الدرر ١٤ / ٧٦ .



فهم قد جعلوا كونه مسحرا منافيا للرسالة وقد أكدوا هذا المعنى بقولهم ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ ولذلك لم تدخل ــ الواو ــ بين الجملتين ، كما دخلت ف قصة شعيب ٠

وفى الجملة الثانية قصروه عليه السلام على البشرية قصر موصوف على صفة قصر قلب أو إفراد ٠

ومرادهم بذلك نفى الرسالة عنه عليه السلام ، لأن الرسالة فى زعمهم تنافى البشرية لاعتقادهم أن الرسول يكون ملكا . وكأنهم يرون أن البشر ليس له قدرة على التسامى والعلو الإيمانى حتى يمكنه أن يتلقى عن الله عزوجل ٠

وإنما الجدير بذلك هم الملائكة ، وقد ناقشهم القرآن فى أول سورة الأنعام وأبطل دعواهم .[1] ٠

ولم ينفوا الرسالة ابتداء بأن يقولوا ــ لست رسولا ــ وإنما قالوا ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ ومرادهم ــ لست رسولا ٠

" لأنه فى زعمهم أبلغ إذ كأنهم قالوا أنكرتم ما هو من الضروريات وهو ثبوت البشرية وأنتم لا تتعدون الإتصاف بها إلى الاتصاف بنقيضها الذى ثبتت معه الرسالة .. "[2].

---

(١) تنظر الآيتان ٨ ــ ٩ ٠
(٢) شروح التلخيص ٢/ ٢١٨ ابن يعقوب ٠

واختاروا النفى والاستثناء مع هذه الجملة . لأنه يستعمل فى الأمر الذى ينكره المخاطب ويشك فيه أو لما هو منزل هذه المنزلة.

وصالح عليه السلام لا ينكر بشريته وإنما لما أصر على تبليغ الرسالة وهى عند القوم تنافى البشرية . نزلوه منزلة المنكر . وذلك باعتبار حال المتكلم واعتقاده فى المخاطب.

وحول نظير هذه الآية من سورة إبراهيم وهى قوله تعالى : ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ ــ يقول عبدالقاهر "إنما جاء والله أعلم بـإن و ــ إلا ــ دون إنما ــ فلم يقل ــ إنما أنتم بشر مثلنا ــ لأنهم جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشرا مثلهم.

وادعوا أمرا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر . ولما كان الأمر كذلك . أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعى خلافه .. "[1].

ويبدو أن قوم صالح لم يغلظوا له فى الجواب من أول الأمر ولكنهم ترقوا من اللين إلى الشدة ولعل ذلك مرده إلى أن صالحا عليه السلام كان قد ترفق بهم . ولان فى خطابهم فكانوا معه كذلك . ويتجلى هذا الترقى فى هذا الجواب . فقد استخدموا فى الجملة الأولى ــ إنما ــ وهى من الأدوات التى تتضمن النفى وهو فيها مخبوء

(١) دلائل الإعجاز ٣٣٣ .



وخافت ، وليس له من الجهارة ومن القوة ما للنفى فى ـ مـــا ـ و ـ إلا ـ[١].

كما أنها أداة رقيقة هامسة بخلاف النفى والاســـتثناء ففيـــه مـــن الجهارة والقوة والحدة ما فيه ، وكل ذلك ينعكس على المعـــانى التـــى تأتى فى ظلالهما . ولذلك جاءت الجملة الثانية بالنفى والاستثناء وكأنها تعبر عن الحدة والانفعال الذى تلبس به القوم . ولم يكن لهم بعـــده إلا طلب ما يكون به عليه السلام صادقا .

وهو ما تشير إليه الجملة الثالثة . وقد صدروها بالأمر ـ فـــأت ـ وهو المجئ بسهولة وكأنهم طلبوا منه آية تثبت صــــدق دعـــواه . ولكنهم كانوا فى شك من هذا بدليل استخدام أداة الشـــك ـ إن ـ فـــى قولهم ﴿إن كنت من الصادقين﴾ ولعل ذلك يوجه الأمر فى قولهم ـ فأت ـ إلى معنى التعجيز . وهو تعجيز نبع من عنادهم وكفرهـــم. ولكنه دمغهم وأشار إلى حجته الظاهرة وبرهانه الساطع قائلا هذه ناقـة ـ فأشار إليها حاضرة وأخبر عنها بما يدل علـــى عظمتـــها ، وذلـــك بتنكيرها ـ ناقة ـ وهذا التنكير فى دلالته يلتقى مع دلالة الإضافة فـــى قوله ـ ناقة الله ـ كما جاء فى الأعراف . فهى عظيمة فى ذاتـــها ـ ناقة ـ وعظيمة بإضافتها إلى الله ـ ناقة الله ـ وذكـــر مـــن ملامـــح عظمتها أن لها نصيبا من الماء وهم لهم نصيب كذلك . وهذا يوحـــى

---

(١) يراجع دلالات التراكيب ١٤٩ .

بالتزام الحيوان لما قسمه الله له . وهذا وحده كاف للإنسان . صاحب العقل والبصر ٠

فإذا كان الحيوان قد التزم بما أراده الله منه . فهل يليق بالإنسان العاقل أن يكون أقل من الحيوان التزما ؟

وهذه الآية دلت على كيفية قسمة الماء . بأن لها يوما وللقوم وأنعامهم يوما . وذلك قوله ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ وأما آية القمر فقد أخبرت بأن الماء مقسوم بينهم وأن على كل الحضور في يوم نصيبه . وذلك قوله تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَاءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر / ٢٨] ومعلوم أن الإخبار بكون الماء قسمة بينهم سابق على بيان كيفية القسمة . وذلك ما دل عليه ترتيب النزول فسورة القمر أسبق نزولا من الشعراء ٠

جملة النهي واختلاف الدلالة :

بعد حديث صالح عليه السلام عن الناقة وقسمة الماء بينها وبين القوم . جاء تحذيره من مسها بسوء بقوله ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ وجاءت هذه الجملة في سورة الأعراف ٠

ولكنه هناك قدم لهذا النهي بالأمر بقوله ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ ثم أعقبه بقوله ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ وهذا النهي وإن كانت دلالته عامة

يتناول كل سوء يمس الناقة إلا أنه يمكن أن نقول إن النهى عن مسها بسوء جاء فى الأعراف بعد الأمر بتركها تأكل فى أرض الله فيكون النهى منصبا أساسا على الإساءة لها فى الأكل .

وأما فى الشعراء فقد جاءت جملة النهى بعد أن علم أن لها يوما فى الشرب ولهم يوم كذلك . فيكون النهى منصبا أساسا على التعوض لها بسوء فى يوم شربها — فيكون المعنى المحورى لجملة النهى فى الاعراف عدم التعرض لها بسوء من ناحية الأكل . وفى الشعراء عدم التعرض لها بسوء من ناحية الشرب . وهذان المعنيان المحوريان لا يلغيان الدلالات التى تتبع التعبير الأصلى وهى عدم التعرض لها بسوء فى كل شئ ومعنى ذلك أن السياق من شأنه أن يوجه جمله النهى ولو اتحدت فى ألفاظها لتصبح ذات دلالة خاصة فى كل سياق .

ولعل اختلاف الدلالة هذا هو الذى أدى إلى اختلاف الفاصلة فى كلتا الآيتين . ففى سورة الأعراف قال — ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ وفى الشعراء قال ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ فقد اكتفى فى الأعراف بوصف العذاب بأنه مؤلم ولكنه فى الشعراء لم يصف العذاب وإنما وصف يوم العذاب وهو أبلغ فى عظم العذاب لأنه وصف لكل ما يحل عليهم فى هذا اليوم وهو من المجاز العقلى . وكان الأمر كذلك لأن المنع من الشرب أقسى ألما وأشد ضررا من المنع من الأكل . لذلك كان الوعيد عليه أبلغ من الوعيد على المنع من الأكل .

ويمكن القول بأنه ترقى فى الوعيد من البليغ إلى الأبلـــغ طبقـــا لحال القوم فى الرفض والإنكار . بدلالة أن الأعراف أسبق فى النزول من الشعراء.

وأما فى سورة هود فقد ختمت الآية بقوله ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ فوصف العذاب بالقرب لمناسبته لقوله تعالى : ﴿تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام﴾ وهكذا اختصت كل فاصلة بدلالة طبقا لسياقها .

فهى أولا ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ .

فهى ثانيا : ﴿فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ .

فهى ثالثا : ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ .

فلا تنافى بين ثلاثتها . وأنه عليه السلام كان فى كل مقام يوجـــه الإنذار والوعيد بما يتفق مع حال القوم . وتنقل الدعوة من طور إلـــى طور.

الفاء بين المبادرة بالحدث والاستمرار فيه :

بعد أن بذل صالح عليه السلام النصح لهم . وأخلص فى دعوتهم وذكرهم بنعم الله عليهم . وقابلوه بإنكار الرسالة بحجة أنه بشر مثلهم . فطالبوه بآية دالة على صدقه فكانت ناقة الله . فـــإذا بـــهم يبادرونـــه بالتكذيب ولم يتركوا لأنفسهم فرصة للتأمل والتفكر فيما يدعوهم إليـــه

حتى يعلموا أنه الحق من ربهم . ولكن العناد والاستكبار غلب على عقولهم وكان رد فعلهم ·

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۝ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ فقد توالت هذه الأحداث مقرونة بالفاء الدالة على التسبب والتعقيب والاتصال . فالفاء في قوله ــ فعقروها ــ دالة على تسرع هؤلاء الحمقى في ارتكاب هذه الجريمة . وإذا اعتبرنا أن العقر كناية عن التكذيب . بل إنه دليل التكذيب والطغيان ·

فإذا كانت الناقة دليل صدق نبوة صالح عليه السلام فإن عقرها دليل تكذيب القوم وإفسادهم في الأرض ، والفاء أشارت إلى المبادرة بالتكذيب ·

وعلى الرغم من أن طريق المحاورة تدع فرصة للمخاطب أن ينظر ويتأمل فيما يلقى إليه وأن مجيء الجمل فيها على طريق الاستئناف البياني تدعو المخاطب للتفكير فيما يقول المتكلم وفيما يثيره كلامه في نفس المخاطب من استفسارات هي أشبه بلحظات التأمل والمراجعة ·

ومع ذلك ضرب القوم بكل هذه المعايير عرض الحائط وجاءت ــ الفاء ــ في قوله ــ فعقروها ــ تنبئ عن ذلك ·

وكأن هذا الزمن المديد الذى دعاهم فيه صالح عليه السلام قـــد طوى طيا ، ولم تكن له ثمرة . حيث لم تؤثر فيهم دعوة . ولـــم يجـد فيهم إنذار . والزمن بثمرته . فإن لم تكن فيه ثمرة فهو فى حكم العدم.

وتأتى الفاء الثانية ــ فأصبحوا نادمين ــ ومعلوم أن ندمهم لـــم يكن ندم توبة لأنه كان وقت معاينة أمارات العذاب ، ولا تنفـــع فيــه التوبة كما قال الله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ [النساء/ ١٨] .

وإنما ندموا إما :

ــ على عقر الناقة لتحقق العذاب .

أو عند رؤية البأس فلم ينفع .

ــ أو أن ذلك كناية عن أن حالهم صار حال النادم لا أنه وجـــد منهم ندم على شئ ما[١].

والثابت من نصوص القرآن أنهم بعد العقر كانت لهم أحوال:

١ - العتو ــ فعقروا الناقة وعتوا ــ

٢ - التمتع ــ فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ــ

٣ - الندم ــ فعقروها فأصبحوا نادمين ــ

---

(١) نظم الدرر ١٤/ ٧٩ .



٤ - الدمدمة ــ فعقروها فدمدم عليهم ربهم ــ

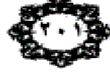
وهذه الأحداث التى تعاقبت عليهم تدلنا على أن القوم لم يصبحوا نادمين بعد العقر فقط وإنما بعد أن عقروها وعتوا أى وصلوا إلى حالة لا سبيل إلى إصلاحهما أو مداواتها . وأخبرهم صالح عليه السلام بزمن قرب العذاب وهو ثلاثة أيام فأصبحوا نادمين ــ وقد طوت الفاء هذه الأحداث وكأن ندمهم كان تابعا ومتسببا عن عقر الناقة . بل موصولا بها ٠

وتأتى الفاء الثالثة ــ فأخذهم العذاب ــ لتدل على استمرار الندم وتتابعه دون انقطاع لمشاهدتهم أشراط العذاب ، وكأنه صفة ثابتة لهم حتى جاء العذاب وتدل كذلك على اتصال زمن الندم بأخذهم بالعذاب . فالفاء هنا أشارت إلى مساحة زمانية محددة وهى ثلاثة أيام . والتعقيب فى كل شئ بحسبه كما يقولون ٠

الجملة الدالة على الاعتبار :

وتأتى جملة الختام مشيرة إلى موطن العبرة والاتعاظ فى القصة بقولها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٠

وقد أكدت الآيتان الدعوة إلى التأمل والتفكير فى مصائر المكذبين وقد أفصحت الصياغة عن هذا التأكيد بـ ــ إن واسمية الجملة واللام ٠



وقد سجلت هذه الدعوة عقب كل قصة واتحاد ألفاظها وتكرارهـا يدل على ارتباطها بما جاء تعقيبا على موقف قريش مـن الرسـول ﷺ كما أشرنا إليه فى مطلع السورة ·

العبرة والعظة لقريش ولكل من يقف موقف التكذيب من القـرآن والرسول عليه الصلاة والسلام . وفى ذلك أعظم تسلية للرسـول ﷺ وأكبر تخويف للناكبين عن الصراط المستقيم . وأشد استعطافا لكل ذى قلب سليم ·

المشهد الرابع فى سورة النمل
من آية ٤٥ إلى ٥٣

ويأتى هذا المشهد فى سورة النمل وهى التالية لسورة الشعراء فى الترتيب المصحفى والتالية لها كذلك فى الترتيب النزولى فهى الثامنة والأربعون بعد الشعراء من السور المكية .

تشابك المعانى وتعانق المبانى :

تبدأ سورة النمل بالحديث عن معجزة القرآن الكريم الذى تحدى الله به العرب . فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، وافترقوا فى شأنه ، بين مؤمن به وكافر فكان هدى وبشرى للمؤمنين ، وكان عمى للكافرين .

فيقول الله تعالى : ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل / ١ ــ ٤] .

وتأتى الإشارة إلى مصدر القرآن بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ فيخاطب الرسول ﷺ بأن جبريل عليه السلام تلقاه من الله ليعطيه النبى ﷺ وهذا يدل على علو طبقته وفخامة شأنه .

" وفى الوصفين الشريفين ــ حكيم عليم ــ مناسبة للمعطوف عليه وللمهد إليه . فإن ما فى القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به ، وأن ما يذكر هنا من القصص وما يستخلص منها من المغازى والأمثال والموعظة . من آثار حكمة وعلم حكيم عليم . وكذلك ما فى ذلك من تثبيت فؤاد الرسول ﷺ "(١).

كان هذا هو مطلع السورة . وقد اشتمل على هذه العناصر :

١ – مجئ الوحى من الله عزوجل وكان معجزة .
٢ – تلقى النبى لهذا الوحى وتبليغه .
٣ – افتراق الناس فى شأن الوحى إلى مؤمن وكافر .
٤ – الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين .
٥ – أن كل أفعاله عزوجل مبنية على العلم والحكمة .

وبعد ذلك أخذت السورة تجلى هذه العناصر من واقع قصص الأنبياء . تثبيتا لقلوب المؤمنين وتخويفا للكافرين . وتسلية للرسول الأمين ﷺ .

فذكرت قصة موسى عليه السلام وكيفية الوحى إليه وإرساله إلى فرعون وقومه وموقفهم منه كما قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٣ ــ ١٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٢٤ .

كما ذكرت قصة سليمان عليه السلام وقد أصلت لها بذكر أبيه ـ داود ـ عليه السلام وذلك باعتبار وراثة سليمان لمملكة أبيه سياسة وعلما ونبوة وكيف دعا ملكة سبأ إلى الإسلام ونبذ الشرك وعبادة الشمس من دون الله تعالى حتى ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ .

وهذا هو موقف الناس من رسل الله عزوجل منهم من يعلن البراءة من الشرك والظلم للنفس ويثوب إلى نور الإسلام . كما دعا إليه رسل الله .

ومنهم من يجحد بآيات الله ويصر على ظلمه وتكبره وتلك مثل لتثبيت قلب الرسول محمد ﷺ فهو واحد من الرسل الكرام ، يتعرض لمثل ما تعرضوا له والمصير واحد لا يختلف وهو نجاة المؤمنين وعذاب الكافرين .

وتأتي قصة صالح عليه السلام بعد ذكر القصتين السابقتين فتتشابك المعاني وتتعانك المباني في تلك القصص على دعم العناصر السابقة . وهي تشير في إجمال إلى العناصر التالية :

١ – إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود .
٢ – الاختصام في شأنه إلى فريقين .
٣ – المحاورة بينه وبينهم .
٤ – تبيتهم للمكر به .



٥ - مكر الله بهم وإهلاكهم ٠

٦ - نجاة المؤمنين ٠

فأما إرسال الله عزوجل صالحا لقوم ثمود فنلاحظ أن ما كان محذوفا في الأعراف وهود من القسم وفعل الإرسال قد ظهر في النمل ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [٤٥] لأنه لم يسبقه في السورة ما يدل عليه وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ فهو من عطف القصة على القصة٠

ولما كان فعل الإرسال متضمنا معنى القول دون حروفه فسر بقوله ـ أن اعبدوا الله ـ فهي جملة تفسيرية كاشفة عن حقيقة الإرسال، ولعله اكتفى هنا بالأمر بالعبادة دون ما جاء في الأعراف وهود: ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ تعويلا على ذلك المذكور. وكأنه حذف من هنا اعتمادا على الذكر هناك. فهي قصة واحدة أو أن ذلك إشارة إلى مواقف متعددة ، فهناك مواقف تتطلب التلطف والاستمالة والإطالة لتحديد الأمر المطلوب. وهناك مواقف تستدعي الإيجاز وهذا واحد منها ٠

وفرع على هذا الأمر : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ وهذان الفريقان مناظران لما كان من موقف الناس من دعوة محمد ﷺ ومن دعوة سائر رسل الله ٠

وقد بنيت الجملة على وضع يدل على مبادرتهم إلى الانقســـام . حيث جاءت الفاء الدالة على التعقيب والسرعة . مقرونة بإذا الفجائيـــة الخاصة بالجمل الاسمية والدالة على الحال كما في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ٠

فعلى الرغم من وقوع محاورات بين صالح عليه السلام وبيــــن قومه . ومحاورات بين المستكبرين والمستضعفين من أول الأمـــر إلا أن هذه الفاء طوت هذه الأحداث وجعلتها كأن لم تكن وذلك لحــــدوث هذا الانقسام غير المتوقع . ثم إن ـــ إذا ـــ الفجائية بدلالتها على الحال قد أعانت على أن هذا الانقسام قد حدث لساعة دعوتهم . وهى تؤكـــد التعقيب وهو في كل شئ بحسبه كما يقولون ٠

والتعبير عنهم بالفريقين إشارة إلى المفارقة العجيبة التى لم تكـن متوقعة منهم . وأن هذا الفراق الذى حدث لم يكن مترقبــا حصولـــه . ولذلك فإن الجملة تفوح بروح التحسر والتحزن على ما كان منهم لمـــا توحى به كلمة ـــ الفرق ـــ من معنى الانفصـــال والفريـــق الجماعـــة المتفرقة عن آخرين . كما يقول الراغب وجاء الوصف ـــ يختصمـــون ـــ يؤكد معنى التباعد والانفصال . لا بين مجموع الفريقين . وإنما بين أفراد كل من الفريقين . وذلك من منطلق صيغة الجمع حيث لم يقل ـــ يختصمان ـــ وإنما الجمع أكد معنى الخصومة وكأن كل فرد من أفـــراد الفريقين خصم للآخر . كل مؤمن خصم لكل كافر ، وقد دلـــــت آيـــة

الأعراف : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ على حقيقة الفريقين المختصمين . وهما ــ الكافرون المستكبرون والمؤمنون المستضعفون ــ وعلى موضوع الخصام وهو صالح عليه السلام ودعوته : ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه . .﴾ الآيات .

وقد علم من العرض السابق للقصة فى الأعراف والشعراء. وهما أسبق نزولا من النمل ، أن الكافرين تهكموا بصالح عليه السلام. ولم يعتبروا بالوعيد الذى حذرهم منه ــ بقوله : ﴿فيأخذكم عذاب أليم ــ فيأخذكم عذاب قريب﴾ وقالوا له : ﴿ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ــ فأخذتهم الرجفة﴾ فيأتى العرض فى سورة النمل يكمل ما خلا منه فى سورة الأعراف وهى قوله تعالى : ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾ .

فموقع هذه الآية يكون بعد قولهم : ﴿ائتنا بما تعدنا﴾ ولذلك جاءت مفصولة على طريق المحاورات القرآنية لأنها تمثل جواب صالح عن اختصامهم فى شأنه وطلبهم إتيان العذاب . وقد أجابهم صالح عليه السلام بجواب التلطف والإشفاق ثم الإنكار والعتاب ــ قال يا قوم ــ لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة .

وقد اتضح من سياق الآيات . أن السيئة التي استعجلوها إما أن تكون هي المبادرة بتكذيبه دون تصديقه كما في الآيات الواردة في المشاهد الأخرى ومنها :

- أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه .
- قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون .
- أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا .
- وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب .
- كذبت ثمود المرسلين .
- كذبت ثمود بالنذر .
- كذبت ثمود بطغواها .

وإما أن تكون المبادرة بطلب العذاب دون التوبة كما ورد في الأعراف : ﴿ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ ولا شك في أن لفظ الآية ـ السيئة والحسنة ـ يحتمل المعنيين .

وطلب السيئة بهذا الاعتبار وضع معكوس . وتفكير منكوس ـ ولذلك بعد أن أنكر صالح عليه السلام عليهم هذا المسلك دفعهم دفعا إلى البديل ، وحرضهم عليه بأداة التحضيض وهي ـ لولا ـ الدالة على التحضيض وتختص بالفعل المضارع كما هنا ﴿لولا تستغفرون الله﴾ والتحضيض طلب بحث وإزعاج[1] .

---

(١) ينظر مغني اللبيب ٣٦١ .

وقد بين الغاية من ذلك بقوله ﴿لعلكم ترحمون﴾ وقد جاء هذا المعنى وهو الحض على الاستغفار فى سورة هود بلفظ الأمر فى قوله ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ .

وسورة النمل أسبق نزولا من هود . ولذلك كان الحض على الاستغفار مرحلة أولى . ثم تطور إلى الأمر بالاستغفار ، وشفع هنا بالرحمة وهناك بالتوبة . فينتظم من مجموع الأمرين معالم طريق الإيمان ــ الاستغفار ــ التوبة ــ الرحمة .

جملة الجواب النابع من معتقد القوم :

ويستمر الحوار بين صالح عليه السلام وبين قومه وكلما أفحمهم بحجته الساطعة وألزمهم بمنطقة الحق ، ولم يجدوا مخرجا من هذا الحق الذى يحيط بهم تعللوا بعلل واهية يستقونها من معتقداتهم الباطلة . وقد مر بنا جوابهم الأول فى سورة الشعراء وهو قولهم ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ .

وهذا هو جوابهم الثانى وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [٤٧] .

فالجواب الأول كان منطلقه أن الرسول لا يكون بشرا والجواب الثانى كان منطلقه التطير والتشاؤم وذلك لأن العرب وثمود منهم كانوا

يدينون بهذا الاعتقاد الفاسد بأنهم إذا خرجوا فى سفر نظروا إلى حركة الطير . فإن مرسا نحا أى من اليمين إلى اليسار تيمنوا وإن مر بارحا أى من اليسار إلى اليمين تشاءموا وإن كان الطير جاثما أثاروه ليعرفوا إلى أى جهة يسير . وتسمى هذه الإثارة زجرا ٠

وربطوا بين ذلك وبين ما يصيبهم من خير وشر وأصبحت هذه الحركة مناط التيمن عندهم والتشاؤم لأنهم نسبوا المسببات لغير أسبابها الحقيقة وجاء فى الحديث " الطيرة شرك " ٠

ثم غلب استعمال لفظ ـ التطير ـ فى معنى التشاؤم خاصة ولذلك جاء فى الحديث ـ لا عدوى ولا طيرة وإنما الطيرة على من تطير ـ

وجاءت صياغة الفعل ـ اطيرنا ـ بهذا الإدغام وأصله ـ تطيرنا ـ حصل الإدغام وجئ بهمزة الوصل للابتداء . فصار ـ اطيرنا ـ وهو بهذا الإدغام والثقل فى النطق دال على غلظة القوم وتكلفهم فى إعلان هذا المعتقد . وهو التشاؤم الذى نسبوه إلى صالح عليه السلام ومن آمن به ـ ولذلك قالوا ـ بك وبمن معك ـ أى بسبب دعوته وإيمان من آمن معه ، وهذا من أدل الأدلة على سخافة عقول القوم . وضعف فكرهم ، إذ يسندون الأحداث إلى ما يقارنها دون نظر إلى الأسباب الحقيقة الباعثة عليها . فما وافق رغبة عندهم تيمنوا به وما عارض شهوة عندهم تشاءموا منه ، فمرجع ذلك إلى أحوال نفوسهم وحاجاتهم الشخصية ٠

ولذلك قال الله عزوجل عن قوم فرعون : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف / ١٣١] وقال الله عن أهل قرية ــ أنطاكية : ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس / ١٨ ــ ١٩] ٠

فهذا المعتقد الفاسد سرى إلى كل الأقوام وبخاصة العربية وقوم فرعون وإن كانوا غير عرب لكنهم قالوه على الطريقة العربية وذلك بسبب العدوى التي سرت إليهم من العرب . فهم أقرب الأقوام إليهم . وأدواء المفاسد أسرع سريانا من أدوية المصالح ٠

وقد أجابهم صالح بالجواب الذي يبطل معتقدهم ويرد شؤمهم إلى أنفسهم ، وهو الجواب الذي سرى في مثل هذه المواقف كما جاء في سورة الأعراف:﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ وفي سورة يس:﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ ٠

ومن مجموع هذه المواقف نرى أن الجواب يتنوع إلى نوعين:

الأول : يذكر أن طائرهم عند الله ٠

الثاني : يذكر أن طائرهم معهم ٠

فطائرهم الذي عند الله ، وهو السبب الحقيقي في حلول العذاب بهم ، هو قدرة الله وقضاؤه بسبب سوء مقابلتهم لدعوة الرسل وذلك

على طريق المشاكلة . لقولهم : ــ وطائرهم الذى معهم ، وهو أيضــا السبب الحقيقى فى حلول العذاب بهم ، هو كفرهم وضلالهم المســتقر فى نفوسهم . وأطلق عليه الطائر مشاكلة .

وهكذا يتكامل الجوابان فمرة يلوح إلى قدرة الله فــى الانتقــام ، ومرة يلوح إلى الكفر وسوء استقبال المواعظ .

ويختم الجواب بهذا الإضراب ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ وهو ليـــس إضراب من قوله ﴿طائركم عند الله﴾ وإنما من قولـــهم ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ فهذا الإضراب يبين سبب تطيرهم بصالح عليه السلام وهو فتنــة الشيطان لهم ، وهذه الفتنة مستمرة ومتجددة طالما هذا ديدنـــهم وهــذا تفكيرهم بدليل المضارع ــ تفتنون ــ ومكن الفتنة فيهم بأن جعل الفعل وصفا لـــ ــ قوم ــ وكأن قوميتهم قائمة على الفتنة .

وكما قرئ ــ تفتنون ــ بالخطاب مراعاة لأنتم قرئ بالغيبـــة ــ يفتنون مراعاة لـــ ــ قوم ــ ولكن الخطاب أكثر وأرجح لأنه أدل على القوة فى توجيه التبكيت للقوم .

الجمل الدالة على مظاهر الفتنة :

ويمتد خيط الافتتان من الآية السابقة فــى قولــه ــ تفتنــون ــ ليلامس مظهرا من مظاهر تسلط الشيطان عليهم وفتنته لــهم . وذلــك قوله تعالى : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا



يُصْلِحُونَ ۞ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٤٨ ــ ٥٠] .

وقد بدأت الآيات بواو العطف العاطفة لهذا الجزء على الجزء السابق . وقيل إنها استئنافية ، وأردفت بـ ــ كان ــ الدالة على المضى المنقطع كما وضحنا فى أقسامها فيما سبق .

وذكرت الآية بعد ذلك ملابسات الافتتان من :

١ – المكان .

٢ – العدد .

٣ – حيثية الفتنة .

٤ – رد الفعل لفسادهم .

فأما المكان فهو ــ فى المدينة ــ وهى المدينة المعهودة للقوم وهى الحجر أو مدينة صالح عليه السلام.وقد أفصحت عنها آية الحجر : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وأما العدد فهو ــ تسعة رهط والرهط اسم جمع يطلق على العصابة دون العشرة كما قال الراغب . وفى الكشاف هو من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة وأصله على ما نقل عن الكرمانى من الترهيط وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل .

والنفر وهو ما دون العشرة يفهم منه التفريق . والرهط يفهم منه العظمة والشدة والاجتماع(١).

---

(١) ينظر روح المعانى ١٩ / ٢١٢ ونظم الدرر ١٤ / ١٧٦ .

وهذا يدل على أن هذا العدد لا يستهان به ، فله من العظمة والقوة والتجمع ما يجعلهم رؤوسا فى باب الشر والفساد . ولذلك جاءت الجملة الوصفية ﴿يفسدون فى الأرض﴾ دالة على قوة فسادهم واستمراره بما يشير إليه الفعل المضارع ـ يفسدون ـ وقوله ـ فى الأرض ـ وكأنهم تجاوزوا ـ المدينة ـ للإفساد فى الأرض أى أرض ثمود .

وتأكد ذلك بالجملة المعطوفة ـ ولا يصلحون ـ دفعا لما قد يتوهم من الجملة الأولى أن فسادهم قد يتخلله بعض الإصلاح ، أو أنهم يصلحون شيئا ما . فجاءت هذه الجملة كاحتراس من هذا الذى يمكن أن يتطرق إلى الذهن .

ويمتد الكلام لبيان وجه من وجوه الإفساد وكأن الذى وصفوا به من الإفساد كان مثيرا لسؤال فى الذهن . عن كيفية ذلك الإفساد .

فجاءت الجملة ـ قالوا تقاسموا...على طريق الاستئناف البيانى.

ويمكن أن نعتبرها جملة وصفية أخرى بعد الأولى لتسعة رهط . وكأنهم وصفوا مرتين مرة بطريق الإجمال ، ومرة بطريق التفصيل ، وذلك على وجه التعديد لمساوئهم .

والجملة الوصفية إما أن تكون فى محل رفع صفة لتسعة أو فى محل جر صفة لرهط .

وتسرى مظاهر القوة والشدة والتجمع فى تقاسمهم بـــالله وهـــى جملة مقول القول . وقد صرحوا فيها بفعل التحـــالف ــ تقاســموا ــ وبالمقسم به ــ بالله ــ وصيغة التقاسم تدل على التفاعل المنبـــئ عـــن تمام الرضا من كل واحد على ما بيتوه لصالح عليه السلام وأهله.

ومجئ الجواب مؤكدا بنون التوكيد الثقيلة ــ لنبيتنه ــ لنقولـن ــ يسير فى فلك القوة التى تذرعوا بها فى التآمر على قتل صالح عليـــه السلام وأهله . وقد أحكموا بابى هذه الجريمة من ناحيتين :

الأولى : ارتكاب الفعل . التبييت .

الثانية : البراءة من هذا الفعل .

فاما ارتكاب الحدث فقد اختاروا له زمن الغفلة وهـــو المباغتـة ليلاء فالبيات مباغتة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلا "[1] كمـــا قـــال الله تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ .

وقدموا ضمير صالح عليه السلام على أهله فى قولهم ــ لنبيتنـــه وأهله ــ لأنه الأهم عندهم وهو الذى يعنيهم أمره لأنه صاحب الدعـوة إلى الدين الجديد وسبب شؤمهم فيما يزعمون .

وأما البراءة من الحدث . فقد صاغوا جملة النفى على أبلغ مـــا تكون . حيث قالوا ــ ما شيدنا مهلك أهله ــ فهم قد نفـــوا حضـــور

---

(١) ينظر روح المعانى ١٩ / ٢١٣ والراغب ــ بيت .

المهلك "واختاروا نفى شهود مهلك أهله على نفى قتلهم إيـــاهم قصـــدا للمبالغة كأنهم قالوا ما شهدنا ذلك فضلا عن أن نتولى إهلاكهم . ويعلم من ذلك نفى قتلهم صالحا عليه السلام أيضا لأن من لم يقتـــل أتباعـــه كيف يقتله . وقيل فى الكلام حذف أى ما شهدنا مهلك أهله ومهلكـــه . واستظهره أبو حيان ثم قال وحذف مثل هذا المعطـــوف جـــائز فـــى الفصيح كقوله تعالى : ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أى والبرد[1].

وإذا كان ـــ مهلك ـــ يحتمل المصدرية أى الهلاك أو المكانية أو الزمانية . فكأنهم نفوا عن أنفسهم حضور الحدث ومكانه وزمانه وذلك أبلغ فى تبعيد هذا الجرم عن أنفسهم . وترويجا لما عزموا عليه عنـــد أنفسهم ختموا كلامهم بهذه الجملة الاسمية المؤكدة ـــ وإنا لصادقون ـــ والواو واو الحال . أو واو العطف ، فإذا كانت عاطفة فهى معطوفـــة على قوله ﴿ما شهدنا مهلك أهله﴾ فهى من جملة ما هيـــأوا أن يقولـــوه أى ونؤكد ـــ إنا لصادقون ـــ ولم يذكـــروا أنـــهم يحلفـــون علـــى أنـــهم صادقون"[2].

ومنهم من اعتبرها داخلة فى القسم . أى ونقول فى جملة القسم . تأكيدا للقسم . إيهاما لتحقق الصدق ، وإنا لصادقون .

---

(١) روح المعانى ١٩ / ٢١٣ .
(٢) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٨٣ .



فيا للعجب من قوم إذا عقدوا اليمين فزعوا إلى الله العظيم . ثـــم نفروا منه نفور الظليم . إلى أوثان أنفع منها الهشيم"[1].

وقال الزمخشرى " كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلـــوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

قلت : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله فجمعـــوا بين البياتين ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صـــادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما .

وقد بين ابن المنير أن هذه حيلة من الزمخشرى لإثبات قـــاعدة الحسن والقبح العقليين على مذهبه وذلك لا يتم لـــه ولا لـــهم . وهـــم كاذبون صريح الكذب فى قولهم ﴿ما شهدنا مهلك أهله﴾ وأنه لا حيلة لـــهم فى الخلاص من الكذب .. "[2] .

وذهب الشيخ سيد قطب إلى أن اعتبار صدقهم إنما هو باعتبـــار أن قتلهم صالحا وأهله يكون فى الظلام ــ فلم يشهدوا هلاكهم أى لـــم يروه بسبب الظلام . وهو احتيال ســـطحى وحيلـــة ســـاذجة ولكنـــهم يطمئنون أنفسهم بها ، ويبررون كذبهم الذى اعتزموه للتخلـــص مـــن أولياء دم صالح وأهله "[3].

---

(١) نظم الدرر ١٤ / ١٧٨ .
(٢) الكشاف ٣ / ١٥٢ وابن المنير عليه .
(٣) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٦٤٦ .

وعلى كل فإن جملة ـ وإنا لصادقون ـ بتأكيدها تدل على امتلاء نفوس القوم. وانفعالهم بهذا الذى عزموا عليه. وانقياد مشاعرهم وعواطفهم جميعا حتى صارت على أفجر قلب رجل واحد فهم صادقون فيما بينهم بدليل هذا التقاسم الذى أجمعوا أمرهم وشركاءهم عليه.

وإن كانوا فى واقع الأمر بينهم وبين الله كذبة أشرارا كذبوا صالحا فى دعوته، وكذبوه فى دليل نبوته ، فعقروا الناقة ، وكذبوه فى وعيده لهم بالعذاب ، وكذبوا كذلك فيما تقاسموا عليه ، وكان لابد من وضع حد لهذا الافتراء والتكذيب .

الجملة الدالة على تقابل القوى :

ويأتى قوله تعالى:﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٠] معبرة عن المواجهة بين فعلهم وفعل الله بهم ، وفعلهم كان مكرا على الحقيقة . ومادة ـ مكر ـ تدور حول الاحتيال فى خفية ، والخديعة وصرف الغير عما يقصده بحيلة والتدبير فيما يضر الخصم(١).

وإذا كان السياق يوجه هذا المكر إلى ما حاولوه من اغتيال صالح عليه السلام وأهله ، وما صنعوه من المفاسد المناوئة لدعوته عليه السلام . فإنه يمكن توجيهه إلى كل فعل عارضوا به دعوة صالح

---

(١) ينظر المفردات ولسان العرب ـ مكر ـ

عليه السلام فى القصة كلها ، ويكون قوله ــ ومكروا مكرا ــ تكثيفــا لما ورد فى القصة من مواقفهم الدالة على الرفض والإنكار ، إذ أنــها كلها كانت بدافع المكر والخداع والتضليل،ومجئ الفعل مؤكدا بالمصدر يعضد ذلك . وبخاصة أن هذا المكر من جانبهم قد وضعت له نهايــة . وهى ما عبر الله عنه بقوله ــ ومكرنا مكرا ــ والمراد به هلاك القــوم واستئصالهم . وذلك جزاء لهم على كل ما ارتكبوه من حماقــة تجــاه الدعوة وصاحبها فوضع ــ ومكرنا مكرا ــ بإزاء ــ ومكروا مكرا ٠

وإذا كان مكرهم عظيما كما تنبئ عنه الصياغة ، فإن مكــر الله كذلك ، وعبر عما نزل بهم بالمكر على طريق المشاكلة٠

ومن عظمة مكر الله تعالى أنه أوقعــه بــهم بغتــة ــ وهــم لا يشعرون ــ وهنا تفترق القوة البشرية عن القوة الإلهية ، ويفترق تدبير البشر عن تدبير العزيز الحكيم ، وتصبح قوة الله عزوجل أعظم مــن كل عظيم يتذرع به الناس ٠

وليس من المعقول أن يكون هلاكهم على مجرد التبييت لصــالح وأهله ، وإنما كان الهلاك من أجل ذلك ومن أجل تكذيبهم له مــن أول إعلانه الدعوة ٠

ولعل وصفهم بالإفساد والفساد فى الأرض قبل ذلك خير دليــل على تعميم مكرهم لكل مواقف الرفض والإنكار٠

ويدخل فى مكر الله بهم إسباغ نعمته عليهم كما جاء فى سورة الأعراف والشعراء . وإمهالهم قبل إتيان العذاب ، وهذا ما أشار إليه الراغب بقوله ــ وقال بعضهم من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا . ولذلك قال أمير المؤمنين ﷺ من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله " (١) .

وبذلك يعلم أن مكر الله يطلق على معنيين :

الأول : وهو الإهلاك وعذاب الاستئصال ٠

الثانى : وهو الإمهال فى التنعم قبل الهلاك ٠

جملة خطاب التسلية والاعتبار :

بعد العرض السابق لأحداث القصة . تأتى الجملة الدالة على المقصود من هذا العرض ، وهى قوله تعالى : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٠

وهى توجه نظر النبى عليه الصلاة والسلام إلى فعل الله عزوجل بهؤلاء القوم الكافرين . وذلك موطن التسلية والاعتبار ، إذ أن موقف النبى عليه الصلاة والسلام من قريش مثل موقف صالح عليه السلام من قومه ٠

---

(١) المفردات ــ مكر ــ ٠



وقد اقترنت الجملة بالفاء الدالة على السرعة والاستحضار في لفت نظر النبى عليه الصلاة والسلام إلى كيفية جزاء الماكرين والمنكرين لدعوة الله عزوجل والمكذبين رسله عليهم الصلاة والسلام.

والنظر – كما يقول الراغب – تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشئ ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص . وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية[1] .

والنظر فى الآية يتسع لكل هذه الدلالات وبخاصة من المأمور أولا وهو النبى عليه الصلاة والسلام . ويجرى على شاكلته أهل الإصلاح والتقوى فى كل زمان ومكان .

فهم مأمورون بالنظر فيما بين أيديهم من الآيات البينات والتأمل فيما تدل عليه من العبرة والعظة والفحص فيما تسوقه من المعرفة التى تذرع اليقين فى نفس المؤمن . بأن الله ناصر رسله ، ومتمم نوره ولو كره الكافرون .

وكذلك النظر إلى الآثار الباقية . وبخاصة آثار ثمود الباقية فى الحجر إلى الآن ، يراها السائرون من الجزيرة العربية إلى الشام . وقد مر بها الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه وهم فى طريقهم إلى غزوة تبوك . وقال : ﴿لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا

(١) مفردات الراغب – نظر –



﴿بأكثر أن يصيبكم مثل ما أصابهم﴾ فالنظر المأمور به ليس هو نظر البصر فقط وإنما هو النظر الذى يحرك البصيرة كذلك . فتستلهم العبرة والعظة من الآثار المادية والمعنوية .

وتأتى جملة الاستفهام ﴿كيف كان عاقبة مكرهم﴾ تفصح عن موطن العظة والاعتبار – وتبين أن مكرهم بصالح عليه السلام لم يذهب سدى. وإنما كان الله لهم بالمرصاد . وصدرت الجملة بـ "كيف" الاستفهامية الدالة على التعجيب من أحوالهم الماكرة والتوبيخ على أفعالهم المارقة ، والتحذير لغيرهم من مماثلتهم فى أفعالهم . حتى لا يكون جزاؤهم مثل جزائهم . وتأكيد ما قبلها من مكرهم ومكر الله بهم، وتحقيق ما بعدها من وقوع التدمير والهلاك بهم أجمعين .

وتأتى الجملة المفصحة عن عاقبتهم ﴿أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ وهى مرتبطة بما قبلها إما عن طريق البدل من – عاقبة مكرهم – وإما عن طريق الاستئناف البيانى بسبب سؤال تثيره جملة الاستفهام عن كيفية هذه العاقبة.

وعلى كل فهى توضح وتبين كيفية هذه العاقبة .

وقدم ضمير الرهط – دمرناهم – على – قومهم – لسبقهم إلى المعصية فكانوا أهم فى التدمير والهلاك وقد شاركهم قومهم فى ذلك. وقد أدى العطف والتأكيد دوره حيث لم يفلت أحد منهم من العذاب.



وبعد هذا البيان تقدم الآيات الدليل المادى الملموس وهو محل النظر لأخذ العبرة والعظة كذلك وهو قوله تعالى : ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ " والإشارة منصرفة إلى معلوم غير مشاهد لأن تحققه يقوم مقام حضوره فإن ديار ثمود معلومة لجميع قريش وهى فى طريقهم فى ممرهم إلى الشام "(١).

ووصفت البيوت بكونها ــ خاوية ــ وهى تعنى الخالية أو الساقطة المتهدمة . والمعنيان مرادان لأن ثمود كان لهم نوعان من البيوت . قصور فى السهول ، وبيوت منحوتة فى الجبال .

فأما القصور فقد تهدمت أعاليها على أسافلها، وأما البيوت التى فى الجبال فقد خوت من ساكنيها وما زالت آثارا وأطلالا باقية إلى الآن .

وتشير الآية إلى أن ما نزل بهم إنما كان بسبب ظلمهم ــ بما ظلموا ــ وهذا السبب عبر عنه بألفاظ متعددة . تؤخذ من سياق القصة كلها . وهى :

١ – الكفر .
٢ – الكبر
٣ – الإفساد
٤ – العتو
٦ – الظلم
٧ – الإعراض
٨ – المكر
٩ – العمى

---

(١) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٨٥ .



٥ – التكذيب ١٠ – الطغيان

وهذه الألفاظ العشرة هي في الحقيقة مظاهر لكفرهم ومنازع لشركهم . وهي في النهاية تؤول إلى الرفض والإنكار لدعوة صالح عليه السلام ، فهي صفات متداخلة وكما ذكر ابن عاشور "أن الحقائق العقلية لما كان قوام ماهياتها حاصلا في الوجود الذهني كان بين كثير منها انتساب وتقارب يرد بعضها إلى بعض باختلاف الاعتبار . فالشرك مثلا حقيقة معروفة يكون بها جنسا عقليا وهو بالنظر إلى ما يبعث عليه وما ينشأ عنه ينتسب إلى حقائق أخرى مثل الظلم أي الاعتداء على الناس بأخذ حقوقهم فإنه من أسبابه ومثل الفسق فإنه من آثاره . وكذلك التكذيب فإنه من آثاره أيضا .. "(١).

ثم تختم الجملة مكثفة ما فعله هؤلاء الظالمون ، وما فعله الله بهم في اسم الإشارة – إن في ذلك – وكأنها تستحضره مرة أخرى اهتماما به . وتؤكده لأنه محل العبرة والعظة التي يتعظ بها القوم الذين يعلمون – لآية لقوم يعلمون – وفي ذلك تعريض لقريش ، لأنهم يعلمون قصتهم وكان عليهم أن يعتبروا ويتعظوا ولكنهم أصروا على الجهل أو التجاهل . وآثروا العمى على الهدى ، ويمتد خيط التعريض إلى كل من حذا حذوهم وسار على نهجهم .

ولما كان قوله تعالى : ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ ربما أوهم أن الهلاك عم الفريقين . جاءت الجملة الأخيرة في هذا المشهد على سبيل

---

(١) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٨٦ .

الاحتراس من هذا الوهم لتعلن إنجاء الله لصالح عليه السلام ومن معه، فيقول الله تعالى : ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وقد اقتضى المقام هنا تقديم الحديث عن المهلكين لأن هذا المشهد كان يفصل موقف الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون. وقد تقاسموا على قتل صالح عليه السلام وأهله . وبيان مكرهم من أجل ذلك . وكيف مكر الله بهم . فدمرهم وقومهم أجمعين ٠

فامتد الحديث إلى بيان هلاكهم وخواء بيوتهم بسبب ظلمهم.فتناسق الكلام وتماسكت أجزاؤه،من أجل وحدة الموضوع الذى تظهره الآيات، فالتقى النظير مع النظير، الحديث عن الإفساد، والحديث عن الإهلاك ٠

وأما حديث النجاة فقد جاء لرفع توهم أن الهلاك عم الفريقين، فهو متفرع عن الهلاك ٠

وهذا على عكس ما ورد فى سورة هود . حيث كان الحديث عن نجاة صالح عليه السلام ومن معه مقدما فى الذكر على حديث الهالكين، كما سبق ذكره ٠

ويلاحظ أن فعل النجاة جاء هنا بالهمزة ــ أنجينا ــ وفى سورة هود وفصلت جاء بدونها ــ نجينا ــ ولعل مرجع ذلك إلى أن " النجاء فى الأصل ــ كما يذكر الراغب ــ الانفصال من الشئ . ومنه نجا فلان من فلان . وأنجيته ونجيته .. [1].

---

(١) المفردات ، نجو ٠



فإذا كان النجاء هو الانفصال من الشـــىء . فـــإن ــ أنجينـــا ــ بالهمزة تدل على الفصل التام والتميز الواضح لما تعطيه الهمزة مـــن القوة فى حدوث الفعل . وذلك لما يحيط بالناجين من كـــثرة المفاسـد والمكر . الذى يتطلب الهلاك والتدمير لهؤلاء المفســـدين المـــاكرين. فتأتى قوة الله عزوجل لتفصل وتميز بين الصالحين والطالحين . وهـذه القوة فى الإنجاء دليل على ما يحيط بها من قوة وعمق فـــى المفاسـد والمكر . والمشهد فى سورة النمل يعضد ذلك .

وأما ما ورد فى سورتى هود وفصلت فلم يكن من القوة والعمـق فى المفاسد والمكر مثلما كان فى النمل إذ قام المشهد فى سورة هـــود على المحاورة بين صالح عليه السلام وبين قومه وإمهاله لهم ثلاثة أيام . حتى جاء أمر الله ، فاقتضى المقام أن تذكر النجاة بدون الـــهمزة ــ نجينا ــ وفى فصلت ليس فيها أكثر من الحديث عن دلالة ثمود علـــى الهدى ، فاستحبوا العمى على الهدى وأخذتهم الصاعقـــة ، ونجـــى الله صالحا والذين آمنوا معه .

فالمفارقة بين ــ أنجينا ونجينا ــ ليست فى مجرد التنوع اللفظـى بين الفعلين . مرة بالهمزة ومرة بالتشديد ، ولكنه المقام المحيط بعمليـة الإنجاء .

فكلما كانت المفاسد أكثر كانت الحاجة إلى النجاة أقوى .

ولعل ذلك ينسحب على قولنا ــ وفى ــ وأوفى ــ فهو بالـــهمزة يحتاج إلى قوة وتعمل ومغالبة ولذلك جاء فى شـــأن المؤمنيـــن ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ .

ولكنه جاء فى شأن خليل الله إبراهيم عليه السلام بدون الهمزة ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾ إشارة إلى أن الوفاء طبعه وسلوكه وطريقه السهل ٠

ويتجلى هذا الفرق كذلك فى : سقى ـــ وأسقى كما ورد فى قول الله تعالى : ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ وفى قوله تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ ٠

فالأولى ـــ سقى ـــ واردة فى شأن المؤمنين فى الآخرة حيث يسقون دون تكلف أو معالجة٠

والثانية واردة فى شأن المؤمنين فى الدنيا حيث يسقون بتكلف ومعالجة ومغالبة ٠

وهذه النجاة كانت لمن اجتمعت فيهم الصفتان ـــ الإيمان والتقوى ـــ وكانتا صفتين متلازمتين لهم ، قد استمروا عليهما وتمكنوا منهما ، فبالإيمان انفصلوا عن الكافرين ، وبالتقوى وضعوا بينهم وبين غضب ربهم وقاية ، فاستحقوا النجاة . ولكن إلى أين كانت النجاة ؟

هل عادوا إلى ديارهم بعد هلاك قومهم ؟
هل ذهبوا إلى اليمن ونزلوا بحضرموت ؟
هل ذهبوا إلى مكة ؟ أو نزلوا بالرس ؟
هل ذهبوا إلى الرملة بأرض فلسطين ؟

بكل قال العلماء وليس فيها خبر يوثق به .. ولو كان في معرفته ما يفيد لذكره لنا القرآن الكريم ولكنه ذكر لنا مكان المنشأ وهو الحجر. في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث بقيت فيه الأدلة المادية على وجود هؤلاء القوم والذى تعضده الآيات القرآنية .

فسبحان من حفظ لنا قصتهم من هذا الزمن البائد وأودعها في القرآن الخالد .

المشهد الخامس فى سورة القمر
من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٢

وعلى طريقة القرآن فى بث المواعظ والتذكير بمصائر المكذبين. جاء المشهد الخامس من هذه القصة فى سورة القمر ، وهى من السور المكية التى تواجه المشركين فى مكة ، وتقدم لهم النماذج البشرية التى سبقتهم ، والتى أعلنت رايات التكذيب فى مواجهة دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام وكانت عاقبتها الإهلاك فى الدنيا ، والعذاب الشديد فى الآخرة ، فتسوق طرفا من قصة نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون ، ولكن ليس على طريق التكرار . وإنما على طريق عرض بعض اللقطات التى لم تذكر فى المشاهد الأخرى ، كما سنبين فى قصة صالح عليه السلام . وذلك من منطلق التكامل والتآزر بين هذه المشاهد لتكوين القصة الواحدة من جميع جوانبها .

النموذج البشرى مستمر :

البشر منذ أن خلقهم الله عزوجل أصحاب نفوس متفاوتة فى قبول الخير والشر كما قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وعلى هذا مضت سنة الله فى خلقه . فعندما يرسل الله عزوجل رسولا فإنه يجد من الجبهات المعارضة أكثر من الفئة المؤيدة كما قال تعالى ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويؤيد الله رسله بالمعجزات تصديقا لدعواهم واستقطابا للنافرين، وتثبيتا للمؤمنين .

وتتوالى النذر على ألسنة الرسل محذرة من عقاب الله لمن يعرضون عن آيات الله ، ويكذبون رسل الله ـ ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة﴾ .

فإذا حل عقاب الله بالكافرين ونجى الله المؤمنين كان النموذج البشرى قصة حية واقعية لبنى البشر ، الذين تأتيهم رسل الله بدعوة التوحيد .

وكان محمد ﷺ هو آخر رسل الله إلى آخر نموذج بشرى فى الحياة ، فيه من المنازع والطباع والإلف والعادات مما فى غيره من النماذج البشرية السابقة ، فكان من الطبعى أن تقدم له العبرة والعظة من تلك النماذج البشرية السابقة عليه لأن الإنسان فطر على التسمع لما وقع ببنى جنسه . وذلك يحرك نوازعه إما إلى الخير وإما إلى الشر . طبقا لاستجلاء المعانى أمام بصره وبصيرته . ولذلك رأينا هذا السيل العرم من المواقف القصصية فى القرآن الكريم . وكل موقف منها يستجلى منزعا من المنازع البشرية المستمرة فى الإنسان منذ أن خلقه الله عزوجل ، وكانت المقامات المختلفة فى القصص القرآنى تؤكد تنوع المنازع الإنسانية ، واختلاف مواقف الإنسان من دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام وتشابه المنطق الذى يتمنطق به فى تبرير رفضه وإنكاره .

وقد كان ما تذرع به مشركو مكة من رفض وإنكار دعوة محمد ﷺ له جذوره ومرجعيته فى مواقف السابقين من قوم نوح وهود

وصالح ولوط وموسى . فالخيوط ممتدة . والمواقف متشابهة والنموذج البشرى مستمر فى كل زمان ومكان إلى أن يـرث الله الأرض ومـن عليها .

التشابه بين مطلع السورة وقصة ثمود :

يشير مطلع السورة إلى ما كان من مشركى مكة مـن تكذيب واتباع الهوى . فقد طلبوا من رسول الله ﷺ أن يريهم معجزة انشـقاق القمر فرقتين . وقالوا إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتيـن فانشـق القمر ووعدوه على ذلك بالإيمان. ومع ذلك قـالوا هـذا سـحر ابـن أبىكبشة فقال رجل انتظروا ما يأتيكم به المسـفار ، فـإن محمـدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك [1].

وقد ذكرت هذه المعجزة التى سألوها مع ذكر اقتراب الساعة فى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ لأن انشقاق القمر يعتبر مظـهرا من مظاهر التغييرات الكونية التى تكون من أمارات الساعة ، كما قـال تعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۞ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ويضاف إلى ذلك ما ورد فى سورة التكوير والانفطار والانشقاق . من قوله تعـالى :﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۞ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ......﴾ .

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٧ / ٧٤ .



وقوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ......﴾ ·

وقوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ......﴾ ·

والتعبير عن مجئ الساعة بالاقتراب فيه من الهول والشدائد التى سيلاقيها الكفار ما فيه ، فهو نوع من الإنذار. وقد شفع هـذا الإنـذار بدليل صدقه وهو انشقاق القمر ، ومع ذلك استمروا فى إعراضهم عن هذه الآية التى رأوها وعن غيرها من الآيات ولذلك قال : ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقول سحر مستمر﴾ فجاءت ــ آية ــ نكرة لتعم هذه الآية وغيرها ، وجاءت الأفعال مضارعة ــ يروا ــ يعرضوا ــ يقولوا ــ للدلالـة على التجدد والاستمرار ·

وقد وصفوا ــ السحر ــ بأنه ــ مستمر ــ وهذا الوصف يـدور حول عدة معان :

١ - أن ــ مستمر ــ من الاستمرار وهو التتابع والاطـراد " وكل شئ قد انقادت طريقته ودامت حاله قيل فيه قد استمر لمـا رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات قالوا ــ هذا سحر مستمر ــ " (١) ·

٢ - أن ــ مستمر ــ من المرة وهى القوة كما فى قوله تعالى : ﴿ذو مرة فاستوى﴾ " وهو فى الأصل مصدر مررت الحبـل مـرة إذا فتلته فتلا محكما فأريد به مطلق المحكم مجازا مرسلا "(٢).

---

(١) الكشاف ٤ / ٣٦ ·
(٢) روح المعانى ٢٧ / ٧٧ ·



٣ - أن ـ مستمر ـ من مر الشئ وأمر إذا صار مرا أى ما يساغ لشدة مرارته .

٤ - أن ـ مستمر ـ أى مار ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوها بالأمانى الفارغة كأنهم قالوا : إن حاله عليه الصلاة والسلام وما ظهر من معجزاته سبحانه ـ سحابة صيف عن قريب تقشع ـ [١] .

ولعل كل هذه المعانى مرادة من لفظ ـ مستمر ـ وهو يتناسب مع غلوهم فى العناد والمكابرة ولعله يشير كذلك إلى اختلاف القائلين به وتنوع غرضهم فى وصف السحر بأنه مستمر . فمنهم من كان يرى أنه متتابع ومطرد . ومنهم من كان يرى أنه محكم وثيق ، ومنهم من كان يرى أنه شئ مستبشع تنفر منه النفس ، ومنهم من كان يرى أنه شئ لا بقاء له وأنه زائل لا محالة . ولن يكون له أدنى تأثير فى تغيير الموقف إزاء الدعوة . فكلهم نطق بالوصف . ولكن للوصف فى نفس كل واحد معنى . وكل هذه المعانى تكون موقف المجتمع المشرك من معجزات الرسول ﷺ .

وهذا من إبداعات اللفظ القرآنى .

---

(١) المرجع السابق.

وتأتى الآية الثالثة تبين سبب هذا الإعراض والوصف بأنه سحر. وهو التكذيب واتباع الأهواء ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ وتختم بتذييل يجمع بين تهديد الكافرين . وتسلية الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى: ﴿وكل أمر مستقر﴾ أى كل أمر له غايته ونهايته ـ فأمرهم إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة وأمره ﷺ إلى الانتصار والسعادة فى الدنيا والآخرة .

وتجمل الآية الرابعة الأنباء التى جاءتهم وكانت جديرة بزجرهم ولكن لم تكن لها ثمرة من القبول فى نفوسهم ، رغم وصولها إليهم، فقال تعالى : ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ حكمة بالغة فما تغن النذر" .

فعلى الرغم من كثرة الأنباء حول الأمم الماضية . وكثرة أنباء الوعيد والتهديد فى الدنيا والآخرة . ومجئ هذه الأنباء بالحكمة التى هى إصابة الحق بالعلم والعقل وكونها بالغة أى واصلة إلى نفوسهم . كما قال الله تعالى ﴿وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا﴾ وكان ذلك كفيلا بزجرهم عن ارتكاب المعاصى والآثام . ولكنه لم يجد فيهم إنذار ولا منذر. ولذلك ختمت الآية بقوله ﴿فما تغن النذر﴾ وهى جملة منفية على اعتبار ـ ما ـ نافية . أو استفهام إنكارى على اعتبار ـ ما ـ مفعولا مطلقا أو فى محل رفع على الابتداء أى فأى غناء تغنى النذر .

وقد أشار البقاعي إلى موافقة الكتابة المصحفية لكلمة ـــ تغـن ـــ للمعنى المقصود من الجملة حيث قال " ولعل الإشارة بإسقاط يـــاء ـــ تغنى ـــ بإجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ إلـــى أنـــه كمـــا سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت ثمرة الإنذار وهو القبول "[1].

وكذلك أشار إلى حذف الواو من قوله تعالى ـــ يوم يدع ـــ فقـال ـــ وحذف ـــ واو ـــ يدعو للرسم بإجماع المصاحف من غير موجـب لأن المقام لبيان اقترابها فكأنه إشارة إلى كونها بأدنى دعاء . وأيضــا ففي حذفه تشبيه للخبر بالأمر إشارة إلى أن هذا الدعاء لابد أن يكـون على أعظم وجه وأتقنه وأهوله وأمكنه كما يكون كل مأمور من الأمـر المطاع "[2].

وهذه اللفتات إلى موافقة رسم الكلمة طبقا للمعنى من أجل العلوم في بيان إعجاز القرآن الكريم وهو ما عبر عنه الزركشي في البرهـان ـــ بعلم مرسوم الخط ـــ وهو يحتاج إلى وقفة باحث .

وتأتي الحلقة الأخيرة في سلسلة هذه التقريرات حـــول هـــؤلاء المكذبين . وهي أمره ﷺ بالإعراض عنهم كما أعرضوا عنه . وذلــك في قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وهنا يعطــف الحديث مرة أخرى إلى أهوال القيامة التي هي شـــئ نكـر . تتكـره النفوس لفظاعته وبشاعته وشدته .

---

(١) نظم الدرر ١٩ / ٩٨ .
(٢) المرجع السابق ١٩ / ٩٩ .

فإذا كان الحديث قد استفتح باقتراب الساعة . فقد ختم بما يكــون فيها من الأهوال والشدائد . وكأن هؤلاء المكذبين قد وقعوا بين قطبـــي الرحا. ولذلك توالت الآيات بعد ذلك تتحدث عن صفاتهم في هذا اليــوم . وهي في مجموعها تدل على الذل والهوان . واقرأ الآيات من الآيـــة السادسة إلى الثامنة . تسبين هذه الأوصاف التي وردت علـــى ســبيل التشبيه والكناية والمجاز . على الوجه التالي :

١ – ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ .

٢ – ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ .

٣ – ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾.

٤ – ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

ويتلخص هذا المطلع في هذه النقاط :

١ – الإنذار باقتراب الساعة .

٢ – مجئ المعجزة التي طلبوها .

٣ – الإعراض المستمر عنها وعن غيرها .

٤ – التكذيب واتباع الأهواء .

٥ – الجزاء المناسب للكافرين والمؤمنين .

٦ – مجئ الأنباء الكافية في الزجر .

٧ – كون هذه الأنباء بحكمة بالغة .

٨ – عدم استفادتهم من النذر .

٩ – الإعراض عنهم يوم العرض الأكبر .

١٠ – الذل والهوان الذى يلحقهم فى هذا اليوم .

جملة تكذيب ثمود بالنذر :

هذا هو موقف المشركين من محمد ﷺ وإمعانا فى الزجر. وتسلية للرسول ﷺ تسوق السورة قصص الرسل مع أقوامهم وبخاصة المكذبون منهم . وما لا قوة من العذاب ، لعل هؤلاء يأخذون العبرة والعظة من هؤلاء السابقين ، فتذكر بعد قصة نوح وهود . قصة صالح مع ثمود . وتبدأ بهذه البداية ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ فتجمع المكذبين فى سلسلة واحدة من لدن نوح إلى قريش إلى قيام الساعة .

وجاءت هذه الجملة دون عاطف ، شأنها شأن الجمل الأخرى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ ، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ لأنها واردة على نمط التعديد ، أى تعديد المخازى والماسوئ لهؤلاء الأقوام . كما تأتى آيات أخرى على نمط التعديد للنعم كما فى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وتأنيث الفعل إشارة إلى وهن تكذيبهم وضعفه وأنه لن يغن عنهم شيئا. أمام قدرة الواحد القهار والنذر جمع نذير ، وهو إما بمعنى الإنذار .

وإما بمعنى المنذر . وقد حمله كثير من المفسرين على المعنيين . كالألوسى والبقاعى ، ولكن ابن عاشور نظر إلى تعدية الفعل هنا بالباء ورجح أن يكون بمعنى الإنذار "أى كذبوا بالإنذارات التى أنذرهم

الله بها على لسان رسوله . وليس النذر هنا بصالح لحمله على جمع النذير بمعنى المنذر لأن فعل التكذيب إذا تعدى إلى الشخص المنسوب إلى الكذب تعدى إلى اسمه بدون حرف قال تعالى : ﴿فكذبوا رسلي﴾ وقال : ﴿لما كذبوا الرسل﴾ وقال : ﴿وإن يكذبوك﴾ ، وإذا تعدى إلى الكلام المكذب تعدى إليه بالباء قال : ﴿وكذبتم به﴾ ، ﴿وكذب به قومك﴾ وقال : ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ وقال : ﴿كذبوا بآياتنا﴾ وهذا بخلاف قوله ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ في سورة الشعراء"(١) .

ومن هنا تظهر المفارقة بين قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقوله هنا في القمر : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ .

فالآية صريحة في الشعراء بأن التكذيب كان للمرسلين أي المنذرين .

وفى القمر تحمل على تكذيب الإنذارات . وكأن تكذيبهم كان من جانبين . جانب الرسل وجانب الأخبار التي ترد على ألسنة الرسل . وبذلك تتكامل الآيات وتنبئ عن وجوه تكذيب ثمود .

جمل حيثيات التكذيب :

بدأ هذا المشهد بالتكذيب . وقد جاءت الآيات بعد ذلك تشرح حيثيات هذا التكذيب . وقد دار هذا التكذيب حول قضيتين أساسيتين في هذا المشهد :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٩٥ .



الأولى : كون الرسول بشرا .

والثانية : موقفهم من معجزته .

فأما القضية الأولى . فقد صاغوها في أسلوب الاستفهام الإنكاري. وذلك في قوله تعالى : ﴿فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه﴾ فليست القضية عندهم في الإتباع وإنما في المتبوع ، ولما كانوا ينكرون أن يكون الرسول بشرا ، جئ بالأمر المنكور عقب الهمزة ، لأن ما يكون محط الإنكار يجب أن يلي الهمزة . كما هو مقرر في علم المعاني، ولذلك قال عبدالقاهر " وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا . لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع ، وينتهي إلى ما يأمر، ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنهم مأمورون بطاعته كما جاء في الأخرى ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا﴾ [1].

وتأمل الترتيب الدقيق للكلمات الواصفة لـ ــ بشرا ــ فقوله ــ منا ــ تعميق لمدلول البشرية لأنها تعني من جنسنا وذلك أدعى للمماثلة في البشرية والاتحاد في الإنسانية .

وكذلك قوله ــ واحدا ــ تعجب وإنكار لأن تتبع أمة رجلا واحدا . ليس له من الأعوان والأنصار ما يعزز مركزه ويقوي جانبه . وإن كان هناك أعوان فهم المستضعفون كما ذكرت سورة الأعراف.

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٢ .

أو ـ واحدا ـ أى ليس من أفضلهم ولا من أعظمهم كما قال الكافرون عن محمد ﷺ : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف / ٣١] .

وقد كان هذا المنطق المنحرف هو منطقهم مع رسل الله عليهم الصلاة والسلام . وقد أنكروا عليهم هذا التعجب فى أكثر من موضع كما قال الله تعالى : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف/ ٦٣ ـ ٦٩] .

وهنا لم يرد صالح عليه السلام على إنكارهم بإنكار وإنما كان الرد عبارة عن التهديد والوعيد القريب بقوله تعالى : ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر﴾ .

ولعل إنكارهم لكون الرسول بشرا ، كان مرحلة أولى فى الإنكار ثم تطور هذا الإنكار إلى مبدأ يجمعون عليه . ويؤكدون رأيهم فيه ، وذلك ما أشارت إليه سورة الشعراء. حيث جاء هذا التعبير فيها بأسلوب القصر ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ وبخاصة أن سورة القمر أسبق نزولا من سورة الشعراء وكلا الأسلوبين ـ أبشرا ـ ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فيه إنكار للرسالة . وإنكار للرسول والصياغة أوحت بتطور الأفكار فى رؤوس الكافرين من الإنكار إلى القوة فيه .



وكلمة ـ بشر ـ جاءت فى الآيتين نكرة للدلالة على التحقـير . ولم يقولوا ـ رجلا ـ مثلا للدلالة على التصغير . وكل ذلـك يقـوى الإنكار ويؤكده ٠

وقد ناقشت هذه القضية فى مشهد سورة الشعراء وإمعانـا فـى إنكار بشرية الرسول ، عللوا لهذا الإنكار بهذه الجملة التى بنيت علـى التوكيد والتنكير الدال على التعظيم والتهويل . وهى ﴿إنا إذا لفى ضلال وسعر﴾ ٠

" وروى أن صالحا عليه السلام كان يقول لهم . إن لم تتبعونـى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ، فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا: إن اتبعناك كنا إذا كما تقول فالكلام من باب التعكيس والقول بالموجب "[1] والسعر الجنون أو العذاب أو الذل والعبودية مجازا ٠

وقد امتد خيط الإنكار والتعجب فى قولهم ـ واحدا ـ حتى بنـوا عليه استفهاما إنكاريا آخر هوهو قولهم ﴿أألقى الذكر عليه من بيننا﴾ ٠

وهذا نوع من الإنكار المشوب بالحقد والحسد . حيث ينكـرون نزول الوحى عليه وفيهم من هو أحق منه علـى حسـب زعمـهم . ويجهلون قول الله تعالى : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ٠

---

(١) روح المعانى ٢٧ / ٨٨ ٠

والتعبير عن الإنزال بالإلقاء لما يلاحظ فيه من سرعة نزول الوحى .

يقول الرازى " وفيه إشارة إلى ما كانوا ينكرونه من طريق المبالغة . وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة ، والنبى كان يقول جاءنى الوحى مع الملك فى لحظة يسيرة فكأنهم قالوا الملك جسم والسماء بعيدة. فكيف ينزل فى لحظة فقالوا ألقى وما قالوا أنزل . وقولهم عليه إنكار آخر كأنهم قالوا ما ألقى ذكر أصلا .

ويشير إلى بناء ـــ ألقى ـــ للمجهول دون المعلوم فيقول ـــ وقولهم ألقى بدل عن قولهم ألقى الله للإشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلا عن أن يكون من الله تعالى " [1] .

وهذه الأمور التى أنكروها وهى بشرية الرسول . ونزول الذكر عليه من بينهم . لم يكتفوا فيها بالإنكار وإنما شفعوها بالإبطال، واستخدموا لذلك حرف الإضراب ـــ بل ـــ للإضراب الإبطالى . فكأنهم أبطلوا الأول وأثبتوا الثانى على ما فى زعمهم وذلك قوله تعالى: ﴿بل هو كذاب أشر﴾ ولاحظ توكيد الجملة بالضمير . والتنكير الدال على شدة الكذب وشدة الأشر ، مع صيغة المبالغة الدالة على الكثرة أو الشدة .

---

(١) التفسير الكبير ٢٩ / ٥٠ .

والأشر . شدة البطر ، والأشر أبلغ من البطر والبطر وأبلغ من الفرح كما ذكر الراغب .

ومرادهم ، أن ادعاءه الرسالة من منطلق الكذب وشدة البطر والفرح بنفسه . فكأنه يدعى ما ليس فيه . وكفى بذلك تكذيبا لصالح عليه السلام ، وهو تكذيب صريح بعد التكذيب الذى دل عليه الاستفهام الإنكارى السابق ، وبذلك ترابطت الجمل وترافدت على معنى التكذيب الذى استفتح به هذا المشهد .

وكان لابد أمام هذا السيل من التكذيب والإيلام النفسى لصالح عليه السلام أن تأتى استرواحة تطمئن نفسه . وتخفف من أثقاله ، وتهدئ من روعه . وتسليه من هذه المتاعب ، فجاءت جملة الوعد له والوعيد لهم . حاكية ما قاله الله عزوجل وهى ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر﴾ .

" وقرئ ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبا لهم أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات "(١) .

وقد صدرت الجملة بالسين وهى تدل على الاستقبال والتوكيد.

وإذا كانت السين تأتى خالصة للوعد كما فى قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ .

---

(١) الكشاف ٤ / ٣٩ .

وتأتى خالصة للوعيد كما فى قوله تعالى : ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ .

فإنها فى هذه الآية تؤكد الوعد لصالح عليه السلام والوعيد لقومه ، ودلالتها على الاستقبال هنا ليست مطلقة . وإنما حدد بلفظ ــ غدا ــ الدال على المستقبل القريب .

ولعل هذا الغد القريب هو ما أشير إليه بعد ذلك فى سورة هود المتأخرة عن سورة القمر فى النزول فى قوله تعالى : ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ وفسر هذا القرب فى الآية التالية لها بكونه بعد ثلاثة أيام ــ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

يقول ابن هشام "فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده وتثبيت معناه وقد أومأ إلى ذلك فى سورة البقرة ــ يقصد الزمخشرى ــ فقال فى ﴿فسيكفيكم الله﴾ ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين . وصرح به فى سورة براءة فقال فى : ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهى تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد . إذا قلت ــ سأنتقم منك ــ "[1].

وسواء كانت هذه الجملة من كلام صالح لهم ، أو من كلام الله تعالى . فانظر إلى ترفع الحوار عن مواجهة الخصم بما يثير موجدته

---

(١) مغنى اللبيب ١٨٥ .

أو يحرك غيظة تحريكا يقطع صلته بالمتكلم . إذ لم يواجههم بأنهم الكذبة الأشرار وإنما أبهم التعبير فقال ـ من الكذاب الأشر ـ وذلك على طريق ـ تجاهل العارف ـ أو سوق المعلوم مساق غيره ـ أو الكلام المنصف الذى لا يترك فيه المجادل لخصمه سببا من أسباب الغيظ أو الاحتداد فى الجدال . وهو ما يعرف بإرخان العنان للخصم حتى يقع فى فضل خطامه . وكأنه دعوة للتفكير فى حقيقة الأمر . هل الكذاب الأشر هو صالح عليه السلام أم هؤلاء المعاندون وهذه الأوصاف بلا شك دائرة بين الفريقين بيقين . فمن ينظر نظرة موضوعية ويتخلى عن العناد لابد أن يصل إلى الحقيقة الخفية عن القوم . وقد أعادت الجملة ما اتهموا به صالحا على وجه التصريح واليقين فى زعمهم بقولهم ـ بل هو كذاب أشر ـ وهذا هو فن الخطاب الدينى الذى يؤصله القرآن الكريم من واقع هذه المواقف .

فأهل العناد والكفر يصرحون بأن النبى صاحب الرسالة وإنقاذ الأمة من الضلال هو كذاب أشر .

بينما صاحب الرسالة " لا يواجه السفاهة بمثلها وإنما يترفع عن الحوار المسف إلى أعلى درجات الحوار الهادف الذى يخاطب العقول المفكرة ويدعوها إلى النظرة الموضوعية كى تثوب إلى رشدها وتقلع عن غيها . فيعيد نفس الصفات ولكن بأسلوب الإبهام والتعريض ـ من الكذاب الأشر ـ دون تزيد فى صفة أو تهجم على الخصم . وما أكثر مجئ ذلك فى القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ



السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ / ٢٤ ــ ٢٥] .

وكان لابد بعد جملة التهديد هذه أن يعلموا من هو الكذاب الأشر. ومن هنا يبدأ الخيط الذى تنسج منه القضية الثانية ، وهى موقفهم من دليل النبوة . أى موقفهم من معجزته عليه السلام فيأتى الحديث عن مجئ الناقة وكيف كانت فتنة لهم . وبها استبان كذبهم وأشرهم الذى استحقوا به العذاب .

جملة إرسال الناقة :

وأعنى بها قول الله تعالى : ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۞ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [٢٧ ــ ٢٨] .

وموقع الجملة الأولى من الجملة السابقة وهى ــ سيعلمون غدا ــ موقع البيان وكأنه قال ــ سيعلمون غدا يوم نرسل الناقة فيتبين كذبهم وأشرهم .

ويمكن أن تكون الجملة واقعة موقع الاستئناف البيانى وكأن جملة ــ سيعلمون غدا ــ أثارت سؤالا فى ذهن السامع عن كيفية الوقوف على هذا العلم ، فقيل ــ إنا مرسلو الناقة.

وقد أكدت جملة الإرسال لتحقيق وتأكيد وجود هذه المعجزة التى ستكون سببا فى علمهم بالكذاب الأشر . وقد انخرطت هذه الجملة فى



سلك الاستقبال كما هو شأن الجملة السابقة عليها فكان زمن إرسال الناقة متناسقا مع قوله ــ سيعلمون غدا ــ ومع قوله بعد ذلك ــ فارتقبهم واصطبر ــ ونبئهم وكل ذلك يدل على أن اسم الفاعل في قوله ــ مرسلوا الناقة ــ المقصود به الاستقبال ٠

وقد اختير اسم الفاعل المشتق من الإرسال دون الإخراج؛ لأن إرسال الناقة إلى القوم وجعلها تدور بينهم وقسم الماء بينها وبينهم هو الذى هيأها لأن تكون فتنة لهم ، ثم إن الإرسال يقتضي الإخراج . دون العكس فالإرسال هو المناسب في هذا المقام ٠

ولما كانت الناقة هي محل الابتلاء والامتحان قال ــ فتنة لهم ــ وهذا الفعل من جانب الله عزوجل كان يقابله فعل من جانب صالح عليه السلام وهو الارتقاب والاصطبار ٠

والارتقاب ، الانتظار على معنى أنه يراقب أحوالهم مع الناقة . واختيار الفعل ــ ارتقب لأنه أبلغ من راقب . فهو يدل على الانتظار الكثير والتمهل الوفير . وكأنه الحارس الذى لا يغفل عن أفعالهم . ومثله ، الاصطبار ــ فهو يدل على الصبر القوى ، ويوحى بكثرة أذى القوم وتكذيبهم ولذلك كان الأمر بالاصطبار دون الصبر ٠

وقد أشرت في سورة الشعراء إلى موضوع قسم الماء . حيث جاء في سورة القمر ، أن الماء قسمة بينهم . وأن كل نصيب من الماء

يجب أن يحضره صاحبه .. وأما بيان كيفية هذه القسمة فجاء في سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ .

وهذا بترتيب نزول السور . سورة القمر قبل سورة الشعراء .

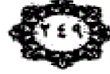
جملة رد الفعل من القوم :

تحدثت عن جملة ـ عقر الناقة ـ من خلال المشاهد السابقة وأشرت إلى أن إسناد العقر إلى واو الجماعة فيه دلالة على الرضا والتعاون والمناصرة . وهو ما أبانت عنه آية القمر في قوله تعالى : ﴿فنادوا صاحبهم﴾ وكأنهم استغاثوا به ليخلصهم من هذه الناقة التي اعتبروها ضررا عليهم وعلى ماشيتهم .

وقد طوت الفاء في قوله ـ فنادوا ـ جملا دل عليها الكلام السابق . أي فأرسلنا إليهم الناقة واقتسموا الماء بينهم وعاشوا على ذلك فترة من الزمن حتى ملوها وعزموا على عقرها ، فنادوا صاحبهم، فتعاطى فعقر .

وقد دل فعل التعاطي بصيغة التفاعل هذه على أنه قد تناول كل شئ من السيف والناقة والتأييد والجرأة والإقدام على عقر الناقة .

والفاءات في الجملة دالة على سرعة توالي الأحداث . واتصال بعضها ببعض وذلك دال على سفاهة القوم وحمقهم في ارتكاب هذه الأحداث فلم تكن فيهم بقية من عقل ، أو منزع من تفكير يحضهم على التأني ومراجعة النفس في الرجوع عن هذه المفاسد .



وكما أن إطلاق التعاطى وعدم تقييده بمفعول معين دل على عموم ما تعاطاه . فإن إطلاق العقر يمكن أن يلمح فيه هذا العموم كذلك . فهو أى العقر وإن كان ينصرف إلى الناقة بالأصالة، لكن يمكن أن يفهم منه أنه كان سببا فى عقر القوم كلهم أى حلول العذاب بهم وتدميرهم . وخراب ديارهم :

ـ فهو قد عقر الناقة ٠

ـ وعقر نفسه ٠

ـ وعقر قومه ٠

ـ وعقر ديارهم . كما ذكرت سورة النمل ٠

ويضاف إلى ذلك الانسجام اللفظى فى تناسق ـ عقر ـ مع فواصل السورة المبنية على حرف الراء ٠

جملة التشويق لعرفة الكذاب الأشر :

قد وضح من خلال الآيات السابقة ، ما وصل إليه القوم من الإنكار والتكذيب للقضية الأولى وهى كون الرسول بشرا . وللقضية الثانية وهى إرسال الناقة . فكان لابد من تحقيق الوعيد الوارد فى قوله تعالى : ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر﴾ وقبل أن تذكر مواصفات هذا الوعيد . وحيثيات هذا التعذيب جاءت الجملة بهذا الاستفهام المشوق لما يحيط هؤلاء المكذبين من العذاب الأليم . وهى قوله تعالى : ﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾ ٠

وقد جاءت هذه الجملة تحقيقا للوعيد الذى هدد به القوم . وقبل ذكر المهدد به، ذكرت لتوجيه القلوب،ولفت الأذهان،وإصاخة الأسماع، وكأنها وسيلة تربوية يستخدمها المعلم لاستقطاب أذهان الطلاب، واستجماع أفكارهم ، وشحذ عقولهم نحو ما يلقى إليهم ووضعت فى ثوب الاستفهام ، ومن طبيعته محض التنبيه ، وكأنه يقول لهم : انتبهوا إلى ما يلقى إليكم . والتفتوا إلى هذه الأحوال من العذاب والإنذارات التى تواردت على هؤلاء المكذبين ، ليتبين لكم حقيقة الكذاب الأشر وذلك من باب التشويق والتطلع إلى بيان ذلك بذكر حقيقة العذاب الذى نزل بهم .

" فالاستفهام مستعمل فى التشويق للخبر الوارد بعده وهو مجاز مرسل لأن الاستفهام يستلزم طلب الجواب ، والجواب يتوقف على صفة العذاب وهى لما تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها وهو أيضا مكنى به عن تهويل ذلك العذاب .

وفى هذا الاستفهام إجمال لحال العذاب وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبينه بعده ... "(١).

وهذا شأن هذه الجملة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إذا ذكرت قبل بيان العذاب . فإنها تكون عاملا من عوامل الإثارة والتشويق إلى بيان حيثية التعذيب ، كما هو حالها فى قصة صالح عليه السلام وقد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٩١ .



ذكرت كذلك في قصة عاد في قوله تعالى : ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ ثم بينت بقوله تعالى : إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر .

وأما إذا ذكرت بعد بيان العذاب كما هو حالها في قصة نوح وفي قصة عاد كذلك حيث ذكرت مرتين مرة قبل بيان العذاب ومرة بعد بيان العذاب . فإن الغرض من الاستفهام هو التهويل والتعظيم والتعجيب ، وأنه شئ لا يحيط به الوصف ، فتذهب النفس فيه كل مذهب وتفرض فيه استجماع الآلام وكافة ألوان التعذيب وذلك وحده كاف في الزجر والاعتبار والادكار وبذلك يكون إبهامه هو عين البيان .

ولكن ما السر في تقديم العذاب على النذر ؟ في قوله تعالى : ﴿عذابي ونذر﴾ علما بان النذر إن كانت بمعنى الإنذار أو بمعنى المنذر فهي سابقة على العذاب .

هل نقول : إن الواو لمطلق الجمع ولا تقتضي ترتيبا ؟ أو نقول إن الإنذار كان بالعذاب فلما لم يعملوا بمقتضاه استحقوا العذاب ، فالمقام لذكر العذاب .

وبخاصة أن هذه القصص مسوقة لأخذ العبرة من هؤلاء المكذبين ، للإنذارات والمنذرين .

والاعتبار بمصائرهم ووقوعهم فى العذاب العظيم ، فكان ذكر العذاب أهم والعناية به أتم .

وقد أوحى توحيد العذاب وجمع النذر بسبق الرحمة الغضب "حيث لم يقل فكيف كان أنواع عذابى ووبال إنذارى ؟ نقول فيه إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب ، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال: الإنذارات التى هى نعم ورحمة تواترت ، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة"(١).

جملة البيان بعد التشويق :

وتاتى جملة البيان بعد أن شوقت النفوس إلى معرفتها بقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ .

وقد بدأت الجملة بضمير العظمة ــ إنا ــ وأعيد فى الفعل ــ أرسلنا ــ وهذا التعظيم فى كلام الله عزوجل يدل على عظمة وشدة العذاب المرسل ومن مظاهر عظمته أنه أطبق عليهم حيث لم يفلت منهم احد إلا المؤمنين الذى نجوا مع صالح عليه السلام ، كما دلت على ذلك آيات أخرى فى القصة ، كما جاء فى سورة هود والنمل ولكن لما كان الحديث هنا خاصا بالمكذبين قال ــ عليهم ــ ليشملهم كلهم ، ومع كون العذاب واردا من أعلى فذلك يوحى بالقوة والشدة والتمكن،كما فى قوله تعالى:﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[النحل/٢٦] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٩ / ٤٨ .

ومن مظاهر عظمته كذلك ، أنه عبارة عــــن صيحـــة واحـــدة، والصيحة هي الصاعقة وقد وصفت بواحـــدة للدلالـــة علـــى شـــدتها وعظمتها ، فهي واحدة ولكن أماتت قبيلة بأسرها ، وتدل من وجه آخر على حقارتهم أمام قدرة الله عزوجل ولذلك كانت النتيجـــة ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ ٠

فهذه الصيحة الواحدة قد صيرتهم إلى حالة كحالة الهشيم الـــذى يعده صاحب الخطيرة ٠

والهشيم هو الكلأ والشجر الذى يجف وييبس من طول الإلقـــاء على الأرض ٠

وتدور مادته ــ الهشيم ــ حول الكسر واليبس والضعف ويـــرى ابن شميل ــ أن الهشيم ما بقى من عام أول[١] ٠

وذلك يكشف لنا عن سر تشبيههم بالهشيم وهو الدلالة على كونهم قد بادوا وهلكوا من زمن ممتد حتى صاروا إلى رفات متفتت وأجـــزاء بالية متكسرة ليس لها بالإنسانية صلة ، ولا بكرامتها صفـــة ، ولعـــل إضافة الهشيم إلى المحتظر ، الذى يعمل الحظيرة وهى مأوى الأنعام ، ما يدل على هذا الامتهان والتحقير الذى وصلوا إليه، فهم قد صـــاروا إلى حالة هذا الشجر اليابس المتكســر الـــذى يعـــد لعمـــل الحظـــائر

---

(١) لسان العرب ــ هشم ــ ٠

للحيوانات، وكفى بذلك مذمة وتحقيرا، والجامع بين الحالتين ، هو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مجتمعة بالية يابسة متكسرة مطروحة على الأرض ليس لها قيمة .

وبالتأمل فى عنصر المشبه به وهو الأصل فى صورة التشبيه نجد أن هشيم المحتظر من العناصر المبثوثة فى الطبيعة والمعروف بالبداهة وقد لوحظ فيه عنصر الزمن حيث إن الشجر لا يصير يابسا وآيلا إلى حالة من التكسر إلا بعد زمن قدره البعض بعام ومعنى ذلك أن هذا التشبيه يدل على حالة القوم التى صاروا إليها من الجمود والتحلل والتيبس وتناثر الأجزاء وفقدان الحياة ، ولذلك يمكن اعتباره من باب التشبيه الذى يعتمد فيه على إخراج ما لا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم بها طبقا لتقسيمات الرمانى فى النكت[1] .

ولذلك فإن هذا التشبيه قد قرب معنى هلاكهم وصيرورتهم إلى هذه الحالة عن طريق الدقة فى اختيار المشبه به حتى صار أمرهم واضحا معروفا كهذه الأشياء المعروفة بالبداهة .

وهذا التشبيه دل على حالة التحلل بعد زمن موتهم .

وهناك صياغات دلت على هيئتهم حين الموت كما فى قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وقد سبق بيانه .

---

(١) ينظر ثلاث رسائل ٨١ .

وهكذا تتنوع دلالة الصياغات فهناك من الصياغة ما تدل على الهيئة حين الموت ومن الصياغات ما تدل على الهيئة بعد زمن الموت .

عود على بدء :

وقد ختمت القصة بما يربطها بمطلعها وهو الحديث عن مشركي مكة ، حيث قال الله تعالى في شأنهم :

ـ ولقد جاءكم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغن النذر .

وجاءت هذه القصص في سورة القمر تمثل طرفا من هذه الأنباء الكفيلة بالزجر والاعتبار وختمت القصص الأربع الأولى بقوله تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ إشارة إلى أن كل قصة وحدها كافية في الزجر والاعتبار ، وفيها من الاستقلال ما يكفي لأن تكون محل العبرة والاتعاظ .

وقد يسر الله القرآن لمن يريد التذكر حيث نزل بلغة العرب ، وعلى أبلغ مقاييس الفصاحة والجمال في حسن النظم وبلاغة الأسلوب وبراعة اللفظ وشرف المعنى وحلاوة السبك وبدائع الرصف ، وجمال التصوير وكل ذلك يدفع لقراءته والتعرف على تصاريف الوعد والوعيد . والوقوف على قصصه وحكمه وأمثاله وأخباره وقضاياه

وشرائعه ، فهو ــ كما قال الرسول ﷺ لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ــ

كما يسره للحفظ ، فقد جعل له تعلقا بالقلوب وحلاوة في الأسماع، وجمالا في الأداء وحسنا في الصوت ، لا يمله إنس ولا جان ولا يضيق به إنسان . وذلك منة الواحد الديان ، وإعجاز خالد في القرآن ﴿فهل من مدكر﴾ .

وفرع على كون القرآن ميسرا للذكر هذا الاستفهام الدال على الحث والتحضيض وكأنه يأمر كل من بلغه القرآن أن يتذكر ما فيه من أنباء ومواعظ ووعد ووعيد ، لأن في الوقوف على ذلك والعمل به منجاة من غضب الله ، والفوز برضاه يوم لقاه ، وذلك هو الإدكار الجدير بالاعتبار و: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق / ٣٧] .

ويحتمل الاستفهام وجها آخر ، وهو التفكر في العهد الأول الذي أخذ على الإنسان في عالم الذر . وهو عهد نقاء الفطرة وصفاء السريرة ، المعني بقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف/ ١٧٢] .



ولا مانع من إرادة العهد الأول ، والعهد الثـانى الجديـد الـذى جاءت به الرسالة لأن القرآن الكريم يذكر بالعهدين معا .

ونلخص نقاط هذا المشهد فيما يلى :

١ - إنذار صالح لثمود .

٢ - تكذيب ثمود لدعوته .

٣ - إنكار الرسالة مع البشرية .

٤ - الحقد لنزول الرسالة عليه .

٥ - رمية بالكذب وبالأشر .

٦ - تهديده لهم على الإعراض .

٧ - مجئ المعجزة التى طلبوها .

٨ - تكذيبهم بها وعقرها .

٩ - حلول العذاب بهم .

١٠ - الاعتبار والاتعاظ بما ورد فى القرآن .

ومن واقع النظر لنقاط المطلع السابق ذكرها مع هـذه النقـاط ، ندرك التشابه الواضح بين موقف سيدنا محمد ﷺ مع مشـركى مكـة وبين موقف صالح عليه السلام من قومه .

هذا التشابه الواضح من شأنه أن يثير فى النفس عوامل البعد عن مزالق الشر ، والدخول بعمق فى دائرة الخير والصلاح ، وذلك مكمـن العبرة والعظة .

القصة فى معرض الإيجاز

قد طالعنا القصة فى المشاهد السابقة ، ورأيناها قد طـــالت فـــى سورة الأعراف والشعراء والنمل وهود والقمر ولكنها فى بعض السور الأخرى . كانت لا تتعدى الآيتين ٠

والملاحظ على ترتيب القصة فى الترتيب المصحفى أنها بـــدأت بالمشاهد الطويلة ، ولكنها فى الترتيب النزولى كان الخط البيانى لـــها يبدأ بالمشاهد اليسيرة أو ما نسميه المشهد الموجز ، ثم يرتقـــى إلـــى المشاهد الطويلة ثم يرجع مرة أخرى إلى المشهد الموجز وإليك البيـــان بذلك ٠

القصة فى الترتيب المصحفى	القصة فى الترتيب النزولى	عدد الآيات
الأعراف	النجم	١
هود	الشمس	٥
الحجر	القمر	٩
الشعراء	الأعراف	٧
النمل	الشعراء	١٩
فصلت	النمل	٨
الذاريات	هود	٨
النجم	الحجر	٥



القصة فى الترتيب المصحفى	القصة فى الترتيب النزولى	عدد الآيات
القمر	فصلت	٢
الحاقة	الذاريات	٣
الشمس	الحاقة	٢

وعلى الرغم من تعدد المشاهد الموجزة ، إلا أن لكل مشهد منها صياغة ودلالة ، وفيها إضافات تضاف إلى مشاهد القصة فى أماكنها الأخرى بحيث تتكامل هذه المشاهد ولا تتكرر ، وسوف نعرض لها ، بالبيان والتحليل كما هى فى الترتيب المصحفى .

ففى سورة الحجر ورد المشهد فى خمس آيات ، وكانت القصة هى القصة الخامسة بعد قصة آدم وإبليس وإبراهيم ولوط وشعيب ، ولكن الملاحظ أنها لم تأت مقدمة فى الذكر على لوط وشعيب كما هو شأنها فى الأعراف وفى الشعراء .

ويبدو – والله أعلم – أنها وردت مقدمة فى الذكر على لوط وشعيب فى الأعراف والشعراء باعتبار الترتيب الوجودى ، حيث كانت الآيات فى الأعراف تشير إلى البعدية فى الوجود كما فى قوله تعالى : ﴿إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ .

وأما ذكرها بعد لوط وشعيب فى الحجر فلقصد التماثل فى العذاب النازل من السماء ، فإبليس قضى الله عليه باللعنة إلى يوم الدين

: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٣٥] وقوم لوط : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [٧٣] وأصحاب الأيكة : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [٧٩] وقوم صالح : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [٨٣] .

ثم إن السورة ختمت بالحديث عن محمد ﷺ وقومه وموقفهم من القرآن ، وقصة صالح عليه السلام ماثلة لقصة محمد ﷺ كما سبق بيانه فلعل تأخير قصة صالح عليه السلام لتجاور الحديث عن محمد ﷺ وذلك من باب ضم النظير إلى النظير والشبيه إلى الشبيه لتلتحم أجزاء الكلام ويتماسك بناؤه ، فتعظم بلاغته وتزداد روعة إعجازه.

وقد أجملت الآيات الخمس ما جاء مفصلا فى المشاهد المطنبة ، فتحدثت عن تكذيب ثمود ولكنها أضافتهم إلى المكان ، وهو الحجر ، وهو الودى الذى كانوا يقطنون فيه ، بين الحجاز والشام ، فأضافت شيئا جديدا لم يذكر فى الآيات الدالة على التكذيب وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٨٠] ولفتت الآيات إلى الآيات التى وردت إليهم كأدلة على التوحيد والنبوة ، فقال تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [٨١] .

وهذه الآيات التى أتتهم إما آيات قولية وإما آيات إعجازية فمن الآيات القولية هذه الأوامر والنواهى ومن الآيات الإعجازية ، هذه الناقة التى خرجت لهم من الصخر وقد أعرضوا عن هذه الآيات

بنوعيها ، وكل ذلك مضى بيانه في المشاهد السابقة وأشـــارت الآيـــة الثالثة في القصة وهي قوله تعـالى : ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [٨٢] إلى ما كانوا يتخذونه وسيلة إلى الأمن من عذاب الله ولكن عندما جاءتهم الصيحة لم يغن ذلك عنهم شـيئا : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

وفي سورة فصلت جــاءت الآيتــان وهمـــا : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٧] ، ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [١٨] .

وهذا تفصيل موجز لما جمع في قوله تعالى قبل ذلك عن مشـركي مكة : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [١٣] .

ووجه الربط بين هؤلاء الأقوام هو الإعراض والتخويف بالعذاب، وبعد ذكر عاد ، جاء ذكر ثمود على وفق الترتيب الوجودي .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ صياغة موجزة ومكثفة تكثيفا دقيقا لما مضى بيانه في مجئ الرســـول صالح عليه السلام لهم ودلالتهم على طريق الرشد . بما قاله لهم وبينه من جزاء الطائعين وعقاب الكافرين ، ولكنهم آثروا الضلال المعـــبر عنه بالعمى مجازا على الهدى ، وكانوا حريصيـــن علـــى الضـــلال

يدخلون فيه بعمق وقوة تدل على ذلك السين والتاء فى قوله ـــ استحبوا ـــ فهما للمبالغة فى الاستحباب والمحبة ، ميل قلبى وجدانى روحانى يتسع به قلب المحب للمحبوب ، فلا يرضى به بدلا ولا يبغى عنه حولا ، ولذلك أوثر هذا الفعل ـــ استحبوا ـــ لأنه يدل على الميل الحريص ، والإرادة المصممة ، والعزم الأكيد على الفعل المختار ، وهو أبلغ من الإرادة ، ويقول الراغب وحقيقة الاستحباب أن يتحرى الإنسان فى الشئ أن يحبه واقتضى تعديته بعلى معنى الإيثار (١).

كل هذا الاستحباب كان من أجل الضلال وليس الهدى وكانت النتيجة : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وقد صدرت الجملة بالفاء الدالة على استمرارهم على العمى حتى الهلاك المعبر عنه بالأخذ مجازا ، وهو طول فترة الدعوة والإنذار ، تلك الفترة التى تخللتها المحاورات والجدال كما ورد فى المشاهد المطولة.

وما عبر عنه فى سياقات أخرى بالرجفة والصيحة عبر عنه هنا بالصاعقة ، وسنبين وجه الجمع بين هذه الصياغات فى الفصل الخاص بمتشابه النظم " وإضافة ـــ صاعقة ـــ إلى العذاب للدلالة على أنها صاعقة تعرف بطريق الإضافة إذ لا يعرف بها إلا ما تضاف إليه، أى صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق فهى صاعقة مسخرة من الله لعذاب ثمود فإن أصل معنى الإضافة أنها بتقدير لام الاختصاص . فتعريف المضاف لا طريق له إلا بيان اختصاصه بالمضاف إليه .

---

(١) مفردات الراغب ـــ حب .

والعذاب هو الإهلاك بالصعق ووصف بـ" الهون " كما وصف العذاب بالخزى فى قوله ـ لنذيقهم عذاب الخزى ـ أى العذاب الذى هو سبب الهون .

والهون ـ الهوان وهو الذل ووجه كونه هوانا أنه إهلاك فيه مذلة إذ استئصلوا عن بكرة أبيهم وتركوا صرعى على وجه الأرض"[١].

وتأتى الجملة الأخيرة ـ وهى قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت/ ١٨].

تعقيبا على التفصيل السابق فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فتشير إلى إنجاء المؤمنين من قوم عاد وقوم صالح "فمضمون هذه الجملة فيه معنى الاستثناء من عموم أمتى عاد وثمود فيكون لها حكم الاستثناء الوارد بعد جمل متعاقبة أنه يعود إلى جميعها فإن جملتى التفصيل هما المقصود[٢].

فهذا المشهد الموجز تتضمن المحاور الأساسية فى القصة . وهى:

١ - الدلالة على الهدى ـ فهديناهم ، وهذا يتضمن إرسال رسول بدعوة يدعوهم بها إلى الله تعالى .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٦٣ .
(٢) المرجع السابق .

٢ – إيثارهم الضلال على الهدى ، وهذا يتضمن الإعراض عن دعوة الرسول ، والتكذيب بما جاء به من عند الله تعالى ٠

٣ – إهلاكهم بعذاب فيه مذلة بسبب اختيارهم الضلال على الهدى٠

٤ – إنجاء المؤمنين الذين أصروا على وقاية أنفسهم من عـــذاب الله تعالى ٠

وهذه المحاور الأساسية هى التى دارت حولها أحداث القصة فى إطنابها وإيجازها ٠

والمشهد الموجز جاء كذلك في سورة الذاريات فى ثلاث آيات . وقد ركزت الحديث حول هذه النقاط :

١ – أن قصة ثمود فيها العبرة والعظة لمـــن يريـــد الاتعـــاظ بأحوال السابقين ، وذلك قوله تعالى ــ وفي ثمود ــ أى وتركنـــا فـــى قصة ثمود آية للمؤمنين ، وذلك بالعطف على قوله تعالى : ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ ٠

٢ – أن قوم ثمود كانوا أصحاب لذائـــذ حســـية فـــى المـــأكل والمشرب والمسكن ، وقد أمروا أمرا على سبيل الإباحة للتمتع بـــهذه النعم حتى منتهى آجالهم ، وذلك قوله تعـــالى : ﴿إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ [٤٣] وقد فصلت مظاهر هذا التمتع فـــى مشـــاهد ســـورة الأعراف وهود والشعراء . ومنها :

١ – واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ٠

٢ – وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا ٠

٣ – وتنحتون من الجبال بيوتا ٠

٤ – فاذكروا آلاء الله ٠

٥ – هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ٠

٦ – أتتركون في ما ههنا آمنين ٠

٧ – في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ٠

فهذه النقاط السبع هي إطناب ذلك الإيجاز الوارد في الذاريات ٠

" وليس قوله ﴿إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ بمشير إلى قوله في الآية الأخرى ــ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام " ونحوه لأن ذلك الأمر مستعمل في الإنذار والتأييس من النجاة بعد ثلاثة أيام فــــلا يكون لقوله بعده ــ فعتوا عن أمر ربهم مناســـبة لتعقيبـــه بالفـــاء لأن الترتيب الذي تفيده الفاء يقتضي أن ما بعدها مرتب في الوجود على ما قبلها"[١] ٠

٣ – أنهم لم يشكروا الله على التمتع بهذه النعم ولكنهم استكبروا وأعرضوا عن الدعوة وذلك قوله تعالى : ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ وكــان لهذا العتو مظاهر متعددة مبثوثة في المشاهد المطنبة مثل تكذيب ثمــود

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٣ ٠



المرسلين وعقرهم الناقة وإفسادهم فى الأرض ، كما هو مذكور فـــى الأعراف وهود والشعراء والنمل والقمر .

٤ - أنهم أهلكوا بالصاعقة وذلك قوله تعالى : ﴿فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ [٤٤] وهذه هى النتيجة الحتمية التـى توعدهـم بـها صالح عليه السلام ، وقوله ــ وهم ينظرون ــ إمـا مـن النظـر أى ينظرون إلى الصاعقة وقت نزولها ، وذلك يزيدهم ألما وتعذيبا .

وإما من الانتظار وهو الإمهال حيث أمهلوا ثلاثة أيـام وكـان وعدا غير مكذوب ، وانتظار العذاب أشد من العذاب نفسه .

٥ - أنه ترتب على أخذهم بالصاعقة أمران .

الأول : أنهم لم يستطيعوا نصر أنفسهم وذلك قوله تعـالى : ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ كما قال تعالى: ﴿فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾ .

فعدم استطاعتهم القيام إما لموتهم وإما لأنهم فقدوا القدرة علـى الدفاع عن أنفسهم لعجزهم ، من قولهم هذا أمر لا يقوم بـه أحـد إذا عجز عن دفعه ، على سبيل المجاز أو الكنايـة [١] والاسـتطاعة دون القدرة ولذلك كانت أبلغ فى الدلالة على العجز من قول القائل مثـلا ــ ما قدروا على القيام ، ودخول ــ من ــ دلت على توكيد العجز [٢].

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٧ / ١٧ .
(٢) ينظر التفسير الكبير ٢٨ / ٢٢٤ .

الثانى : أنهم لم يستطع أحد أن ينصرهم وذلك قوله تعـالى: ﴿وما كانوا منتصرين﴾ وذلك أكمل فى الدلالة على العجز والمذلة، وهذه مـن الإضافات الجديدة لهذا المشهد .

وفى سورة النجم جاءت آية واحدة وهى قوله تعالى : ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ .

وهى معطوفة على قوله تعالى السابق : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [٥٠] .

وذلك فى سياق التهديد والوعيد لكفار مكة ، الذين كذبوا محمـدا ﷺ ، وكذبوا بمعراجه ، وعبدوا الأصنام ، فضرب الله لهم المثل بالأمم العربية المشهورة فى الجزيرة العربية . عاد فى الجنوب ، وثمود فـى الشمال وقوم نوح والمؤتفكة (قوم لوط) فقد كذبوا رسلهم وعتـو عـن أمر ربهم فأهلكهم الله عزوجل وتلك سنة الله فـى خلقـه ومحمـد ﷺ والقرآن الكريم ــ نذير من النذر الأولى ــ وما وقـع للأمـم البـائدة المشركة يقع كذلك لأمة العرب ، ولكـن الله عزوجـل لـم يشـأ أن يستأصلهم لعلمه بإسلام الكثير منهم أو من أبنائهم وما استمر منهم على الكفر استؤصل فى غزوة بدر الكبرى ، بعـذاب القتـل دون عـذاب الصواعق .

والملاحظ أنه قدم عادا وثمود على قوم نوح وذلك على عكس الترتيب الطبيعي الموجود في كثير من السور مثل الأعراف وهود حيث يقدم قوم نوح على عاد وثمود . وذلك لأن المقصود بالتذكير بهؤلاء الأقوام هم مشركو العرب وعاد وثمود من أشهر الأقوام لديهم . وأكثرهم ذكرا بينهم . وديارهم موجودة في بلادهم يمرون عليها في رحلاتهم ، فهم بهم أوعظ وأزجر .

وقد جاءت الصياغة دالة على ذلك . إذ خلت الجملة الدالة على هلاك عاد وثمود من ضمير الفصل الدال على التوكيد الذي يكون في مواجهة المنكر أو الشاك فلم يقل مثلا ﴿وأنه هو أهلك عادا الأولى وثمود﴾ وإنما جاء الضمير مع قوم نوح حيث قال : ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ [٥٢] .

وقد دل هلاك ثمود على ما جاء مفصلا في المشاهد المطنبة. إذ أن الهلاك يدل على عدة أمور:

١ - مجئ رسول بدعوة إليهم .
٢ - وعيد الرسول لهم إن لم يتبعوه .
٣ - اختيار أكثرهم الضلال .

٤ - إهلاكهم جزاء على كفرهم ـ امتثالا لقوله تعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ فتأمل هذه الدقة في هذا الإيجاز إنها

جملة واحدة معطوفة على أخرى ، ولكن المتأمل فيها يستخرج منها خيوطا تنسج منها قصة القوم كاملة ٠

وقد دلت جملة ـ فما أبقى ـ على أن الهلاك هو عذاب الاستئصال . إذ لم يبق منهم أحدا ـ ولذلك يخطئ من يرى أن أهل ثقيف من بقايا ثمود ويتأكد هذا النفي الصريح بهذا النفي عن طريق الاستفهام في قوله تعالى : ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة/ ٨] والكلام يشمل عادا وثمود ٠

وأما عن كيفية هذا الهلاك. بأنه بالرجفة أو الصيحة أو الصاعقة أو الطاغية ، فقد ذكر في سياقات أخرى٠

وفي سياق الحديث عن اليوم الذي يحق فيه الحق ويزهق فيه الباطل. زجرا ووعظا لمشركي مكة ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان ، تأتي سورة الحاقة وتقدم طرفا من الحديث عن الأمم المهلكة كنموذج بشري يتعظ به أولوا الألباب ، فيقول الله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة/ ١ ـ ٥] ٠

وعن علاقة هذا المطلع بما سبق في سورة ـ ن ـ يقول ابن الزبير ـ لما بنيت سورة ـ ن ـ والقلم على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبي الله ﷺ عن شنيع قولهم وقبيح

بهتهم وبين حسدهم . وعداوتهم ــ وإن يكاد الذين كفــــروا لــيزلقونك بأبصارهم ــ أتبعت بسورة الحاقة وعدالهم وبيانا أن حالهم فى ســـــوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم ــ كذبت ثمود وعاد بالقارعـــــة ... فهل ترى لهم من باقية ... " [١] .

وقد جمع عادا وثمود فى صفة التكذيب ، ولكنه هنا أشار إلـــــى حيثية جديدة فى التكذيب وهى التكذيب بالقارعة وهى القيامة أو الساعة . وهى من القرع أى الضرب الشديد .

وهى تعنى الأهوال التى تصيب الإنسان والأكوان فى ذلك اليــوم حيث يسيطر الفزع على القلوب، ويحيط التغيير بجميع الكونيات مـــــن سماء وشمس وقمر ونجوم وبحار وأرض وغير ذلك كما هو منطـــوق الآيات فى سور التكوير والانفطار والانشقاق .

وفى إيثار لفظ ــ القارعة ــ ضم اسم آخر إلـــى اســـم القيامـــة المتقدم وهو ــ الحاقة ــ من حق الشئ إذا ثبت وقوعه ، فهى حـــق لا مرية فيه ، وكل ما فيها دائر على الحق والثبات والبيـــان والكشـــف . فكل اسم من أسمائها له دلالة دقيقة وعميقة ــ وما أكثر أســـــماءها ــ وزاد أمرها تهويلا وتفخيما وتعظيما ، بهذا الاســـــتفهام المكـــرر :﴿مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ فلتذهب النفس كل مذهب فى تصور إحقـــاق الحق وإزهاق الباطل فى هذا اليوم الموعود .

---

(١) نظم الدرر ٢٠ / ٣٤٠ .



كذلك يشير لفظ القارعة إلى أن جزاء الأمم المكذبة من جنس عملها فهي قد كذبت بالقيامة . فكانجزاؤها هذا العذاب النازل عليها من السماء . يقرع جسومهم قرعا . ويتبرما علوا تبتيرا فلا يبقى ولا يذر منهم أحدا . وفي ذلك الوعيد الشديد لأمة الدعوة المحمدية ٠

وبعد جمع عاد وثمود بطريق اللف جاء التفصيل بطريق النشر: ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ ٠

وقد صدرت الجملتان بـ ـ أما ـ وهى حرف تنبيه وتفصيل وتوكيد . تنبه المخاطبين ، وتفصل أحوال المعذبين ، وتؤكد إهلاك العاصين ، وقدمت ثمود على عاد، على خلاف ما هو معهود في سرد قصصهم في كثير من السور " لأن بلادهم أقرب إلى قريش وواعظ القرب أكبر ، وإهلاكهم بالصيحة ، وهى أشبه بصيحة النفخ في الصور المبعثر لما فى القبور"[1] فكان ذكرها بعد ـ الحاقة ـ من تمام بلاغة القرآن ٠

وهى تعنى بالتناسق وتواصل الألفاظ والمعانى ٠

ولما كان المقصود هو بيان ما وقع بهم من الهلاك بنيت الجملة للمجهول ـ أهلكوا ت دون الإشارة إلى مرسل العذاب . ثم بينت الجملة سببه بقولها ـ بالطاغية ، أى بالرجفة أو الصيحة التى تجاوزت الحد فى الشدة والقوة ٠

---

(١) المرجع السابق ٠



فهذه السورة أشارت إلى أمرين :

الأول : أن ثمود كذبت بالقارعة .

الثاني : أن ثمود أهلكت بالطاغية .

وكلا الأمرين يمثلان العمود الفقرى للقصة كلها .

وفى سياق التهديد والوعيد لمشركى قريش وتوجيه أنظارهم إلى الاعتبار بمصائر المعذبين من الأمم السابقة وبخاصة من هم أقرب إليهم . وآثارهم باقية لديهم يمرون عليها فى رحلة الشام التجارية وهم ثمود . يأتى آخر مشهد موجز فى سورة الشمس فيقول الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [١١ـ١٥] .

وقبل أن نعرض لبناء الجملة فى هذا المشهد نشير إلى أن سورة الشمس بأكملها قد ربطت ربطا محكما ، وسبكت سبكا قويا ، حتى بدت آياتها الخمس العشرة ، وكأنها جملة واحدة . وذلك عن طريق القسم الذى استغرق عشر آيات . وبعدها جاء الجواب : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ على اختلاف بين العلماء فى الجواب المذكور أو المحذوف فربطت السورة ربط القسم بجوابه .

والسورة تؤكد على العلاقة القوية بين الكون وبين النفس الإنسانية . من خلال هذه الأشياء التى أقسم الله بها .



فقد أقسم : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ •

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ •

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا﴾ •

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ •

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ •

﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ •

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ •

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ •

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ •

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ •

وقد اشتمل القسم على الأجرام العلوية المضيئة مثل الشمس والقمر، واشتمل كذلك على العناصر السفلية المظلمة،مثل الليل والأرض •

والنفس الإنسانية بما أودع الله فى فطرتها من العلم الضرورى والفهم الوجدانى والإدراك المميز بين ما هو نافع وما هو ضار ، وبين الخير والشر ، وبين ما هو حسن وما هو قبيح وجعل لها مشيئة الاختيار فى واحد منها •

وذلك بمعاونة القوة الواعية المدركة وهى العقل وبما يأتيها من وحى الله عزوجل على ألسنة الرسل وفى الكتب المقدسة . فإنها تكون جزءا من هذا الكون ، فعندما تختار الإيمان وتنير قلبها به ، فإنها تكون كالشمس المضيئة فى نفع العباد ، وكالقمر الذى يبدد ظلام الليل وتتسامى إلى أعلى رفعة وعزة وقدرا تسامى هذه العناصر فى علياتها .

وإن انحطت فى مستنقع الرزيلة ، وأبت إلا الاختفاء فى حقل المعصية والبعد عن معالم النور ، كانت كالليل المظلم مثار نفرة وفزع وكالأرض الكثيفة لا حس ولا ارتقاء .

ومن هنا بدت العلاقة واضحة بين هذه العناصر ولذلك قال سيد قطب رحمه الله " ومشاهد الكون وظواهره إطلاقا بينها وبين القلب الإنسانى لغة سرية ، متعارف عليها فى صميم الفطرة وأغوار المشاعر . وبينها وبين الروح الإنسانى تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت ، وهى تنطق للقلب وتوحى للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنسان الحى . حيثما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء . ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب فى شتى المواضع تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ووضعها إطارا لما يليها من الحقائق" (١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٩١٦ .

وفى جواب هذا القسم وقع خلاف بين العلماء ٠

فذهب الزمخشرى إلى أن الجواب محذوف والتقدير ليدمدمن الله عليهم ، أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا . وأما قد أفلح من زكاها فكلام تابع لقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شئ"[١].

وذهب الألوسى وغيره إلى أن الجواب ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وحذفت اللام لطول القسم تخفيفا ودخلت ـ قد ـ على الجملتين اعتناء بتحقيق مضمونيهما . لتعلق القسم بهما ٠

وأشار ابن عاشور إلى أن قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ يمكن أن يكون هو الجواب ، وما قبله من قوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ معترضة بين القسم وجوابه " لمناسبة ذكر إلهام الفجور والتقوى أى أفلح من زكى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهى"[٢].

ولكن لا داعى للقول بحذف الجواب كما يرى الزمخشرى لأن السياق وتتابع الآيات لا تحتاج إلى تقدير ٠

---

(١) الكشاف ٤ / ٢٥٩ ٠
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٧٠ ٠



لأن المقصود من القسم بهذه العناصر العظيمة هو التأكيد على فلاح من زكى نفسه ، وعلى خيبة من دس نفسه ، وفى هذا تعريض بالمشركين المكذبين لرسول الله ﷺ وكما بين طريق التقوى وهى تزكية النفس بين طريق الفجور وهى تدسية النفس ، أى تنقصها وإخفاؤها فى ظلام المعصية وهذا قانون عام لكل نفس سواها الله عزوجل ومنها نفوس المشركين ، ولعل تنكير – نفس – وهو للتكثير فى قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ والتعبير بـ "من" الدالة على العموم فى قوله – من زكاها – من دساها يشير إلى هذا الوضع العام من الفجور والتقوى والحكم على من يسير فى طريق التقوى ومن يسير فى طريق الفجور . وهذا يؤكد صحة ما ذهب إليه الألوسي فى الجواب.

وأما قوله – كذبت ثمود – فهو تقديم لنموذج بشرى حاقت به الخيبة لتدسية نفسه فى الكفر والتكذيب وليس هو الجواب المحتمل كما يرى ابن عاشور.

وقد بدأ المشهد بفعل – كذبت – لأنه فى سياق الوعيد والتهديد لمشركى قريش . وإعلامهم بأن مصيرهم يمكن أن يكون كمصير هؤلاء المعذبين .

وعن تأنيث الفعل يقول البقاعى "أنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم . وقبيح غايتهم ، وما لهم بسفول الهمم وقباحة الشيم"[١] .

---

(١) نظم الدرر ٣٢ / ٨٠ .

والملاحظ على هذه الجملة أنها أضافت شيئا جديدا لم يذكر في الجمل الأخرى التي تحدثت عن تكذيب ثمود حيث ورد :

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ .

وهنا ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ فذكرت سبب تكذيبها وهو ــ الطغيان ــ أي مجاوزة الحد في العصيان ، وهذه المجاوزة كانت في التكذيب بالرسل وبالإنذار وبالقارعة يدل على ذلك مجموع هذه الآيات التي تدل على التكذيب في معناها العام ولكن تبقى لكل آية خصوصية في التكذيب فهي أولا : تكذيب بالرسول .

وثانيا : تكذيب بالإنذار .

وثالثا : تكذيب بالقيامة .

ورابعا : التكذيب الذي بلغ حد الطغيان في كل ما سبق .

ولذلك كان طغيانهم متعدد الاتجاهات . فأوثرت الصيغة الدالة على قوة الطغيان وهي ــ طغواها ــ والفعل ــ طغى ــ واوي ويائي كما يقول الراغب ــ طغيت وطغوت ــ طغوانا وطغيانا ــ فأوثر في هذا السياق مصدر الواوي لقوة الواو وفخامتها . ليدل على أنهم بلغوا الغاية في الطغيان الذي كان سببا في التكذيب . ثم جاءت ــ إذ ــ الظرفية لتبين . متى بلغ الطغيان القمة وبلغ الغاية ؟

فكان قوله تعالى : ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ دالا على ذلك . وصياغة ـ انبعث مطاوع ـ بعث ـ أى بعث فانبعث . تدل على تراضى القوم وتواطئهم على الطغيان الذى بلغ نهايته عند عقر الناقة . وهذا التواطؤ والتراضى كان سببا فى جرأة أشقى الأولين . قدار بن سالف على عقرها .

وصياغة ـ أشقاها ـ هكذا على أفعل التفضيل تدل على شقاء القوم وقدار أشقاهم. لمباشرته الفعل .

وهذا المعنى المكتنز فى هاتين الكلمتين . دلت عليه جملة قوله تعالى : ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ وقوله فى أكثر من موضع ـ فعقروها ت فكأن هذه الجملة ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ سيقت لتحديد المستوى الأعلى من طغيان القوم . فهى من متعلقات الطغيان وليس من متعلقات التكذيب . لأن التكذيب المذكور فى أول المشهد تكذيب عام كما دلت عليه الآيات المتناظرة . أى أنه تكذيب بالرسول وبما جاء على لسانه من الأوامر والنواهى المتعلقة بالدعوة .

ثم تحداهم بالمعجزة الدالة على صدقه وهى الناقة وأمرهم ونهاهم بشأنها ﴿فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ وهذا المعنى هو ما جاء فى أسلوب التحذير فى قوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها﴾ وهذا التحذير الموجز مفصل فى سورة الأعراف وهود والشعراء .

فكان موقفهم من هذا التحذير هو التكذيب والعقـــر . فـــالتكذيب الأول تكذيب بدعوة الرسول صالح عليه السلام والتكذيب الثانى تكذيب بالأوامر والنواهى المتعلقة بالناقة ٠

والفاء فى قوله : ﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ دالـــة على تتابع هذه الأحداث وتعاقبها ٠

وكما كانت عندهم جرأة فى التكذيب والعقر . كانت هناك القـــوة الإلهية فى إطباق العذاب عليهم ٠

ولذلك جاء الفعل ــ فدمدم ــ بهذه المقاطع المكررة ليدل علــــى مضاعفة المعنى وقوته إذ هو من ــ دم ــ والتضعيف لزيادة المعنى٠

وفى اختيار هذه المادة ــ دم ــ عجيبة من عجائب اللفظ القرآنى. إذ أن هذه المادة تدور حول الطلاء. والطلاء بالدم، والتسوية، والكنـس والقبح والحقارة،والشدخ، والأرض القاحلة واللزوق بالأرض والطحن. والإهلاك. والإرجاف، والغضب. والكلام المزعج وإطباق العذاب[1] ٠

كل هذه المعانى تفيض بها هذه الكلمة فى هذا السياق حيـــث إن هذا العذاب كان من أثر غضب الله عليهم وكلامه المزعج عبارة عـــن صيحة جبريل بهم ــ تلك الصيحة التى رجفت منها قلوبهم ــ وألزقتهم بالأرض . فشدخت رؤوسهم ، وطحنت أجسامهم . وكانوا مثـــلا فـــى الذلة والحقارة وسوت بهم الأرض . وكنست ديارهم مما عمروها بــه، فصارت كالأرض القاحلة . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ٠

---

(١) لسان العرب ــ دمم ــ ٠

وهكذا أطبق عليهم العذاب . وأحاط بهم إحاطة الطلاء بالجسم. فلم يبق منهم أحدا .

وهذا هو الهلاك الذى شرحته آيات آخر ، ولكن بألفاظ محددة مثل — الرجفة — الصيحة — الصاعقة — وزيادة فى تصويب وتسديد العذاب قال — عليهم — للإشعار بقوة الانتقام . ويعظم هذا الانتقام إذا كان من — الرب — الذى رباهم بنعمة فكفروا بها ، ولم يقيموا لدعوته وزنا ، ولا شك أن غضب الحليم أشد وأنكى . وهذا العذاب كان منه تعالى عدل لأنه بذنبهم ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ فكما تساووا فى الذنب تساووا فى الجزاء . ولذلك قال — فسواها — وختم مشهد التعذيب بما هو أدل على الاقتدار والقهر وذلك بجملة ﴿ولا يخاف عقباها﴾ فليس المقصود بهذه الجملة منطوقها وإنما المراد لازمها لأن الله تعالى لا يخاف . وممن يخاف؟

إنه سبحانه يفعل فعل من لا يخاف العاقبة وإذا كان الأمر كذلك كان بطشه شديدا ، إن بطش ربك لشديد ، وذلك من متممات التعذيب .

يقول ابن عاشور " ولما كان المذكور عقابا وغلبة وكان العرف أن المغلوب يكنى فى نفسه الأخذ بالثأر من غالبه . فلا يهدأ له بال حتى يثأر لنفسه . ولذلك يقولون . الثأر المنيم — أى الذى يزيل النوم عن صاحبه . فكان الذى يغلب غيره يتقى حذرا من أن يتمكن مغلوبه من الثأر . أخبر الله أنه الغالب الذى لا يقدر مغلوبه على أخذ الثأر منه. وهذا كناية عن تمكن الله من عقاب المشركين وأن تأخير العذاب

عنهم إمهال لهم وليس عن عجز فجملة ﴿ولا يخاف عقباها﴾ تذييل للكلام وإيذان بالختام ٠

ويجوز أن تكون الجملة . تمثيلا لحالهم في الاستئصال بحال من لم يترك من يثأر له فيكون المثل كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم لم يبق منهم أحد[١] ٠

وكون الضمير في قوله ـ ولا يخاف ـ راجعا لله تعالى هو الأرجح لكون الجملة دالة على شدة عقاب الله لهم فهي متممة لقصة التعذيب ٠

ومنهم من ذهب إلى أن الضمير للرسول صالح عليه السلام، إذ لم يخف العاقبة لأنه حذرهم وأنذرهم ٠

أو أن الضمير لأشقى ثمود إذ لم يخف العاقبة لجهله وحمقه[٢].

ولكن السياق يرجح الأول ٠

" فيكون الإسناد على الوجه الأول مجازيا على سبيل التمثيل لأن الله لا يخاف عاقبة ما فعله بهم . كما يخاف الملوك عاقبة ما تفعله ، فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله ٠

أما الوجهان الآخران فإسناد الفعل فيهما جرى على معناه الحقيقي سواء أسند إلى رسول الله ـ صالح ـ عليه السلام أم أسند إلى ذلك الأشقى عاقر الناقة"[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٧٥ ٠

(٢) ينظر روح المعاني ٣٠ / ١٤٦ ٠

(٣) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ١٩٠ ٠



وقفة مع مشاهد الإطناب ومشاهد الإيجاز

بالنظر فى مشاهد القصة التى جاءت بأسلوب الإطناب . وجدناها قامت على البداية الحقيقية للقصة . من إرسال صالح عليه السلام إلـــى ثمود .

ثم تتسع القصة فى المحاورات بين صالح عليه الســـلام وقومـــه وبين المستكبرين من قومه والمستضعفين، وفى أثناء تلك المحـــاورات تأتى الأوامر والنواهى، والزواجر والمواعظ بأسلوب التلطف والإشفاق حينا ، وبأسلوب التهديد والوعيد حينا آخر ، ويتودد صالح إلى قومـــه بالأسلوب اللين العطوف، فتعلو نبرتهم فى الرفض بأســـلوب القســـوة والجفاء ويتوعدهم بالعذاب، فيصرون على رؤيته وإتيانـــه . وتكـــثر مفاسدهم وطغيانهم، ويقتلون رمز النبوة، وصدق الداعية، وهى الناقـــة، فيداهمهم العذاب ، حتى أصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لـــم يغنـــوا فيها ونجى الله صالحا ومن معه من المؤمنين من العذاب الأليم ـــ كـــان هذا هو لب مشاهد الإطناب . ولكنها لم تفصل كثيرا مـــن المواقـــف ولكنها طوتها فى داخل الجمل . وظلت الالفاظ وبناء الجمل على نمـــط معين تفيض بدلالات ومعانى . لو فصلت بأساليبها لطـــالت المشـــاهد أكثر وأكثر .

ولذلك فإن تسميتى لها بمشاهد الإطناب فيه كثير مـــن التجـــوز والتسامح، والوقوف على التحليل السابق لهذه المشاهد خير دليل علـــى



أن إطنابها إنما هو إطناب نسبي، أى إذا قيس بمشاهد الإيجاز . وإلا لو نثرت ما فيها من معان لاحتاج كل مشهد إلى بحث مستقل وما يوفيه باحثة حقه من الإحاطة والشمول ولذلك فإنى أرى أن الإطناب فى الأسلوب القرآنى أو ما نسميه بالإطناب إنما هو فى حقيقته إيجاز معجز .

ومن العجيب أن المشاهد الموجزة ، تكتنز من المعانى وتبنى فيها الجمل على وضع يحقق المحاور الأساسية فى القصة كلها بداية ونهاية ، وكأن الإيجاز والإطناب فيها على حد سواء ، وقد ظهر لنا من خلال تحليل المشاهد الموجزة . كيف كانت الجمل المعدودة تغطى المحاور الأساسية فى القصة . وتبقى فيها بعض الفجوات التى تكملها وتفصلها آيات أخرى . ولكن فى النهاية لا يغنى الإطناب عن الإيجاز ولا يغنى الإيجاز عن الإطناب ، فكل مشهد له سياقه ومساقه . وبناء كل جملة يحوى من المعانى ويفيض بالدلالات مالا تحويه أو تفيض به أخرى، وذلك ما نفى عن القصة رتابة التكرار ، وقد وقفنا بالفعل على كل مشهد ورأينا أن كل مشهد له هدفه وغايته وأن الآيات التى تتشابه فى صياغتها تختلف فى دلالتها ، كما سنبين فى فصل متشابه النظم .

ولذلك فإنى أقول كما قال الدكتور/ محمد عبدالله دراز "إن القرآن الكريم يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى ، أجل ، تلك ظاهرة بارزة فيه كله يستوى فيها مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله

التى يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازا كله لأننا نراه فى كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف ميلا ما .

ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها. فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى " (١) .

وفى دائرة القصص ما يمكن أن نسميه " إيجاز الإيجاز" وهى تلك الآيات الأفراد التى تأتى جامعة الأمم السابقة ومكثفة معانى قصصهم وما حاق بهم من الهلاك بسبب تكذيبهم رسلهم ، فى آية واحدة ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة / ٧٠] وهناك كثرة من أمثال هذه الآية فى القرآن الكريم وكلها تشتمل على المحاور الأساسية لقصص هؤلاء الأقوام والذى جاء مفصلا ومنثورا فى مواضعه من القرآن الكريم .

---

(١) النبأ العظيم ١٢٧ وما بعدها .



الروابط فى القصة

أشرت تحت عنوان ــ النحو وتوجيه المعنى ــ إلى أن الجملة العربية بعامة . والجملة القرآنية بخاصة ، لها نمط تركيبى خاص طبقا للمعنى المقصود . فليست الجملة فقط تتركب من ركنين أساسيين ، المسند والمسند إليه، وإنما لابد من اتصال لغوى بين الجمل بعضها ببعض، وترابط يحكم تواصلها فى الألفاظ والمعانى ، بحيث تبدو جسما واحدا على مستوى السورة كلها ، وعملا واحدا على مستوى القصة الواحدة على الرغم من تعدد مشاهدها فى أكثر من سورة ·

وتحت هذا العنوان ــ الروابط فى القصة ــ نشير بإيجاز إلى ما نثرناه فى تحليل المشاهد . بأن قصة صالح عليه السلام كانت جزءا متصلا فى كل السور التى وردت فيها ، كما أن هذه المشاهد المتعددة والمتنوعة كان بينها من التكامل والتآزر والوحدة والترابط ما جعلها تشكل قصة واحدة مترابطة ومتناسقة . كل جزء منها عضو عامل على مستوى السورة الواحدة . وعضو فاعل على مستوى القصة الواحدة. وهذا أمر تميزت به القصة القرآنية ·

وبالنظر فى هذه الروابط التى أحكمت العلاقات السياقية بين أجزاء الجملة ، وبين الجمل على مستوى التراكيب نجد أنها تتنوع إلى:

١ - الروابط الحرفية ·

٢ – الروابط الجملية ٠

٣ – الروابط المعنوية ٠

فبالنسبة للروابط الحرفية كانت متعددة إلى :

الروابط الدالة على التشريك والترتيب وهى الواو وقد تكررت ستا وخمسين مرة (٥٦) ٠

الروابط الدالة على التعقيب أو مطل الحدث وهى الفاء وقد تكررت خمسين مرة (٥٠) ٠

الروابط الدالة على التراخى أو الترتيب الرتبى وهى ــ ثم ــ وتكررت مرتين (٢) ٠

الروابط الدالة على النفى مثل ــ ما ــ لا ــ وتكررت الأولى اثنتى عشرة مرة ــ والثانية عشر مرات ١٢ ــ ١٠

الروابط الدالة على الاستفهام مثل ــ الهمزة و ــ هل ــ هذا إلى جانب الكثرة من حروف الجر والأسماء الموصولة والشرط والقسم ، وكل هذه الروابط تؤدى إلى التواصل اللغوى . وتعليق التراكيب بعضها ببعض ، فتبدو فى وحدة متماسكة ، متين سبكها، قوى بنيانها سلسة انتقالاتها ، مزجاة إلى غاياتها ٠

ويلاحظ أن هذه الروابط كانت ذات أثر فعال فى المعانى المقصودة من التراكيب . وقد تبين من خلال تحليل المشاهد أن ــ

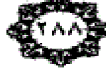
الواو ــ مثلا لم تأت فقط لمطلق الجمع ، وإنمـــا دلــت كذلـــك علـــى الترتيب فى توالى الأحداث ، واستقلالها واتصالها ٠

ولم تكن كذلك بين تراكيب القصة . وإنما جاءت فى أول القصـــة دالة على عطف القصة على قصة أخـــرى، فكـــانت أداة ربـــط بيـــن مضمون القصتين ٠

وكذلك ــ الفاء ــ فقد توالت كثيرا فى التراكيب ذات الأحـــداث المتعاقبة ، فأحيانا تدل على سرعة توالى الأحداث واتصالها٠

وأحيانا تدل على اتساع المساحة الزمنية التى شغلها الحدث فتدل على استمرار الحدث ومطه من زمن إلى زمن الحدث الثـــانى، كمـــا وضح ذلك من قوله تعالى : ﴿فكذبوها فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ فالعقر لم يكن عقب التكذيب مباشرة ، وإنما كان هنـــاك زمـــن ممتـــد لدعوة صالح عليه السلام . والمحاورات بينه وبين قومه ٠

وقد دلت ــ الفاء ــ فى قوله ــ فعقروهـــا ــ علـــى اســـتمرار التكذيب حتى العقر، ولم يكن منهم تأمل ولا تفكير فى دعـــوة صـــالح عليه السلام وإنما هو الرفض والإنكار والتكذيب المســـتمر ، ثـــم إن إطباق العذاب عليهم لم يكن عقب العقر مباشرة، إذ أن هناك مهلة ثلاثة أيام . ولكن قوله ــ فدمدم عليهم ــ بالفاء دلت على طى هذه الأحداث. والفاء فى قوله ــ فسواها ــ دلت على أن هذا العذاب استمر بهم حتى ــ سواها ــ ٠



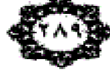
وما أكثر ورود ــ الفاء ــ فى القصة القرآنية بهذه الاعتبارات ، وبخاصة فى الآيات المكية، التى تنزع إلى شدة اتصال الأحداث . وسرعة تعاقبها، وطى كثير من الأحداث التى تعرف بالتأمل ، والتركيز على الأحداث ذات الأثر الفاعل فى الوعظ والتذكير . واعتماد أسلوب الإيجاز وتكثيف المعانى، وإرسال الأسلوب متلاحقا قويا كى ينفذ بشدة إلى هذه القلوب القاسية فى فترة الدعوة الأولى فى مكة المكرمة .

وأما بالنسبة للروابط الجملية . فقد صدرت القصة بالجمل التى تعتبر من المعالم البارزة الدالة على بداية القصة .

وسلكها مع القصص الأخرى . مثل ــ وإلى ثمود أخاهم صالحا ــ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ــ كذبت ثمود المرسلين ــ كذبت ثمود بالنذر ــ كذبت ثمود بطغواها ــ وهذه البدايات متماثلة مع بدايات القصص الأخرى ، فدل هذا التماثل على الاتصال والترابط، ووحدة المنهج والهدف فى التذكير والإنذار .

فهذه الجمل المتماثلة تمثل وقفات تأمل ولحظات استفهام للتعرف على موقف السابقين ، وكيفية عمل اللاحقين .

وكأن هذه الجمل فيها تنشيط للذهن وتذكير للعقل عن طريق إعادة الألفاظ أو بعض التراكيب ، وذلك أدعى للتذكير وأقوى فى الاستحواذ على المعانى من التفلت والنسيان ...



وناهيك بعد ذلك عن الجمل الى يقوم عليها التحاور ، وكيف تتواصل ، إما بالوصل الظاهر ، وإما بالوصل الخفى ٠

وكذلك الجمل التى تتكرر فى البدايات والخواتيم ، وكذلك الجمل الدالة على إنزال العذاب، فأخذتهم الرجفة ـ فأخذتهم الصيحة ٠

كل هذه الجمل وسائل ربط محكم فى تماسك أجزاء القصة الواحدة ، وتماسك القصة الواحدة فى الهيكل القصصى كله ٠

ويشد من أزر هذا التماسك روابط معنوية وهى مبثوثة فى تضاعيف القصة كلها مثل ـ كمال الاتصال وشبه كمال الاتصال ، والتوسط بين الكمالين ، والترابط الإسنادى بين الجمل الاسمية والفعلية ٠

الفواصل فى القصة

لما كان العرب يعتمدون على الذاكرة والسماع والمشافهة فى تناقل الأخبار، وإنشاد الأشعار كانت الأذن هى الحكم الناقد فى الإيقاع والوزن الشعرى . يميزون بها بين الأسلوب الذى تناسبت أجزاؤه إيقاعيا . وائتلفت تفعيلاته وزنا ، وبين الأسلوب الذى ينكدر فيه هذا الإيقاع ، ويغيض فيه وزن التفعيلات ، وليس لهم فى ذلك علم الخليل. وإنما هى الأذن المرهفة والحس الأصيل والطبع العريق فى النظر إلى صوتية التراكيب .

ويدل على ذلك ما روته كتب الأدب حول أبيات النابغة الذبيانى ــ أمن آل مية رائح أو مغتدى ــ حيث اختلفت حركة حرف الروى فيها ــ وهو ما عرف بالإقواء ــ فأسمعوها له فى غناء ، وقالوا للجارية ، إذا صرت إلى القافية فرتلى، فعلم وانتبه وقال دخلت الحجاز وفى شعرى ضعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس.

المهم أنهم تنبهوا إلى هذا العيب الذى أخل بالتناسق الصوتى بين الأبيات وكان طريقهم إلى ذلك . الأذن الموسيقية والحاسة العربية، وعلى نفس الطريقة استمعوا إلى القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام يتلوه فى جنح الظلم ، وكانوا يتسارقون الاستماع إليه فيروعهم جمال إيقاعه وجمال فواصله ، بل إن جمال الإيقاع وجمال الفواصل استحوذ على قلوبهم أكثر من استحواذ الأوزان الشعرية على قولهم . ومن هنا راحوا يصفونه مرة بأنه شعر، ومرة بأنه سحر.

وقد عرض علماء الإعجاز لطائفه من تعريفات الفاصلة، فقال الرمانى هى " حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى"٠

وقال الزركشى " وهى كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع" ٠

وقال القاضى أبو بكر " الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها إفهام المعانى"[1] ٠

ومع قياس الفاصلة على قافية الشعر ، يبقى للفاصلة حريتها فى عدم التقيدي بحروف معينة كما فى قافية الشعر ٠

ولا يعتريها من العيوب ما يعترى القافية مثل ــ السناد ــ والإقواء ــ والتضمين ــ بل إنها تتغير من نمط إلى نمط آخر طبقا للمعنى المقصود " ومع ذلك تأتى الفاصلة فى نهاية الآية لتحقق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم لأننا مهما يكن من شئ نحس أنها تضفى على النص قيمة صوتية منتظمة ينقسم سياق النص بها إلى وحدات أدائية تعد معالم للوقف والابتداء وتتضافر مع الإيقاع .. فينشأ من تضافرها أثر جمالى لا يبعد كثيرا عما نحسه من وزن الشعر وقافيته ولكن هذا الأثر يمتاز عن ذلك بالحرية من كل قيد مما تفرضه الصنعة على الوزن والقافية " [2].

---

(١) ينظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٨٩ والبرهان فى علوم القرآن ٥٣/١
(٢) البيان فى روائع القرآن ١٩٦ ٠

وبالنظر إلى انسجام صوتية التراكيب في القصة ، نجد أن مشاهد القصة في كل سورة قد ائتلفت مع السورة كلها من ناحية، ومن ناحية أخرى قد ائتلفت المشاهد كلها في وحدة واحدة لتكون القصة كاملة.

وهناك علاقة وطيدة بين صوتية الإيقاع والفواصل في المشهد الواحد مع السورة التي ورد فيها، ومع تعدد المشاهد في أكثر من سورة نحصل على إيقاعات متعددة . وفواصل متنوعة، وذلك لمناسبة التطابق بين المعاني وصوتيات التراكيب.

ويضاف إلى جمال الإيقاع وجمال الفواصل جمال القراءة القرآنية والتي تعرف باسم "الترتيل" كما قال تعالى : ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ وهذا الترتيل ما هو إلا طريقة من طرق الأداء الصوتي الذي يعطي كل حرف ما يستحقه من المد والغن . " هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن في نصه إيقاعا آخر طارئا من خلال الأداء والقراءة .

فإذا اجتمع الإيقاع الصوتي وذلك الإيقاع الترتيلي لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال . وسبحان الله تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾[1].

---

(١) البيان في روائع القرآن ١٩٠ .

ومعلوم أن صوتية القراءة لا تظهر إلا مع القارئ الجيد الـــذى يراعى أحكام التجويد . ولكن هناك صوتية كامنة فى النص القرآنـــى تظهر فى إيقاعه وفواصله .

فأما الإيقاع فهو انسجام صوتى متوازن بين مقـــاطع الكــلام . أحيانا يكون طويلا متموجا رخيا وأحيانا يكون سريعا قصيرا متواليـــا. ومرد ذلك إلى بواعث المعنى ومقتضيات الأحوال ..

ففى المشاهد المطنبة نجد أن إيقاعات المشهد تطـــول وتتوانـــى نظرا لسوق المواعظ . وآيات التذكير ، وهى تتطلـــب وقفـــات مـــن الداعية والمذكر تتنوع بين الترغيب والترهيب، وذلك واضح فى سور ، الأعراف وهود والنمل ، ويضاف إلى ذلك الإيقاعات المتماثلة مـــن أساليب التكرار ، والتى تتمثل فى مطالع المشـــاهد كقولـــه تعـــالى : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ ، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ ، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ .

وكذلك ما جاء من التكرار فى مشاهد ســـورة الشـــعراء حيـــث تماثلت البدايات والخواتيم ، وأدى هذا التماثل إلى إيقاعات متوازيـــة . فنقرأ مثلا فى بداية قصة نوح ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وتنتهي بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

ويتكرر نفس المطلع والنهاية مع هود وصالح ولوط وشعيب . مع تغيير اسم النبي فقط ، وهذا التكرار ذو دلالة متساوية في الإيقاع يؤدي إليه هذا التماثل في التراكيب "ولأهمية هذا القانون ــ التكرار ــ في الإيقاع يجعله بعض الدارسين قسيما لقوانين الإيقاع الأخرى أو بعبارة أدق يدرج تحته معظم قوانين الإيقاع ما عدا قانون ــ التغير ــ فيرى أن عنصر الجمال يدور على الانسجام، وأن الانسجام كله مداره على التنويع والتكرار"[1].

وفي المشاهد الموجزة نجد الجمل تقصر وتتوالى مقاطعها الصوتية ذات الموجة القصيرة ، والإيقاع السريع ، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ .

إنها سورة الحاقة " وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلا ثم استقراره استقرارا مكينا، رفعه في مدة الحاء

---

(١) الفاصلة في القرآن ٢٥٩ .

وبالألف وجده فى تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاء ساكنة»(١) .

والسورة تلتقط لقطات سريعة من الأمم المكذبة وتعرض أحوالها بصورة أسرع يوم القيامة، ولذلك كان الإيقاع وجرس الكلمات والفواصل متوافقا مع السياق العام الذى تعرضه السورة من عمق التأثير ودقة الإيحاء بهول هذا اليوم ...

وبالنظر إلى فواصل القصة ، نجد أن أكثرها قد بنى على حروف متماثلة ، وبعضها قد بنى على حروف متقاربة شأنها فى ذلك شأن الفواصل القرآنية بوجه عام كما ذكر الزركشى فى البرهان(٢).

١ـ **الفواصل المتماثلة** :

وقد تنوع هذا التماثل فى مشاهد القصة فجاءت الفواصل مبنية على حرف النون المسبوقة بالياء أو الواو . فى سور الأعراف والحجر والشعراء والنمل وفصلت والذاريات ٠

وجاءت الفاصلة مبنية على حرف الراء فى سورة القمر وعلى التاء المربوطة التى يوقف عليها بالهاء الساكنة فى سورة الحاقة. وعلى الألف التى بعدها ـ ها ـ فى سورة الشمس . وهى من الفواصل المتوازية ٠

---

(١) فى ظلال القرآن ٣٦٧٤ ٠
(٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن ١ / ٧٥ ٠

٢ ـ الفواصل المتقاربة :

وذلك واضح فى فواصل سورة هود ، حيث لم يلتزم حرف معين بعد ــ الواو ــ أو ــ الياء فكان بعضها متماثلا ، وبعضها متقاربا، وجاءت كالآتى : مجيب ــ مريب ــ تخسير ــ قريب ــ مكذوب ــ العزيز ــ جاثمين ــ ثمود ٠

٣ ـ الفواصل المتمكنة :

وهى تلك الفواصل التى تعتبر جزءا من معنى الآية يمهد لها معنى الآية السابق ، وترتبط به ارتباطا عضويا ، ويتعلق معناها بمعنى الكلام السابق عليها تعلقا تاما ، فتأتى الفاصلة متمكنة فى مكانها، مستقرة فى مقامها ، بحيث لو لم تذكر لضاع جزء من المعنى وفقد الكلام تمام معناه واضطرب فهم المتلقى ٠

وهذا النوع هو الغالب على مشاهد القصة ، وقد ذكر الدكتور/ تمام حسان ، مشهدها من سورة الأعراف وعلق عليه قائلا "فكل آية مما سبق تنتهى بكلام ذى علاقة عضوية سواء من حيث التركيب أو الأسلوب بما سبق من بقية الآية فلا تكاد الآية تستغنى عنه دلاليا لشدة الإرتباط بينه وبين بقية أجزائها"[(١)] ٠

فالوعيد فى قوله تعالى : ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ مرتبط بالأمر بالعبادة والمحافظة على الناقة ٠

---

(١) البيان فى روائع القرآن ١٩٦ ٠

والنهى فى قوله تعالى : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ مرتبط بتذكر نعم الله عليهم الداعية للشكر وليس للإفساد .

وقول المستضعفين ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ تقرير عن موقفهم مع المستكبرين .

وقول المستكبرين ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ تقرير عن موقفهم مع المؤمنين .

وقول قومه : ﴿إن كنت من المرسلين﴾ تقرير عن شكهم فى أنه من المرسلين .

وقوله تعالى : ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ تقرير عن أثر أخذهم بالرجفة .

وقوله عليه السلام : ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ تقرير نهائى عن المشهد كله .

٤- الفواصل الواقعة موقع التذييل والتعقيب :

وهى تلك الفواصل التى تكون بمثابة التوكيد أو التعقيب على مضمون الآية السابق ، وهى تكسب الكلام جمالا إيقاعيا . وجمالا دلاليا، وهى قليلة بالنسبة للفواصل المتمكنة .

وذلك واضح فى قوله تعالى :

﴿إن ربى قريب مجيب﴾ .

﴿إن ربك هو القوى العزيز﴾ .

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ .

﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

وقد مضى فى التحليل بيان علاقة هذه الفواصل بمضمون الآيات التى وردت فيها وهى واقعة "موقع التذييل من الآية فأكسبها على جمالها جمالا وحدد معالمها وميزها عن غيرها وأبرز ما تمتاز به من مضمون خاص والملاحظ أن هناك انسجاما وتآلفا بين مضمون الآية ومضمون التذييل ، فليس فى القرآن آية يدعو مضمونها إلى العقاب وتذييلها إلى المغفرة والرحمة . وليس فيه آية تتضمن رضوانا من الله ينتهى تذييلها بالوعيد وشدة العقاب"[١].

وكون التذييل يتضمن ما يشير إليه صدر الآية هو ما يعرف بالفاصلة الموشحة .

وكون التذييل يحتوى على لفظ صريح ذكر فى صدر الآية هو ما يعرف بفاصلة التصدير .

---

(١) البيان فى روائع القرآن ١٩٧ .



وليس من هم هذه الدراسة استقصاء بحوث الفاصلـــة القرآنيـــة، ففيها بحوث ، ولها مكان آخر ، وإنما المهم هنا بيان العلاقـــة المتينـــة بين الفاصلة وما جاءت فيه من مشاهد هذه القصة ، وكيف بنيت علـــى حروف كانت ذات أثر فاعل فى المعنى المقصود ، وكيف بنيت علـــى إيقاع ووزن كان له حلاوة وعليه طلاوة ، ضم إلى جمال الـــدلالات ، جمال الصوت والأداء ٠



الفصل الثالث
تراكيب القصة فى متشابه النظم

وقعت مشاهد القصة كما سبق بيانه فى إحدى عشرة سورة ، وكل مشهد له سياقه وغرضه الذى يجعله لحمة فى سدى السورة كلها، ويتصل اتصالا مباشرا بمن سيقت لهم القصص القرآنى لأخذ العبرة والعظة . وهم كفار مكة ومشركوها . ومن على شاكلتهم فى كل زمان ومكان . من أمة الدعوة المحمدية.

وفى تتابع هذه المشاهد فى تلك السور لانعدم من وجود جمل تتقارب فى بنائها ، وتكاد تتماثل فى دلالاتها . ولكن يبقى بينها من فروق خاصة يجعلها تحتفظ بالاستقلال فى المعنى، فتضيف الجديد فى معانى القصة ، فتتكامل المعانى وتثرى الدلالات وتملأ الفجوات بين المشاهد حتى تبدو القصة نسيجا واحدا . وجسما متكاملا له بدايته ونهايته ، وله فعله وأحداثه ، وحلقاته المتواصلة والمتسلسلة من لدن إرسال الرسول إلى القوم ومرورا بمواقف التقارب والتباعد بينهم ونهاية بالموقف المحتوم من إنجاء المؤمنين ، وإهلاك الظالمين.

وفى التحليل السابق لهذه المشاهد أشرت إلى شئ من هذه التراكيب المتشابهة فى القصة ، ولكن فى إطار السياق الخاص، ولكننا هنا نحاول قدر الطاقة جمع هذه التراكيب فى إطار كامل .



التراكيب الداخلية فى القصة :

فى إطار عرض مشاهد القصة فى السور القرآنيــة المتعــددة . وجدنا أن المشاهد كلها تبدأ بالإشارة إلى أن الكلام المتلو هو حديــث عن ثمود ، قوم صالح عليه السلام وقد تكرر لفظ ــ ثمــود ــ أربــع عشرة مرة باللفظ الصريح ما عدا ما ورد فى سورة الحجر ، فقد كنــى عنهم بــ"أصحاب الحجر" ٠

ولفظ ــ ثمود ــ إما أن يكون مسبوقا بحــرف كمــا ورد فــى الأعراف وهود والنمل وفصلت والذاريات وهذا الحرف يتنوع إلى:

١ – حرف انتهاء كما فى قوله تعالى : ﴿وإلى ثمود﴾ ٠

٢ – حرف تفصيل كما ورد فى قوله تعالى : ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾

٣ – حرف دال على الظرفية كما ورد فــى قولــه تعــالى : ﴿وفى ثمود . .﴾ ٠

٤ – حرف دال على التوكيد كما فى قوله تعالى : ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم﴾ ٠

٥ – حرف دال على الاختصاص والاستحقاق ، كما فى قولــه تعالى : ﴿ألا بعدا لثمود﴾ ٠



وكل حرف له دلالته . فحرف الانتهاء دال على انتهاء رسولهم بالرسالة إليهم فهى رسالة خاصة إلى قوم مخصوصين ، وكانوا محل انتهاء صالح إليهم بالدعوة . ولعل تقديمهم على الرسول يشير إلى ذلك كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا﴾ .

وأما حرف التفصيل ـ فقد جاء فى سياق التنبيه والتأكيد على صلف القوم وشدة شكيمتهم فى العناد والاستكبار ، وبخاصة فى السياق الذى يجمعهم مع قوم هود ـ عاد ـ وذلك فى سورة فصلت والحاقة ، فتفصيل الحديث عن هؤلاء الأقوام هو الذى اقتضى ذلك .

وأما حرف الظرفية ـ فى ـ فهو يدل على أن فى قصة ثمود العبرة والعظة . لمن أراد أن يتعظ وليس المقصود ظرفية الذات ، وإنما المقصود ظرفية الأحوال والأحداث التى تكون القصة كلها من بداية أمرهم بالعبادة حتى هلاكهم بالصيحة .

وأما حرف التوكيد مع أداة الاستفتاح . فهى تؤكد على أن ما حاق بهم من العذاب لم يكن انتقاما جائراً ، وإنما استحقوه عدلا من الله العزيز الحكيم . جزاء على كفرهم .

وتتميما لهذا العذاب كان الدعاء عليهم بالبعد وهو الهلاك والموت . وأنهم جديرون به على وجه الاختصاص والاستحقاق .

وكذلك جاء لفظ ــ ثمود ــ مسبوقا بالفعل . وهذا الفعل، كذب ــ وذلك بطريق الاستقراء . وكان كالآتي :

﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ ٠

﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ ٠

﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ ٠

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ ٠

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ ٠

وعلى الرغم من أن هذه الآيات كلها تحقق عليهم الكــذب إلا أن كل آية اختصت بحيثية تفترق بها عن الأخرى ٠

فالآية الأولى أشارت إلى تكذيبهم المرسلين وإلى مكان إقامتهم ــ الحجر ــ ٠

والآية الثانية أشارت إلى تكذيبهم المرسلين بإطلاق ٠

والآية الثالثة أشارت إلى تكذيبهم بـالنذر جمـع نذيـر بمعنـى الإنذار ٠

والآية الرابعة أشارت إلى تكذيبهم بالساعة ٠

والآية الخامسة أشارت إلى تكذيبهم الطاغي

إن كل آية تضيف إلى نواحي التكذيب شيئا جديدا يبتعد به كـل البعد عن معالم التكرار ٠

وفى الحديث عن أخوة صالح عليه السلام للقوم ، وجدنا القرآن يذكر هذه الأخوة صريحا وبخاصة فى مشاهد الإطناب ، كما فى الأعراف وهود والشعراء والنمل. ولعل ذلك لأن هذه المشاهد قامت على الحوار ، بين صالح وقومه، وكان الأمر يقتضى أن يستمع كل منهما إلى الآخر ، ولا طريق للتقارب بين الطرفين إلا إشارة معنى الأخوة بينهما إذ الأخوة . مناصرة ومعاونة ولطف وإشفاق وولاء وإيثار، وحب، وكل ذلك من شأنه أن يميل القلوب ، ويصيخ الأسماع.

بينما خلت منها مشاهد الإيجاز ، لاعتمادها على بيان المحاور الأساسية من إهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، لطغيان الأولين ، وتقوى الآخرين .

وعندما ذكر صالح عليه السلام فى مشهد الإيجاز فى سورة الشمس ، ذكر بأنه ـ رسول الله ـ ولم يذكر بأنه ـ أخوهم ـ لبيان جرمهم فى الطغيان حيث كذبوا رسول الله ، وتكذيبه تكذيب لله عزوجل . وليتم التناسق كذلك بين مفردات الجملة ـ رسول الله ـ ناقة الله ـ فهم قد كذبوا رسول الله الواجب طاعته ، وقتلوا ناقة الله التى كان الواجب عليهم حمايتها . فبلغوا الغاية فى الطغيان ، ولذلك كان قوله ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ وافيا بالمعنى المراد فى هذا السياق.

وفى بيان الجملة الأم التى توجه بها صالح عليه السلام إلى قومه آمرا لهم بالعبادة ، وجدناها تكرر ولكن فى كل سياق تشفع بأمر



تختص به ويفصلها عن الجمل الأخرى، وذلك ما يجعلها مستقلة فـــى سياقها وأساسية فى التعبير عن الغرض المسوقة له ٠

ففى سورة الأعراف ورد قوله تعـالى : ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾ ٠

وفى هود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ ٠

وفى النمل : ﴿أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ فمـا جاء فى الأعراف كان أمرا بالعبادة لله وحده وساق معجزته دليلا علـى صدق دعواه، ووجوب الطاعة ٠

وما جاء فى هود كان أمرا بالعبادة لله وحده وساق نعمه علـيهم وهو النشأة من الأرض وإعمارهم فى الحياة كأدلة تسوقهم مـن ذكـر النعمة إلى شكر المنعم وهو الله سبحانه وتعالى . ثم أضاف إلى ذلـك الحديث عن معجزته وهى الناقة فيما بعد بقوله : ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾

كما أضاف إلى ذكر الناقة فى سورة الأعراف الحديث عن نعـم الله عليهم بقوله ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله﴾ ٠



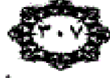
وكأن مواقف الدعوة هى التى كانت تقتضى منه مرة أن يـأمرهم بالعبادة ويذكرهم بالمعجزة الدالة على صدقه ثم يذكر نعم الله عليهم ومرة أخرى كان يأمرهم بالعبادة ويذكرهم بنعم الله عليهم ثم يتحدث عن معجزته لهم وهى الناقة .

فهذا التقديم والتأخير ناشئ عن المواقف الدعوية وأنه كان يعطى لكل مقام مقاله ولم يأت شئ من ذلك فى سورة النمل وإنما أشارت الآية إلى أنه أرسل إلى ثمود آمرا لهم بالعبادة ــ أن اعبدوا الله ــ ثم بين أثر الدعوة فيهم وهو الانقسام والاختصام ولذلك عنى المشهد كله ببيان مفاسدهم ومكرهم وتصدى مكر الله لهم ، وما حاق بهم من الخراب والدمار .

وأما الحديث عن الناقة ونعم الله عليهم فلم يجر لها ذكر فى مشهد النمل .

وأما فى الشعراء فقد تجاوز الأمر بالعبادة إلى الأمر بالتقوى ﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون﴾ وذكرهم بنعم الله عليهم وبمعجزته لهم . كما سبق بيانه .

واختلاف المحكى عن الرسل عليهم الصلاة والسلام من سورة إلى أخرى . مرده إلى أن هؤلاء الرسل يدعون أممهم "فى أوقات مختلفة وأحوال متباينة ، فمرة يرغبون ومرة يخوفون وينذرون ، وذلك بسبب حال ولكل مقام مقال ، فاختلاف المحكى من مقالهم إنما هو بحسب اختلاف الأوقات . وما يناسب كل وقت وما يجرى فيه ويشاهد من أقوال المدعوين وأحوالهم ، وكل المحكى من معنى مقالاتهم لا



إشكال فيه، ألا ترى أن نبينا ﷺ وعليهم أجمعين كان يدعو قبائل العرب إذا وفدوا على مكة. ويقف على كل قبيلة قبيلة فيكلمهم ويسمعهم القرآن ويدعوهم إلى الله بما يناسب أحوالهم ومقالهم .." [1].

ويقول أيضا " إذ ليس دعاؤهم في موقف واحد ولا لقوم مخصوصين . بل يدعو النبى طوائف من قومه فى أوقات مختلفة ومواطن شتى . وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعى نبيهم ذلك في دعائهم ٠

وقد يخاطب ملأهم الأعظم في مواطن والفئة القليلة منهم في موطن آخر ، وربما أطال فى موطن وأوجز في موطن ، وذلك بحسب ما يرونه عليهم السلام ، أجدى وأجدر" [2].

وفى بيان نعمة الله عليهم بإقدارهم على النحت في الجبال ، وذلك دليل قدرتهم وقوتهم الجسدية وحبهم المفاخر السكنية . ورد قوله تعالى :

١ - وتنحتون الجبال بيوتا ٠

٢ - وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ٠

٣ - وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ٠

فقد دلت الجمل الثلاث على صنعتهم هذه . وهى نحت البيوت فى الجبال . وكانت الجملة الأولى نصا فى ذلك والجملة الثانية زادت قيدا وهو ــ آمنين ــ فدلت على أن رغبتهم فى ذلك ليس السكنى فقط.

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٥١٢ ٠

(٢) المرجع السابق ١/ ٥٤٤ ٠



وإنما أيضا ليكونوا فى مأمن من الأعداء ومن عذاب الله عزوجل ولكن ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ .

وزادت الجملة الثالثة قيدا آخر وهو ــ فارهين ــ فدل على منزعهم النفسى فى هذا النحت وهو الفرح والبطر والنشاط وحب الفخر، لأنهم كانوا أصحاب ملذات حسية فى المأكل والمشرب والمسكن، يتضح ذلك من خلال النظر إلى نعم الله عليهم ، والتى ساقتها الآيات فى أكثر من مشهد :

١ – الارتباط بالأرض ــ وهو أنشأكم من الأرض ــ .
٢ – إعمار الأرض ــ واستعمركم فيها ــ .
٣ – إنشاء القصور فى السهول ــ تتخذون من سهولها قصورا ــ.
٤ – نحت البيوت فى الجبال ــ وتنحتون الجبال بيوتا .
٥ – حب الجنات والعيون ــ فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ــ .

وفى بيان العذاب النازل على ثمود من السماء . والذى كان سببا فى إهلاكهم اختلفت الجمل المعبرة عنه من سياق إلى سياق ، وكانت كالآتى :

١ – فأخذتهم الرجفة ..
٢ – فأخذتهم الصيحة ..
٣ – فأخذهم العذاب ..



٤ – أنا دمرناهم وقومهم ..

٥ – فأخذتهم الصاعقة ..

٦ – إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ..

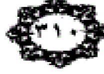
٧ – فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ..

٨ – فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ..

وما من شك في أن كل كلمة لها دلالتها، وإن كانت هناك دلالات عامة، ودلالات خاصة، فمن الدلالات العامة. كلمة ـــ العذاب والتدمير والطاغية والدمدمة ومن الدلالات الخاصة كلمة ـــ الرجفة والصيحة والصاعقة ـــ وكل من هذه الثلاث يمثل مظهرا من مظاهر العذاب أو جانبا من جوانب الإهلاك وكل منها قد تجاوز الحد في حدته وشدته . فيصح أن يطلق على جميعها ـــ الطاغية . أو العذاب أو الدمدمة ٠

فإذا علمنا أن الصاعقة عبارة عن " استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب . فإذا دنا جسم مكهرب كهربائية موجبة من جسم مكهرب كهربائية سالبة اتحدت الكهربائيتان لما بينهما من التعاشق . فيحصل عن ذلك البرق الشديد ثم الرعد الشديد بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كل مكان الاستفراغ وذلك هو الصيحة ٠

وإذا كان الاستفراغ حصل من دنو سحابة مكهربة كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل الكهربائية السالبة التي في الأرض بالكهربائية الموجبة التي في



السحابة ويكون الاستفراغ أو الاتحاد فى الجسد ممـــا علـــى الأرض. فيصهر إذا كان معدنيا . ويحترق إذا كان شجرا أو إنسانا ويتفتـــت إن كان صخرا أو بناء . ومبلغ ما تدمره منوط بمقدار كميـــة الاســـتفراغ ومبلغ قوة الكهربائتين وعن ذلك تكون الرجفة وهولها.

وإذا حصل الاستفراغ بين ســـحابتين مكـــهربتين بكـــهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب حصل البرق أولا ثم الرعد ثم المطر.

وسبب اختلاف الكهربائيتين فى الســـحاب. أن الجـــو مكـــهرب كهربائية موجبة وهو مشحون بها ، والأرض مكهربة كهربائية سالبة . فإذا تكونت السحابة فى مكان مرتفع فى أعالى الجو كانت كهربائيتـــها موجبة وإذا تكونت فى مكان سافل قرب الأرض كـــانت كهربائيتـــها سالبة. فإذا دنت كل من السحابتين إلى الأخرى فبمقتضـــى النـــاموس المودع فى الكهربائية من ميل كل من الكهربائيتين للاتحاد بـــالأخرى يكون التفاعل الذى هو الاتحاد.

وأما السحابتان اللتان كـــهربائيتاهما موجبـــة أو ســـالبة . فـــإن الكهربائية فيهما تميل إلى الابتعاد عن الأخرى .

فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق[1].

فالصاعقة فيها ــ الصوت ــ الصيحة . وبها تكون الزلزلـــة ــ الرجفة ــ وبها يكون الإحراق ــ الصعق ــ فكل كلمة تركـــز علـــى جانب من جوانب العذاب والإهلاك وتؤول جميعها إلى التدمير.

---

(١) قصص الأنبياء ٨٩ .

وبذلك يظهر لنا وجه الجمع بين الكلمات الدالة على الهلاك ·

ولكن يبقى وجه اختصاص كل سياق بما ورد فيه، وقد أشار البقاعي إلى شئ من ذلك ، ذكرناه في تحليل مشهد سورة الأعراف ·

ومما يرتبط بذكر الرجفة والصيحة . توحيد الديار وجمعها فحيث ذكرت الرجفة ذكرت — الدار — وحيث ذكرت الصيحة ذكوت الديار — فما سر ذلك ؟

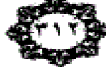
يذكر الخطيب الإسكافي " أن الله تعالى وحده في كل مكان ذكر في ابتدائه ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ولم يذكر إخراج النبي ومن آمن معه من بينهم ، فجعلهم بني أب واحد وجعلهم كذلك أهل دار واحدة ورجا أيضا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة ·

وكل موضع أخبر عن تفريقه بينهم وإخراج النبي ومن آمن منهم معه أخبر عنهم الإخبار الدال على تفرق شملهم وتشتت أمرهم ، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة، وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة ... "[1].

وكون الإفراد — الدار — دليل الوحدة المرتقبة. والجمع — الديار — دليل التفريق والتشرد . هذا الكلام في النفس منه شئ وبخاصة أن

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ١٥٧ / ١٥٨ ·



الإسكافى عمم فى الأحكام . فذهب إلى أن كل موضع ذكر فيه ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ولم يذكر فيه إخراج النبى ومن آمن معـــه ، وحـــد الدار ــ وكل موضع ذكر فيه التفريق والإخراج جمع ــ الديار ــ

والواقع الذى تشهد به مشاهد القصة في سورتى الأعراف وهـود أنه فى كلا المشهدين ذكر ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ وذكر خـــروج النبى ومن آمن معه فقال فى الأعراف ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى﴾ وقال فى هود : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ .

فهذا الإخراج واقع فى السياق الذى ورد فيه الإفراد وواقع كذلك فى السياق الذى ورد فيه الجمع.إلا أنه عبر عنه مرة بالتولى ــ فتولـى عنهم ــ ومرة بالنجاة ــ ونجينا ــ وهو فى الأعراف جاء بعد حلـــول الرجفة ــ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ــ فتولى عنهم .

وفى هود جاء قبل حلول العذاب ــ الصيحة ــ ولكنه كان بعـــد تحديد موعد العذاب وهو ثلاثة أيام ــ فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيـام ذلك وعد غير مكذوب ــ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا .

ومن المعلوم أن تحديد موعد العذاب وانتظاره أشد على النفـــس من حلول العذاب نفسه. وبذلك لا يفترق الترتيب فى الأعراف عن هود

إلا أنه فى الأعراف صرح بالعذاب قبل الإخراج . وفى هـــود لـــوح بالعذاب قبل الإخراج . وكأنه فى هود جعل العذاب عذابين ، عــــذاب الانتظار، وعذاب الملابسة ولعل جمع ــ الديار ــ هو المناسب لتعــدد العذاب.

وذلك بخلاف ما ورد فى الأعراف حيث كان التصريح بــالعذاب مرة واحدة . وذلك يناسبه إفراد ــ الدار ــ وبذلك يظهر وجه التناســق فى هود بين جمع الديار ــ وتعدد العذاب ولفظ ــ الصيحة ــ.

كما يظهر وجه التناسق بين إفراد الدار وعدم تعدد العذاب ولفـظ الرجفة فى الأعراف ، إذ أن لفظ ــ الصيحة . ولفظ الرجفة مختلفـــان بالكلية والجزئية . يشير إلى ذلك ما قاله الغرناطى " وإذا تقرر ذلــــك فوجه اختيار الجمع فى الآية من سورة هود مناسبة ما اقترن به مـــــن لفظ الصيحة وهى عبارة هنا عن العذاب مطلقا دون تقييد بصفة . وهو من الألفاظ الكلية ، فإن لم يكن عاما فانتشار مواقعه من حيث الكليـــــة حاصلة.

وأما الرجفة ــ الزلزلة ــ فلهذا اللفظ خصوص وهو جزئـــــى ، ومن المعلوم بالضرورة انحصار الألفاظ فى الضربين فــــإن اللغـــة لا تختلف فى ذلك ، فالصيحة من حيث الكلية تطلق على ما كـــــان مــــن العذاب بالرجفة وغيرها .

وإذا عبرنا بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذابا بها . فناسب عموم الصيحة جمع الديار مناسبة تركيب النظم ، وناسب خصوص الرجفة إفراد الدار»[١].

وبناء على ذلك فإن اللفظ الكلى ــ الصيحة ــ يناسبه الجمع ــ الديار ــ .

واللفظ الجزئى ــ الرجفة يناسبه الإفراد ــ الدار .

ويذهب الدكتور / محمد الخضرى إلى أن الجمع والإفراد مرجعه إلى نوع الخطاب واختلافه فى سورة الأعراف وهود وتلك لا يلغى ما قاله الشيخان .

فيرى أن الخطاب فى سورة الأعراف كان خطاب خاصا أى خطاب النبيين ــ صالح وشعيب ــ للملأ المستكبرين من قومهما . دون المستضعفين والرعاع الذين لا رأى لهم ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وذلك فى قصة صالح عليه السلام .

فجاء توحيد الدار متناسبا مع هذا الخطاب الخاص الذى وجه فيه الحوار إلى الملأ المستكبرين وكأن العذاب موجه إليهم خاصة[٢].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٥٣٤ .
(٢) الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ ٢١٨ بتصرف .

ومن المعلوم أن هذه الآية ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لا تدل على أن خطاب صالح عليه السلام كان إلى خصوص المستكبرين ، وإنمـــا هي جواب المستكبرين بناء على دعوة صالح العامة لكل قومه ، فقـــد كان خطابه عليه السلام عاما في سورة الأعراف كما هو عـــام فـــي سورة هود . وبداية المشهد في كلتا الســـورتين تؤكـــد ذلـــك . ففـــي الأعراف ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وتوالت الأوامر والنواهي مسندة إلى واو الجماعة وميم الجمع وهـــي تعني عمومية الخطاب للمستكبرين والضعفاء على حد سواء ٠

وتأمل المطلع ــ وإلى ثمود ــ أي إلى كل القبيلة . وتأمل هـــذه الضمائر ــ قد جاءتكم ــ من ربكـــم ــ فذروهـــا ــ ولا تمســـوها ــ فيأخذكم ــ واذكروا ــ وبوأكم ــ تتخذون ــ وتنحتون ــ فـــاذكروا ــ ولا تعثوا ــ ٠

هذا هو أصل خطاب صالح عليه السلام لقومه ، وهو متوجه بـــه إليهم كلهم ، ولكن الرد كان من خصوصهم وهم المستكبرون فيمكـــن القول.إنه من واقع هذه الخصوصية كان توحيد-الدار-فهي خصوصية جواب وليست خصوصية خطاب ، وكذلك الشأن في قصة شعيب٠

وأما ما هداه الله إليه من كون الخطاب في سورة هود عاما وكان الحوار بين الأنبياء وأقوامهم خطابا وجوابا على وفق هذا العموم ، كما

تنبئ عن ذلك آيات المشاهد فاقتضى ذلك مجئ –الديار– بصيغة العموم فى الخطاب ، فهى نظرة دقيقة وعميقة تضاف إلى رصيد العلماء .

ونخلص من ذلك إلى بيان مقارنة بين المشهدين فى سورتى الأعراف وهود من قصة صالح عليه السلام . حول الخصوص والعموم فى الصياغة .

المشهد فى الأعراف	المشهد فى هود
١ – خطاب صالح لقومه ــ عام	١ – خطاب صالح لقومه ــ عام
٢ – جواب قومه ــ خاص	٢ – جواب قومه ــ عام
٣ – لفظ ــ الرجفة ــ جزئى	٣ – لفظ الصيحة ــ كلى
٤ – لفظ الدار ــ مفرد	٤ – لفظ الدار ــ جمع
٥ – لفظ الرسالة ــ مفرد	

فنجد أن المشهد فى الأعراف قام على الخصوص والإفراد ولكنه قام فى سورة هود على العموم والجمع . وهنا تكمن الأسرار فى فروق الصياغة .

وفى بيان النجاة للذين آمنوا . تحدثت الآيات عنها فى ثلاثة مواضع:

١ – فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود / ٦٦] .

٢ – في قوله تعالى : ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل/٥٣]٠

٣ – في قوله تعالى:﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت/١٨]٠

ففي الآية الأولى كان النص صراحة على نجـاة صـالح عليـه السلام ومن آمن معه ٠

وفي الثانية اكتفت بالتعبير عن نجاة المؤمنين الذين عهد منـهم الإيمان ، والعراقة في التقوى وفي ضمنهم صالح عليه السلام ، وكأنها اكتفت بالنص عليه صراحة في الآية الأولى ٠

وفي الآية الثالثة ، لم يكن حديث النجاة خاصا بثمود وإنما كـان يتناول المؤمنين المتقين من قوم ثمود وعاد لأن سياق الآيات يتحـدث عن الفريقين ٠

وبذلك افترقت الآيات بين التصريـح والتلويـح والتخصيـص والتعميم٠

التراكيب الخارجية والداخلية في القصة :

وأقصد بها تلك التراكيب التـي وردت فـي سـياقات أخـرى وتشابهت مع تراكيب قصة صالح عليه السلام فإنه بلا شك تكمن فـي الفروق الأسلوبية بين هذه التراكيب أسرار بلاغية معجزة . نقف مـن خلالها على روعة البلاغة القرآنية ٠

ففى مجال فصل الجمل ووصلها جاء قوله تعالى فى شأن نوح عليه السلام : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ [الأعراف / ٥٩] وقال فى شأن صالح عليه السلام : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ فقد جاء قول نوح لقومه موصولا بالفاء . فقال : ﴿وجاء قول صالح لقومه مفصولا قال﴾ فكلتا الجملتين موصولتان ، ولكن الأولى موصولة بحرف عطف ظاهر فى الوصل اللفظى، والثانية موصولة بالاستئناف البيانى .

وما من شك فى أن المقام هو الذى استدعى طريق الوصل فى كل منهما ، فحيث أريد بيان سرعة نوح عليه السلام فى إعلان مضمون ما أرسل به وهو ما قاله لقومه آمرا لهم بعبادة الله وحده ، فكان الوصل بالفاء التى دلت على السرعة والتتابع لقومه فور إرساله وأن الكلام بها صار كلاما واحدا ارتبط بعضه ببعض ارتباط السبب بالمسبب، وكان مرتبا ترتيبا وفق إرادة المتكلم .

والفرق واضح بين هذا السرد القصصى لتتابع الأحداث وبين الوصل عن طريق الاستئناف البيانى ، حيث يلاحظ المتكلم تطلعات السامع الذهنية وانفعاله مع الكلام المسوق له ، وكأنه يرصد ما تهمس به نفسه من تساؤلات ، ويجيبه وفق هذه التساؤلات .

فتقع الجمل ولها صفة الاستقلال ، وقد شد بعضها إلى بعض بالوصل الذاتى الداخلى ، وهذا ما كان بالنسبة للفصل فى جملة صالح عليه السلام .



وبيان ذلك أن قصة صالح عليه السلام وردت بعد قصة نوح وهود عليهما السلام . وقد علم السامع ما كان من أقوامهما معهما فلما جاء الحديث عن إرسال صالح عليه السلام . صار السامع مترقبا معرفة ما قاله لقومه . وثار فى ذهنه سؤال مؤداه . أقال صالح لقومه مثل قول من سبقه أم لا؟ فقيل ـــ قال يا قوم ...

فتقدم القصتين هو منبع إثارة هذا السؤال . وليس كذلك قصة نوح عليه السلام لأنها ابتداء كلام وهى أول القصص المذكورة ، ولذلك خلت من حرف العطف فى أولها وجاءت الآية ـــ لقد أرسلنا ـــ دون عاطف وذلك يدل دلالة قاطعة على أنه لم يتقدمها ما يثير هذا السؤال مثلما تقدم على قصة هود وصالح وشعيب وفي بيان المفارقة بين الوصل بالفاء والربط بالاستئناف .

يقول السعد " قصة نوح ابتداء كلام ، فليست مظنة سؤال بخلاف قصة هود . فإنها معطوفة على قصة نوح فكانت مظنة أن يقال . أقال هود مثل ما قال نوح أم لا ؟"[1].

وقال الدكتور محمد أبوموسى "أن ذكر الفاء فى التعليل وأن الكلام لم يبن على أساس أن تكون الجلمة الثانية متولدة عن الجملة الأولى وموصولة بها. بهذه الرابطة التى تكلمنا فيها، وإنما هى مرتبطة بها بالفاء التى تعطفها عليها عطف العلة على المعلول كأن هنا كلامين

---

(١) حاشية السعد ٢/ ٥٩٨ .



متميزان . أحدهما علة للآخر قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية ولهذا صار الفرق بين بناء الأسلوبين فرقا ظاهرا .

فأحدهما يقوم على الروابط الداخلية الخفية . والآخر على العلاقات اللفظية الظاهرة ، ولكل مقامه"[1].

وهذا الذى قررناه حول الآيتين الكريمتين من اقتضاء الحال ، وتطلب المقام للربط مرة بالفاء ومرة بالاستئناف البيانى . يجعل قول البلاغيين بأن الوصل الخفى أبلغ من الوصل الظاهر بالفاء فى كفة مرجوحة . وأن هذا الحكم لا ينبغى أن يؤخذ على إطلاقه . فالوصل بالفاء أبلغ فى مقامه . والوصل بالاستئناف أبلغ فى مقامه .

وعلى الرغم مما ذهب إليه البلاغيون فإنه أولى مما قال به بعض اللغويين كابن الشجرى حيث رأى أن المواضع التى حذفت منها الفاء هى مقدرة فيها فقال " ومما استمر فيه حذف الفاء من أوائل آيات متواليات قوله تعالى : ﴿قال فرعون وما رب العالمين ... قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ جميع هذه الآى الفاء مرادة فيها"[2].

وكأنه بذلك يلغى الاستئناف البيانى فى المحاورات القرآنية التى جاءت على حذف الفاء . ويعتبر الفاء فيها مقدرة ، وهذا عكس ما يراه

(١) دلالات التراكيب ٣٤٠ .
(٢) أمالى ابن الشجرى ٢/ ١٤٥ .

عبدالقاهر حيث قال " واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال مفصولا غير معطوف . هذا هو التقدير فيه والله أعلم ......"[1].

ويشير ابن المنير إلى الفرق بين وجود الفاء وتركها فيقول "أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها فى معناها "٠

فالوصل بالفاء يشير إلى سرعة تتابع الجمل وتداخلها وتشابكها حتى تبدو وكأنها جملة واحدة ٠

والوصل بالاستئناف يشير إلى استقلال الجمل . وبناء بعضها على بعض . بناء يراعى فيه حركة ذهن السامع وانفعاله بالأحداث٠

وهذا ما يجب أن ينظر من خلاله إلى الفروق الأسلوبية فى التراكيب البليغة ..

وفى مجال الوصل بالفاء والوصل بالواو : جاء قوله تعالى فى قصة صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...﴾ ومثله فى قصة لوط عليه السلام : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود/ ٨٢] ٠

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٠ ٠

وجاء فى قصة هود عليه السلام قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...﴾ [هود/ ٥٨] ومثله فى قصة شعيب عليه السلام : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...﴾ [هود/ ٩٤] .

ففى قصتى صالح ولوط عليهما السلام جاء الوصل بالفاء ـ فلما جاء أمرنا ـ وفى قصتى هود وشعيب عليهما السلام جاء الوصل بالواو ـ ولما جاء أمرنا ـ .

وبالنظر فى سياق الآيات التى وردت موصولة بالفاء نجد أن هناك موعدا محددا لنزول العذاب وهو من القرب القريب فى قصة صالح عليه السلام ثلاثة أيام ، تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

وفى قصة لوط عليه السلام الصبح ـ إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ، والصبح يأتى بعد سويعات من الليل الذى أمر لوط عليه السلام أن يسرى فيه هو وأهله ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم .. " .

فاقتضى هذا القرب الحرف الدال على التعقيب وتوالى الأحداث وهو ـ الفاء ـ لاتصال الأحداث وعدم التراخى فيما بينها إذ من شأنها أن تقلل الزمن بين الأحداث .

ولكن ما ورد فى قصة هود عليه السلام كان عبارة عن تهديد ووعيد للقوم دون تعيين موعد للعذاب كما جاء فى قوله تعالى :

﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ .

وكذلك ما جاء في قصة شعيب عليه السلام من قوله تعالى : ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ .

فليس في سياق القصتين ما يجري مجرى السبب في حلول العذاب وتعينه لهم حتى تأتي ــ الفاء ــ ولكن المقام هنا للجمع بين ذكر هذه الأخبار . وإعلامهم بهذا التهديد والوعيد ، وبمجئ العذاب دون ما يشير إلى قربه . بل في السياق ما يدل على بعده ــ كما في قوله : ﴿سوف تعلمون﴾ " فلم يتوعدهم بالاقتراب بل دعاهم إلى الارتقاب ، فالتخويف قارنه التسويف لقوله تعالى ﴿سوف تعلمون﴾ فكان الموضع موضع الواو لخروج ما قبله عما يقتضي اتصال الثاني به . وليس كذلك الموضعان اللذان نسقا على الأول بالفاء"[1].

والملاحظ في قصة نوح عليه السلام أنه لم يؤت فيها بالفاء أو بالواو ، وإنما جاءت حرف دال على الغاية في قوله تعالى:﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ...﴾[هود/٤٠].

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٣٥ وينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٥٧ .



فـ ــ حتى ــ هنا دلت على آخر الأحوال المضروبة لمجئ الطوفان وركوب نوح عليه السلام ومن معه السفينة . وهى صناعة الفلك حيث أمر بقوله تعالى : ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا وامتثل الأمر﴾ ــ ويصنع الفلك .. وحدث منهم السخرية .

ومنه عليه السلام التهديد كما قال تعالى : ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه . قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ .

فكانت ــ حتى ــ هى الدالة على نهاية الأحوال بين نوح عليه السلام وقومه بعد هذه القصة التى امتدت ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهم فى طغيان طاغ وكفر باغ حتى ضاق نوح عليه السلام ذرعا بهم وقال ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح / ٢٦ ، ٢٧] .

فالموضع لـ "حتى" إذ هى تمثل المحطة التى انتهت عندها تعرية الأفراس وحط الرحال .

فيتحصل لنا من هذه الحروف أن :

١ - الفاء دلت على التسبب والتعقيب .

٢ - الواو دلت على الجمع والترتيب .

٣ - حتى ــ دلت على نهاية الأحوال المضروبة .



وتأمل كذلك الترتيب الواقع فى ـ الواو ـ والفاء فقد جاءت الآية المقرونة بالواو أولا ـ ٥٨ ـ ثم جاءت الآيتان المقرونتان بالفاء وسطا ـ ٦٦ ـ ٨٢ وانتهت الآيات بالمقرونة بالواو ـ ٩٤ ـ فالاستفتاح والختام كان بالواو . والفاء وقعت مكررة بينهما وذلك من باب ضم النظير إلى النظير ، والتماثل فى البدايات والخواتيم . وسبحان العليم الخبير .

وفى مجال الفصل والوصول كذلك ، جاء قوله تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ .

وقال فى شأن شعيب : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء/ ١٨٥،١٨٦] .

وفى طرح الواو وإثباتها فى هذين السياقين تواردت أقوال العلماء. فيرى الإسكافى ٤٢٠هـ، أن قوم صالح عليه السلام لم يدفعوا قوله دفعا ، ولم يكن عندهم شطط فى الرد عليه . بل إنه كما كان لينا ومقلا فى كلامه لهم كانوا هم كذلك . فردوا رسالته لأمر واحد وهو كونه من المسحرين .

وأشار إلى تفسير ـ المسحرين ـ بأنه إما الذين لهم سحر أو المعللون بالطعام والشراب كما قال امرؤ القيس :

أرانا موضعين لحتم غيب ∴ ونسحر بالطعام والشراب

وقال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا ∴ عصافير من هذا الأنام المسحر

أو الذين سحروا مرارا حتى خبلت عقولهم وفسدت آراؤهم أو المخلوقون كما يروى عن ابن عباس .

ولعله يريد من وراء هذا الشرح اللغوى لكلمة ـ المسحر ـ أنها ليست نصا فى السب بتسلط السحر عليه وتداخله إلى نفسه وعقله . وإنما هى كلمة عامة مشتركة بين عدة معان ، منها المخلوقية والتعليل بالطعام والشراب . وهذه أمور أساسية فى البشر جميعا . ولم يقصدوا من ورائها إلا نفى الرسالة لأنها فى زعمهم لا يقوم بها بشر بل يقوم بها ملك ، وقد أكدوا هذا المعنى وقرروه عن طريق جملة البدل ـ ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فصار معنى الجملتين واحدا مقررا ومؤكدا عن طريق طرح الواو .

وأما قوم شعيب فقد أطالوا فى الرد وبالغوا فى نفى الرسالة . وكأنهم بادلوه إطالة بإطالة ، ومبالغة بمبالغة ، ولا عجب فى إطالته فهو خطيب الأنبياء وهو يطيل لوعظهم وتذكيرهم من أجل إنقاذهم من العذاب ، وهم يطيلون ردا عليه ، سفها وشططا وحمقا ، ولذلك كانت الواو فى كلامهم مشيرة إلى تعدد المعانى ، ومع تعدد المعانى يكون استقلال الجمل . وأن كل جملة صالحة لأن تكون محققة للغرض ، وأنها وحدها كافية لنفى الرسالة .

يقول الإسكافى " وأما قوم شعيب فإنهم فى خطابهم المحكى عنهم مشـطون ومبـالغون فـى رده وتكذيبـه فقـالوا ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ على خبرين عطف أحدهمـا علـى الآخر . وقالوا بعده ـ ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ على معنـى وإنا لنظنك كاذبا أى الغالب فى أمرك عندنا إنك كاذب ، فلـم يجعلـوا الخبرين خبرا واحدا بل جعلوها أخبارا ثلاثة ، قولهم : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أى لست من الملائكة الذين هم رسل الله إلى خلقه فـلا يطعمون ولا يشربون . بل أنت من المغتذين بالطعام والشراب، وقولهم ـ وما أنت إلا بشر مثلنا ـ أى لا فضل لك علينا ، فهو خبر ثـان . وقولهم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ خبر ثالث ، ثم طلبهم إسقاط كسف من السماء تكون أمارة لصدقه خلاف ما طلبته ثمود حين قـالت. فأت بآية إن كنت من الصادقين ولم تقترح بالحالة التى كانت فيها عنـد مخاطبة نبيها لها . ولم يقارنها من التمرد ما قارن قوم شـعيب حيـن ردوا عليه فى خبر بعد خبر" (١) .

وما ذهب إليه الزمخشرى ٥٣٨هـ ـ من كون ما ورد فى قصة ثمود عبارة عن معنى واحد مقرر ، وما ورد فى قصة شعيب عبـارة

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٣٣٤ .

عن معنيين — التسحير والبشرية وكلاهما مناف للرسالة[1] لا يخرج عن مضمون ما قاله الإسكافى بل إن الإسكافى ربط كل قول بسياقه .

وأما ابن الزبير الغرناطى ٧٠٨ هـ فيرى أن العطف فى قول قوم شعيب لمناسبة المعطوفات السابقة دون ما ورد فى قصة ثمود فيقول " أن ذلك — إثبات الواو وحذفها — لرعى المناسبة . بيان ذلك ما ثبت قبل الآية الثانية من قوله تعالى حكاية لما وعد شعيب فى أمره قومه وذكر من مرتكباتهم فى قوله : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ .

فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهى عنه طابقها العطف فى جوابهم من قوله تعالى — حكاية عنهم : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فهذه مناسبة واضحة ، ولما تقدم فى قصة صالح عليه السلام قوله : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٧ .



الأرض ولا يصلحون ﴾ فلم يقع في هذه القصة من المعطوفات أمـــرا أو نهيا سوى قوله : ﴿ وأطيعون ۝ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في البشرية بغير حرف النسق"[1].

وما من شك في أن هذه المناسبات الأسلوبية اللفظية مرادة فـــي تماثل الأسلوب . ولكن ليس هي الأساس وإنما الأساس فـــي السـياق والمساق ·

وأن رد كل قوم كان نابعا من مقتضى حاله مـــع نبيـــه ، فـــهي مواقف وأحوال تختلف من قوم إلى قوم . ومن نبي إلـــى نبـــي " ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم " ·

ونخلص من ذلك إلى أن طرح الواو في قصـــة ثمـــود كـــانت للمعاني التالية :

١ – عدم المبالغة في الرد والاكتفاء بإيراد معنى واحد لنفي الرسالة·
٢ – جعل الجملتين في إطار معنى واحد إيجازا في الرد ·
٣ – مقابلة لين صالح عليه السلام وقلة كلامه بالرد اللين القليل·
٤ – الاعتراف بأخوته لهم ، ومن مقتضياتها عدم الشطط في الرد ·

وعلى العكس من ذلك كان ثبوت الواو في قصة شعيب :

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٨٩٥ ·

١ – القوة والمبالغة فى الرد وذلك بتعدد المعانى عن طريق إثبات الواو .

٢ – جعل كل جملة مستقلة بمعنى لتكون كافية لنفى الرسالة.

٣ – مقابلة تطويله بتطويل مماثل ، وذلك من سوء أدبهم .

٤ – عدم الاعتراف بفضله لكونه ليس أخا لهم ن كما ذكرت الآية : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء/ ١٧٧] .

فلم تذكر أخوته لهم كما ذكرت الآيات فى شأن صالح وغيره من الأنبياء : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وذلك لأن قائلى هذا الكلام هم أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم وإنما كان من أهل مدين ، وقد ذكرت الآية أخوته لهم فى قوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود والأعراف ٨٤ ، ٨٥] فهو قد أرسل إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة .

فكان ردهم فيه من الجفاء ما فيه . وقد بلغ هذا الجفاء مبلغه بقولهم : ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى العريقين فى التكذيب المشهود لهم بذلك . وهو أبلغ من قولهم مثلا – وإن نظنك لكاذبا – وقد ذهب البصريون فى مثل هذا التركيب أن يجعلوا – إن – مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين – إن – النافية . ويذهب الكوفيون إلى جعلها نافية، واللام بمعنى – إلا ت ويرجح البقاعى الثانى فيقول "والذى يقتضيه السياق ترجح مذهب الكوفيين هنا فى أن – إن – نافية فإنهم أرادوا بإثبات الواو فى 'وما' المبالغة فى نفى إرساله بتعداد ما



ينافيه ، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير التكذيب، وهـو أبلغ من إثبات الظن به . ويزيده تسبيبهم عنه سـؤاله اسـتهزاء بـه وتعجيزا له إنزال العذاب بخلاف ما تقدم عن قوم صالح عليه السـلام فقالوا ـ فأسقط علينا كسفا من السماء ... "[1] ٠

ولكن قوم صالح عليه السلام تركوا له حرية اختيار الآية فقـالوا ﴿فأتِ بآيةٍ إن كنت من الصادقين﴾ ويتحصل من مجموع رد قـوم شعيب أنهم بالغوا فى الأمور التالية :

١ - تعدد المعانى المنافية للرسالة ٠
٢ - الظن اليقينى بأنه من الكاذبين ٠
٣ - اقتراح عليه آية تهكما وتعجيزا ٠

وفى مجال اختلاف الصيغة بالإفراد والجمع جاء قوله تعالى فـى قصة صالح عليه السلام : ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ [الأعراف / ٧٩] ٠

وقال فى شأن الرسل الآخرين. مثل نوح عليه السـلام : ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف/ ٦٢]٠

وقال فى هـود : ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف / ٦٨] ٠

---

(١) نظم الدرر ١٤ / ٩٠ ٠

وقال فى شعيب : ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف / ٩٣] .

فكل رسول قد بلغ رسالة ربه إلى قومه بأمانه وإخلاص وكلهم أوجبوا التزامهم بالطاعة وحذروهم من المعصية ، ووضحوا لهم العاقبة، إن خيرا فخير. وإن شرا فشر، وكلهم سواء فى ذلك.

فما وجه التعبير عن الرسالة المبلغة مرة بالإفراد ومرة بالجمع؟

وقد جاء الإفراد فى قصة صالح عليه السلام لأنها بنيت على الإيجاز . حيث أمرهم بعبادة الله وحده . وذكرهم بأمر الناقة وعدم التعرض لها بسوء وذكرهم بنعم الله عليهم . وعدم الإفساد فى الأرض ولم يلغظ قومه فى الرد عليه . وإنما حولوا وجه المحاورة إلى المستضعفين المؤمنين منهم . كما سبق بيانه ، فناسب هذا الإيجاز المعجز والخطاب المجمل أن يكون التعبير عن الرسالة بالإفراد ، تمشيا مع النظم واتساق الكلام .

ويقول الإسكافى " إن الذى نطق به القرآن من تحذير صالح عليه السلام قومه بعد أن أمرهم باتقاء الله تعالى وطاعته ، هو أمر الناقة والمنع من التعرض لها ، فجعل الرسالة جملة لما لم يفصل"[١].

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ١٥٩ .

فعدم تفصيل صالح عليه السلام وبناء كلامه على الإجمال هـو الذى ناسبه الإفراد . وهو ما قال به الغرناطى كذلك ·

وأما الجمع فى قصة نوح عليه السلام فكان القياس على قصة الصالح أن يكون مفردا لأنها شبيهة بها فى الإيجاز . ولكن جاءت الرسالة جمعا لاعتبارين :

الأول : ما فى لفظ ـ الضلال ـ من الموسوعية والشمول وذلك يناظر التفصيل وهو ضرب من الإطناب والذى يتسق معه هو الجمع لا الإفراد. ولذلك قال الغرناطى " أن لفظ ـ الضلال ـ وإن كان هنا لا يرادف الكفر حسبما تقدم وما يأتى فإنه يقتضى بحسب كليته وانتشار مواقعه مقتضيات عدة ، وأنهم لم يريدوا تخصيصه بقول ـ بعينه ـ من قوله عليه السلام . بل أرادوا أقوالا كثيرة مما أمرهم به ونهاهم عنه ومما حذرهم وأنذرهم من عذاب الآخرة حين قال لهم ﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ فلانسحاب اسم الضلال على مسميات شتى كان فى وزان ما طال من الكلام ... "[١].

الثانى : ما فى جملة ﴿أبلغكم رسالات ربى ..﴾ ما يدل على التجدد والتكرار . وهى أفعال المضارع فى قوله ـ أبلغكم ـ وأنصح لكم ـ وأعلم من الله .. وهذا التكرار والتجدد على طول زمن دعوة

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٥٣٩ ·

نوح عليه السلام ـــ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامـــا ـــ يناسبـه الجمع. وقال ابن عاشور " وجملة ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ صفة لرسول أو مستأنفة والمقصود منها إفادة التجدد . وأنه غير تارك التبليغ مـــن أجل تكذيبهم . تأييسا لهم من متابعته إياهم . ولولا هذا المقصد لكـــان معنى هذه الجملة حاصلا من معنى قوله ـــ ولكني رســول ـــ ولذلــك جمع الرسالات لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه"[1].

ويقول الغرناطي " فقد حصل من هذا إطناب وتفصيل في المعنى ...... فجمع ..

وكذلك كانت علة الجمع في قصة هود عليه السلام ولذلك قـــال "والسفاهة الطيش وقلة الحلم فحال من اتصف بذلك كحال من اتصـــف بالضلال . فلا يثبت على قول ولا يعتمد عليـــه فـــهذه كقضيـــة قـــوم نوح.."[2].

وقد فهم من الأجوبة السابقة علة الجمع في قصة شـــعيب عليـــه السلام وهو الإطناب في أمره وفي ردهم عليه كما يشير إلى ذلك قـــول الغرناطي " إن العرب تراعي في أجوبتها مانيتها عليه من ســـؤال أو غيره . إن إطالة فإطالة أو إيجاز فإيجاز . وربما أتت باللفظ موجـــزا وتحته معان كثيرة . وبالجملة فأجوبتهم مراعى فيها المعنى ، ملحـــوظ

---

(١) التحرير والتنوير ٩ / ١٩٣ .
(٢) ملاك التأويل ١/ ٥٤٠ .



فيما وردت جوابا له ولما ورد فى دعاء شعيب عليه السلام تفصيل فى الأمر والنهى والتحذير ، ألا ترى قوله بعد أمرهم بتوحيد الله ــ ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ ٠

ثم قال : ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا﴾ وذكر بتكثيرهم بعد القلة فقال ــ واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ــ وأن يتذكروا حال من تقدمهم ممن كذب فقال . وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ــ وورد عقب هذا من قول قومه له فى قوله تعالى ــ حاكيا عنهم ــ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ــ وقولهم ــ لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ٠

وقد انطوى هذا الكلام من التعريف بقبيح ردهم وشنيع مرتكبهم فى مجاوبتهم على أعظم اجترام . فحصل فى هذا من خطابه إياهم وما ردوا به وجاوبوه . عليه السلام إطناب فى العبارة وإمعان فيما تحتها من المعانى فى كلا الضربين فناسب ذلك الجمع فى قوله ــ أبلغتكم رسالات ربى ..٠"[1].

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٣٧ ٠

إنه التناسق العجيب . والنظم الفريد . في وضع كل صيغة في سياقها المناسب ، وهذه المناسبات قد تخفى وتدق . ولا تظهر إلا بالنظر الدقيق والعميق في الأسلوب وما تركب منه ، والتعرف على هدفه وغايته .

وفي مجال اختلاف الصياغة بالتقديم والتأخير جاء قوله تعالى عن صالح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وجاء قوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [٢٨] .

فالآيتان وإن تماثلتا في الدلالة العامة على إنصاف النبيين للمخاطبين، واستدراجهم للتأمل والتبصر فيما جاءا به من البينة — دليل صدق النبوة — والرحمة — النبوة والرسالة إلا أنه حدث اختلاف في الجملة المعبر بها عن الرحمة — حيث قال في الآية الأولى — وآتاني منه رحمة — وقال في الآية الثانية — وآتاني رحمة من عنده — والتقديم والتأخير واضح بين الجملتين . ومرجع ذلك إلى عدة اعتبارات :

الأول : التماثل الأسلوبي . وأعني به التماثل في بناء الجمل المتتالية . تأكيدا للترابط والتناسق بينها وذلك أن الجملة الأولى —



وآتانى منه رحمة ــ قد سبقت بقول قوم صالح عليه السلام له ــ قــد كنت فينا مرجوا قبل هذا ــ فأوقعوا الجار والمجرور ــ فينا ــ مقدمـا على خبر كان ــ مرجوا ــ فكان جواب صالح على نفس البناء . فقدم الجار والمجرور ــ منه ــ على المفعول الثانى ــ رحمــة ــ فتحقــق التناسق فى بناء الأسلوب ٠

وكذلك كانت الجملة الثانية ــ وآتانى رحمة من عنـــده ــ فقــد سبقت بقول قوم نوح عليه السلام له ــ ما نراك إلا بشرا مثلنا ــ ومــا نراك اتبعك..فالكاف فى ــ نراك ــ هى المفعول الأول ، وــ بشرا ــ و ــ اتبك ــ المفعول الثانى ــ وقد تواليا فى بناء الجملة . دون تقديـم لأحدهما ودون إقحام لجار ومجرور بينهما . فعلى هذا النســق كــان جواب نوح عليه السلام . وآتانى رحمة مــن عنــده ــ فقــد توالــى المفعولان ــ الياء و ــ رحمة ــ ووقع الجار والمجرور بعدهما علــى الأصل فى ذلك ٠

الثانى: التماثل فى قوة الدلالة. وأعنى به التماثل فى قوة المعنى. وذلك أن التقديم فى قوله تعالى ــ وآتانى منه رحمــة ــ يــدل علــى التأكيد والتخصيص بأن النبوة فضل منه تعالى لا من غيره . ولا مــن أحد يشاركه فى ذلك ٠

وهذا المعنى لا يحصل مع التأخير . فكان لابــد مــن تقديمــه لتحصل المماثلة بين قوله عليه السلام وقولهم حيث بالغوا فى الإســاءة بقولهم ــ قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبــد آباؤنــا

وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ــ فهو فى نظرهم كان قبل دعوتهم علامة من علامات الخير والنجابة والنفع وما إن نطق بدعوتهم إلى الله تعالى حتى استنزلوه من مراقى النبوة إلى أقل مراتب البشرية ، وذلك سوء أدب فى التقدير ، وغلظة فى الجواب وشناعة فى الرد فكان لابد من مقابلة هذا بمثله ، فجاءت جملة ــ وآتانى منه رحمة ــ تؤكد وتخصص وتحقق هذا الذى جاء به من عند ربه .

يقول الغرناطى " فلما بالغوا فى قبح الجواب . بالغ عليه السلام فى رد مقالهم . فقدم المجرور لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى .

ولما لم يكن فى مراجعة قوم نوح مثل هذا فى شناعة الجواب لأن أقصى المفهوم من قولهم ﴿ما نراك إلا بشرا مثلنا﴾ إلحاقه بهم ومماثلته إياهم ــ وكلهم يقولون لو كنت رسولا لكنت من الملائكة . ولم تكن لتماثلنا ، فلم يكن فى قول هؤلاء ما فى قول قوم صالح . فجرى جوابه عليه السلام على نسبة ذلك فقال ــ وآتانى رحمة من عنده ــ فأتى بالمجرور مؤخرا فى محله على ما يجب . حيث لا يقصد من إحراز المفهوم ما قصد فى الآية الأخرى ــ آية صالح ــ فورد كل على ما يلائم " [1] .

الثالث : التفنن فى الكلام مع حسن البيان . وهذا هو الذى أشار إليه ابن عاشور بقوله "لأن ذلك مع ما فيه من التفنن بعدم التزام طريقة

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٥٣ ، ٦٥٤ .

واحدة فى إعادة الكلام المتماثل . هو أيضا أسعد بالبيان فى وضــــوح الدلالة ودفع اللبس . فلما كان مجرور ــ من ــ الابتدائية ظرفا وهــو ــ عند ــ كان صريحا فى وصف الرحمة بصفة تدل على الاعتنــــاء الربانى بها وبمن أوتيها ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالـــة كــان الأحسن أن يقع عقب فعل ــ آتانى ــ ليكون تقييد الإيتاء بأنه مـــن الله مشيرا إلى إيتاء خاص ذى عناية بالمؤتى إذ لولا ذلك لكان كونه مـــن الله تحصيلا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه . فتعين أن يكون المراد إيتاء خاصا .

ولو أوقع ــ منه ــ عقب ــ رحمة ــ لتوهم الســـامع أن ذلــك عوض عن الإضافة.أى عن أن يقال وآتانى رحمته-كقوله ــ ولنجعلــه آية للناس ورحمة منا ــ أى ورحمتنا لهم . أى لنعظهم ونرحمهم"[1].

وتتميما لهذا الموضوع نذكر أن هناك آية ثالثة وردت فى سـياق قصة شعيب وهى مماثلة لتلك الآيات السابقة فى البناء والدلالة ، وهــى قولــه تعــالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ...﴾ .

فلم يقل كما قال صالح ونوح عليهما السلام . وآتانى رحمة ولكن عبر عن ذلك بالرزق الحسن ، والرزق ــ كما يذكر ــ الراغب يقــال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أم أخرويا .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ١١٢ .

وللنصيب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تـــارة . يقـــال أعطى السلطان رزق الجند . ورزقت علما ــ قـال : ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ أى من المال والجاه والعلم[1].

وبذلك يتضح أن كلمة ــ الرزق الحسن ــ تتناول النبوة والمـــال الحلال فهى أشمل دلالة من كلمة ــ الرحمة ــ المقصود بها ــ النبوة.

.. ولعل إيثار الرزق الحسن فى قول شعيب ــ لأن قومه كـــانوا أصحاب مال وثروة وكان منزع التطفيف فى الكيل والمـــيزان فاشـــيا فيهم ، ولذلك بادرهم بعد الأمر بعبادة الله تعالى ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أن لا ينقصوا المكيال والميزان ــ لأنهم ليسوا فى حاجة إلـــى ذلك ولذلك قال ــ إنى أراكم بخير ــ والخير هو المال كما قال تعـــالى ــ إن ترك خيرا ــ ولذلك انصبت دعوته على استلال الفساد فى الكيل والميزان من حياتهم . فنهاهم أولا عنه بقوله ــ ولا تنقصوا المكيـــال والميزان ــ ثم أمرهم بالوفاء به ــ ويا قوم أوفوا المكيـــال والمـــيزان بالقسط ــ ونهاهم عن بخس الناس أشـــياءهم ــ ولا تبخســـوا النـــاس أشياءهم ــ ونهاهم كذلك عن عامة الفساد ــ فقال ــ ولا تعثـــوا فـــى الأرض مفسدين ــ .

---

(١) مفردات الراغب ــ رزق ــ .



وهم في ردهم التهكمي الساخر منه لم ينسوا المـــال فقـــالوا ــ ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود/٨٧] ٠

فكانت المناسبة جلية بين قوله ﴿ورزقني منه رزقا حسنا﴾ وبيـــن المنازع التي كانت فاشية في قومه والتي جاء لانتزاعها من قلوبـــهم . وكأنه يقول لهم بذلك إن الوفاء في الكيل والميزان واستقامة الحركـــة التجارية على أساس من العدل هو الـــرزق الحـــلال وأمـــا النقـــص والتطفيف فهو الحرام ٠

وجواب الشرط محذوف يدل عليه السياق . وتقديـــره إن كنـــت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا فهل يصح لي أن أترك مـــا أفاض به علي وأشتغل بما حرمه علي نزولا على رغبتكم ؟

وذلك ما تدل عليه بقية الآية : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [٨٨] ٠

وفي مجال اختلاف الوصف جاء قوله تعالى عن ثمـــود : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقال عن عاد : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وقال عن قـــوم

نوح :﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٧٥ ، ٦٦ ، ٦٠ الأعراف] .

فقد اختلف الوصف فى الآيات السابقة من قوم إلى قوم . فثمود وصفت بالاستكبار ، وعاد وصفت بالكفر وقوم نوح لم يوصفوا إلا بكونهم من قومه .

فأما وصف ثمود بالاستكبار وإن كان يفهم منه الكفر لكنه ليس كالتصريح بلفظ الكفر صراحة .

فالوصف به دون الوصف بالكفر ، وقد وصفوا به لأنهم لم يواجهوا نبيهم بالغلظة فى الجواب والقسوة فى الرد كشأن الأقوام الآخرين بل إنهم توجهوا إلى الضعاف الذين آمنوا منهم وقالوا لهم ــ أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ــ وكان الحوار الذى بيناه فيما سبق .

وأما قوم هود فقد بالغوا فى الإساءة لنبيهم بقولهم له مباشرة ــ ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فقد وصفوه بالسفاهة والعراقة فى الكذب . والسفاهة تعنى فى أصل وضعها الاضطراب والتحير والرداءة وتستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل . كما ذكر الراغب . فهى صفة نفسية لازمة مناقضة كل التناقض لمنصب النبوة. ولذلك استحقوا وصف الكفر صراحة .

وأما قوم نوح عليه السلام فلم يوصفوا بالكفر فى الأعراف وإن كانوا قد وصفوا به فى هود والمؤمنون فقد جاء فى هود ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ وجاء في المؤمنون : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [٢٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [٢٥] فهذا الاختلاف بالوصف وعدمه مرجعه إلى أن هذه الأجوبة لم يقولوها في وقت واحد . وإنما هي أقوال قيلت في مقامات متعددة ومواطن مختلفة ، فقد يكون عدم الوصف في سورة الأعراف قاله الملأ في أول الأمر قبل أن يؤمن به أحد من أتباعه ، وأما الوصف في هود والمؤمنون فباعتبار أنه قد آمن به البعض ، وقد صرحوا بذلك في قولهم : ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ كما أعلمه ربه بإيمان البعض بقوله تعالى ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ فكان لابد من تخصيص الفريق الذى صدر منه هذا الجواب ولا مخصص له إلا الوصف بالكفر .

ويقول الغرناطي "فلإساءتهم فيما ذكر من الوارد عنهم في الموضعين وصفوا بالكفر في السورتين ــ هود والمؤمنون ــ وأما آية الأعراف فقولهم فيها ــ إنا لنراك في ضلال مبين ــ ليس كجوابهم في السورتين الأخيرتين ، لا من جهة الطول ولا من جهة المعنى ، لأن لفظ الضلال ليس بنص في الضلال عن الدين لأنه يقال ضل بمعنى تحيز وجار عن دين أو طريق ، ويتسع في إطلاق لفظ الضلال على

غير ما ذكرناه وقد قال بعض المفسرين هنا فى تفسير الضلال ، إنـــه الذهاب عن طريق الصواب والحق ، وبالجملة فإنهم لم يريـــدوا هنـــا الضلال الذى هو الكفر ، وإن كان قد يقع إذا تقدمته قرينة على أعظـــم من الكفر ، وأما هنا فليس كذلك فلما لم يكن فى الـــوارد فـــى ســـورة الأعراف من الإطالة فى العبارة والإبلاغ فيما قصدوه من المعنى مثـــل ما فى السورتين ناسبه الإيجاز وإن لم يوصفوا هنا بالكفر فقال تعـــالى: ﴿قال الملأ من قومه﴾ (١) .

ويمكن أن يكون الوصف بالكفر فى الأعراف قد حذف للعلم بـــه من قول نوح عليه السلام السابق عليه فى قولـــه تعـــالى : ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ فهذه الدعوة لا تكون إلا للكافر .

وأما ما جاء فيه الوصف بالكفر للملأ فلأن دعوة الرسل لم تنبـــئ عنه كما فى دعوة هود لعاد إذ قال لهم ــ أفلا تتقون ــ والتقوى قـــد يؤمر بها المؤمن . ويقال للعاصى الملم بصغيرة أفلا تتقى؟(٢)

ولكن الثابت من دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم أن أقوامـــهم كانوا كافرين . فسواء ذكر الوصف أولم يذكر فهو مفهوم من مجـــرد توجه الرسول لقومه آمرا لهم بأن يعبدوا الله وحده ، ويرجوا رحمتـــه ويخافوا عذابه ، وإن ذكر الوصف فلدلالة على عراقتهم فى الكفر، ذما

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٥٢٤ .
(٢) ينظر المرجع السابق .



لهم وتشهيرا بهم . إذ لم يستمعوا لنصح رسولهم الذى أرسل من أجلهم.

كانت تلك أهم النقاط الأسلوبية فى متشابه النظم فى قصة صالح عليه السلام، قد استظهرناها من خلال القصة نفسها مع غيرها من القصص الأخرى كما نثرت مفترقات منه أثناء العرض التحليلى للقصة.

وسبحان الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وهذا ما وفقنى الله تعالى إليه . والحمد لله على ما أعطى وأنعم . إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين

الخاتمة

بعد عرض مشاهد قصة سيدنا صالح عليه السلام وتحليل هـــذه المشاهد فى صورها المطنبة والموجزة والوقوف على دقائق الـتركيب القرآنى المعجز للجمل المكونة للقصة كلها . يمكن تقريـــر الحقـــائق التالية:

١ - أن القصة القرآنية اتخذت سبيلا إلى العبرة والعظة من مواقـــف السابقين مع رسلهم . وفى ذلك بيان لأثر القصص الحـــق فـــى التعريف بمنازع الخير والشر فى حياة الناس .

٢ - أن القصة القرآنية جاءت لتعالج منزعا نفسيا وسلوكا فاشيا بيـــن الناس . كتلك اللذائذ فى المطاعم والمشارب . والتباهى بالقصور ونحت البيوت فى الجبال وذلـــك بالنســـبة لثمـــود . وكانتشـــار التطفيف فى الكيل والميزان بالنسبة لمدين . وإتيان الرجال شهوة من دون النساء بالنسبة لقوم لوط .

والاستكبار والإدلال بالقوة بالنسبة لعاد . والاســـتحقار والكــبر والاستهزاء من الضعفاء بالنسبة لقوم نوح . وهكذا .

٣ - أن توزيع القصة القرآنية فى أكثر من سورة لم يلغ وحدتها. ولم يؤثر على ترابطها . بل كان كل جزء منها ملتحما فى الســـورة الوارد فيها . وكل المشاهد تكون فى النهاية القصة كاملة.



٤ – أن القول بالتكرار فى القصة القرآنية لورودها فى أكثر من سورة قول لا دليل عليه ولا ينبغى أن يقال . لأن كل مشهد كما تعرفنا على ذلك سابقا لبنة فى صرح كامل . وكل لبنة لها سمتها وهدفها لا تغنى غيرها مكانها. ولا يمكن الاقتصار على إحداها دون الأخرى •

٥ – أن الوضع العام للقصة القرآنية يدل على أن جميع الأنبياء والمرسلين هدفهم واحد ومنهجهم واحد . وإن اختلفوا زمانا ومكانا فالأصل هو التوحيد . وربط الناس بخالقهم لينعموا فى الدنيا والآخرة•

٦ – أن القصة القرآنية قامت على أرفع أسس فنية فى سرد الأحداث وتوالى الحوار واعتماد الروابط . وانتقاء الفواصل والتراكيب ذات الإيقاع الذى ينفعل به القارئ والسامع على حد سواء •

٧ – أن الجملة القرآنية قد بنيت بناء محكما . حققت ثراء فى الدلالة وتشابكا فى المعانى ، ووفاء بالغرض المطلوب ، وكان اختيار حروفها وأسمائها وأفعالها بحكمة وتقدير من لدن الحكيم الخبير•

٨ – أن الجملة القرآنية فى قصة ثمود قد ظهرت بأكثر من وجه وفى أكثر من موطن . ولها فى كل موطن دلالة ، يحددها السياق ويبينها الغرض •

٩ - كانت الفروق الصياغية فى بعض الجمل داخل القصة أو بين القصة وغيرها من القصص ذات أسرار بلاغية تنبئ عن الإعجاز البلاغى للغة القصة القرآنية .

وذلك ما جعل الفرق شاسعا بين لغة القصة القرآنية وبين القصة البشرية التى تراوحت لغتها بين الفصحى والعامية .

١٠ - بالرجوع إلى التحليل للمشاهد يطالعنا هذا الكم الهائل من الألفاظ التى جاءت معبرة عن معانيها تعبيرا دقيقا لا نظير له إلا فى لغة القرآن الكريم ، مثل : العقر ، والدمدمة ، والجثوم . والتبوؤ والرجفة والصيحة والصاعقة . إلى آخره .

ويبقى الكثير من الأسرار البلاغية للتراكيب منثورا فى تضاعيف القصة فليرجع إليه من شاء .



أهم المراجع

١ - القرآن الكريم ٠

٢ - الإتقان في علوم القرآن ــ السيوطي ــ المكتبة الثقافية ٠

٣ - أسرار البلاغة . عبدالقاهر الجرجاني ٠

٤ - الإعجاز البلاغي د/ محمد أبو موسى . مكتبة وهبة ٠

٥ - الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ د/ محمد الخضري ط أولى ١٩٩٣م ٠

٦ - الإيضاح في علل النحو . الزجاجي ت د/ مازن المبارك . دار النفائس بيروت ط٣ ١٩٧٩م٠

٧ - بدائع الفوائد . ابن القيم . دار الكتاب العربي ــ بيروت لبنان٠

٨ - البرهان في علوم القرآن . الزركشي . دار الفكر بيروت ٠

٩ - البيان عند الشهاب الخفاجي د/ فريد النكلاوي . الأمانة ١٩٨٤م

١٠ - البيان في روائع القرآن د/ تمام حسان ٢٠٠٢ ٠

١١ - بناء الجملة العربية د/ محمد حماسة عبداللطيف . دار الشروق

١٢ - تأويل مشكل القرآن . ابن قتيبة . شرح السيد صقر ط٢ ١٩٧٣م ٠

١٣ - التصوير الفني في القرآن الأستاذ / سيد قطب ط٤ ١٩٧٨م دار الشروق ٠

١٤ - التصوير البياني د/ محمد أبو موسى . مكتبة وهبة ٠

١٥ - تفسير التحرير والتنوير . الطاهر بن عاشور ٠

١٦ - تفسير ابن كثير ٠



١٧ - تفسير الطبرى ٠

١٨ - تفسير أبى السعود ٠

١٩ - تفسير أبى حيان ــ البحر المحيط ٠

٢٠ - تفسير الألوسى ــ روح المعانى ٠

٢١ - تفسير المنار . محمد رشيد رضا ١٩٧٣م ٠

٢٢ - تفسير الزمخشرى ــ الكشاف ٠

٢٣ - تفسير البقاعى ــ نظم الدرر ٠

٢٤ - تفسير الرازى ــ التفسير الكبير ٠

٢٥ - التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية د/ أحمد سعد ط١ مكتبة الآداب ١٩٩٨م ٠

٢٦ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ت د / محمد خلف الله د/ محمد زغلول سلام . دار المعارف ١٩٦٨م ٠

٢٧ - الجملة العربية دراسة لغوية د/ محمد إبراهيم عباده منشأة المعارف . إسكندرية ١٩٨٨م ٠

٢٨ - الجملة فى الشعر العربى د/ محمد حماسة عبداللطيف . الخانجى . القاهرة ط١ ١٩٩٠م ٠

٢٩ - حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٠

٣٠ - حاشية السيد الشريف على الكشاف ٠

٣١ - خطوات التفسير البيانى د/ محمد رجب البيومى مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١م ٠

٣٢ – الخصائص . لابن جنى ت/ محمد النجار . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م .

٣٣ – دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجانى ت أ/ محمود شاكر ١٩٨٩م .

٣٤ – درة التنزيل وغرة التأويل الخطيب الإسكافى دار الآفاق الجديدة . بيروت ط١ ١٩٧٣م .

٣٥ – دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ط١ ١٩٧٩م .

٣٦ – شرح التلويح على التوضيح ـــ سعد الدين التفتازانى .

٣٧ – شرح المفصل لابن يعيش . عالم الكتب بيروت .

٣٨ – الظاهرة القرآنية . مالك بن نبى ، دار الفكر ـــ دمشق .

٣٩ – ظاهرة الإعراب فى العربية أ / عبدالكريم الرعيض ط١ ١٩٩٠م .

٤٠ – العلامة الإعرابية فى الجملة بين القديم والحديث د/ محمد حماسة دار غريب ٢٠٠١م .

٤١ – الفاصلة فى القرآن أ/ محمد الحسناوى المكتب الإسلامى بيروت ط٢ ١٩٨٦م .

٤٢ – فى ظلال القرآن الأستاذ / سيد قطب . دار الشروق ١٩٨٧م .

٤٣ – قصص الأنبياء د/ عبدالوهاب النجار ط٢ ١٩٣٦م .

٤٤ – القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه د/ عبدالكريم الخطيب . دار المعرفة ـــ بيروت لبنان .



٤٥ – القصة وتطورها فى الأدب العربى د/ مصطفى على عمـر دار المعارف ٠

٤٦ – القصة القصيرة د/ الطاهر أحمد مكى . دار المعارف ١٩٧٧م

٤٧ – كشف المعانى فى المتشـــابه مـــن المثـــانى . ابـــن جماعـــة ت.د/عبدالجواد خلف ط١ ١٩٩٠م ٠

٤٨ – لسان العرب لابن منظور . دار المعارف ٠

٤٩ – مدخل إلى كتابى عبدالقاهر . د/ محمد أبوموسى ط١ ١٩٩٨م٠

٥٠ – مفردات الراغب ٠

٥١ – من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم د/ محمد الخضرى ط١ ١٩٩٣م ٠

٥٢ – ملاك التأويل . الغرناطى ت/ سعيد الفلاح ط١ ١٩٨٣م٠

٥٣ – مغنى اللبيب لابن هشام ت د/ مازن المبـــارك وآخريـــن ط١ ١٩٩٢م دار الفكر ٠

٥٤ – مفتاح العلوم للسكاكى ت/ نعيم زرزور . دار الكتب العلميـــة بيروت . لبنا . ط٢ / ١٩٨٧م ٠

٥٥ – النبأ العظيم د/ محمد عبدالله دراز ط٤ ١٩٧٧م ٠

٥٦ – الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم د/ محمد محمود حجازى مطبعة المدنى القاهرة ١٩٧٠م ٠

الفهرس







رقم الإيداع

١٩٨٥٢ / ٢٠٠٢